UNIVERSAL LIBRARY

OU_191085

UNIVERSAL LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٩٢٣ Accession No. ١٨٠٢٧

Author

Title

A1802

This book should be returned on or before the date last marked below.

الحركة الادبيـــة فى حلب

١٨٠٠ - ١٩٥٠

جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

محاضرات

عن

الحركة الأدبية في حلب

١٨٠٠ - ١٩٥٠

ألقاها
الأستاذ
سامي الكيالي

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٥٦

١٩٥٧

بداية يقظة ـ فجر الدراسات الحديثة ـ اهتمام معهد الدراسات بكل مايتعلق
بالكيان العربي ـ لمحة من تاريخ حلب القديم ـ موقعها الجغرافي ـ
بعض خصائصها ـ زراعتها ـ صناعتها ـ أثرياتها ـ حلب
الجديدة ـ مؤرخو حلب ـ تاريخها الأدبي ـ
طابع الأدب في عصر الانحطاط ـ سمات
الأدب الجديد ـ أدبنا المعاصر
ورواده الأوائل

هذه الفترة من حياتنا العقلية التى نعيش فى صميمها هى فترة حاسمة فى تاريخ الفكر العربى.

فترة درس وبحث وتوثب وانطلاق .

فقد ظل الفكر العربى ، طوال خمسة أوستة قرون ، فى غيبوبة سادرة ، لم تكن له هذه القوه المبدعة التى تميزّه وتجعل له هذه الحيوية التى تدنى انتاجه من انتاج الأدب الحى الذى تعيش الإنسانية على روائعه ، فاذا بدت بعض ملامح من يقظته أو حركته كان لونا من التقليد والاجترار .

ونحن نعلم أن الشرق العربى قد استيقظ قبل مائة عام أو أكثر على صيحات طائفة من الأدباء والمفكرين يوقظون ابناءه ويرسمون لهم معالم الطريق .

وظل خلال هذه الفترات ، يترنح متثاقلا ، ثم يعود إلى غيبوبته، ومازال يتأرجح بين الغفوة واليقظة ، بين السكون والحركة ، وبين الانكماش والتوثب إلى أن كانت نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م فكان هذا التاريخ بداية يقظة شاملة .

وقد وقف على قدميه ينظر إلى الماضى الذى تركة الأسلاف فإذا هو ماض ، إلى مافيه من فجوات ، يلتمع بالسنا الباهر .

ترك لنا تراثا ضخما من الأدب والحكمة ، من العلم والفلسفة ، ومما تقصر عنه أزهى عصور المعرفة عند أية أمة من الأمم المتحضرة ... ولكنه تراث رانت عليه الأتربة ... وكان لابد ، فى عصر البعث والانطلاق ، من إهالة الأتربة الكثيفة عنه ... وكان لابد من المهرة الاختصاصيين الذين تلقوا علم الغرب وحذقوا طرقه ومناهجه من أن يبدأوا العمل ... وتقدم هؤلاء الرواد

وعدة كل رائد ثقافة عميقة الأساس ، وجراة سامقة الذرى — تقدموا يهيلون التراب عن تراثنا الفكرى ، ويظهرون عظمته وألقه وجماله الباهر ، ويقدمون روائعه إلى القارىء العربى الذى رأى فى « ذاته » القديمة هذه القوى المبدعة التى تفصل بين ماضيه وحاضره — هذه « الذات العربية » التى تركت فى رحاب الفكر روائع شامخة ستظل مع الأيام باهرة السنا .

وكان حاضره ، إلى فترة غير بعيدة ، ما زال يجتر أدب عصر الانحطاط ويعيش فى قوقعة من رنين ألفاظ ذلك العصر ، انعدم الابداع أو كاد فى نفوس أدبائه وشعرائه ومفكريه . يرددون كالببغاء — أو يردد أكثرهم — شعراً قاله غيرهم ، ونثراً فى قوالب ضيقة من السجع أشبه بالمقامات حفظوها عن ظهر قلوبهم ، لا يعبّرون عن « ذواتهم » هذا التعبير الذى يفصح عن بعض هواجسهم ، أو يرينا صورة من حياة مجتمعهم . . .

فى هذه الفترة ، ضرب غير واحد من رجالات الفكر الذين اتخذوا « التجديد » عقيدة من العقائد — ضربوا بعصاهم السحرية ذلك الجدار السميك الذى كان يصون عصر الانحطاط ويحجب عنا كل جديد ينفحنا بالقوة والحياة فهدموه وفتحوا لنا الطريق الممهد لنسير فى نفس الطرق التى تسير الأمم الحية فى جوادّها وشوارعها — وبدت لنا حياة جديدة تطل على الدنيا بعوالمها المختلفة — دنيا الفكر المتحرر . . وأخذنا نتبع نفس الطريقة التى درج عليها مفكرو الغرب ، ودرج عليها أسلافنا الأقدمون الذين اتخذوا « حرية الفكر » نهجهم الأصيل فى التعبير عن كل ما يخطر ببالهم ، وكل ما يجعل لرسائلهم وكتبهم هذه القيمة العلمية التى عاشت مع الأجيال وكانت هدى لكل من ضل الطريق .

وهكذا ، من خلال هذه المناهج الحديثة التى رسم خططها المجددون وعلى رأسهم الدكتور طه حسين وزملاؤه الأصفياء الذين اتبعوا أساليب الغرب ومناهجه فى الدرس والبحث والكشف عن خصائص الفكر العربى فى جميع مراحله . . ومما أتبعه أسلافنا الأقدمون الذين جعلوا الحرية المطلقة

شعارهم فى بحث كل ظاهرة من ظواهر الدين والحياة والمجتمع ، بدأت حياتنا الفكرية تسير على ضوء هذه المناهج ، وتمر بألوان مختلفة من البحوث تناولت تراثنا الماضى لم تترك عصراً من العصور ، ولافترة من فترات الحياة السياسيةوالاجتماعية، ولاشاعراً وأديبا ، ولا فيلسوفا أومتصوفا ، ولا فاتحا أو قائداً إلا خص بأكثر من دراسة وبحث على نفس أساليب الغرب ومناهجه ، فكان لنا فى هذه الفترة القصيرة التى لم تتجاوز الثلاثين سنه مئات المباحث والرسائل والكتب التى أحاطت بتراثنا الفكرى القديم إحاطة شاملة .

وهذه الرسائل والكتب التى خطتهاير اعة الأساتذة الجامعيين وتلاميذهم وغيرهم من الفضلاء ممن يتزعمون حركة الفكر هى مادة خصبة لمعرفة ماضينا يشتى أطواره ومراحله .

فلهؤلاء الرواد . . . ولكل من وضع لبنة فى هذا البناء الضخم من تراثنا القديم التحية الخالصة والتقدير الكبير .

— ٢ —

أما حاضرنا فقد ظلت دراسته مهملة بعض الإهمال ، وما تزال مهملة إلى أن تنبه إلى هذه الناحية هذا المعهد الذى أخذ على عاتقه أن يجعل للشئون العربية ، فى شتى نوازعها ، المجال الواسع للبحث والدرس .

وما أحوج العرب ، وقد استيقظوا فى فجر هذا العصر وأخذوا يلمون شعثهم ويسعون وراء خلق كيانهم وخلق وحدتهم الكبرى التى مزقتها المطامع وعبثت بها يد الاستعمار — ما أحوجهم إلى هذه الدراسات العلمية المنظمة التى تتناول الشئون العربية بكافة ظواهرها بعمق البحث ، ودقة الدرس لكشف هذه الخصائص التى لا تزال ترزح تحت سجف الظلمات .

ومنذ أنشىء هذا المعهد أخـــذ يدعو الأدباء والمفكرين والأساتذة الجامعيين لبحث هذه القضايا التى تتصل بالكيان العربى ودرس الحياة العقلية

والحياة السياسية والتيارات الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية وكل ما له علاقة بمراحل التطور خلال هذه الفترة التي مرت من بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين .

وقد توزعت الدراسات على طائفة من رجال الفكر فقاموا بمهمتهم خير قيام ، واستطاع المعهد أن ينشر خلال هذه الفترة القصيرة من حياته ، رسائل وكتبا تعتبر مراجع وثيقة لكل ما يتصل بتاريخنا القومي وتاريخنا الفكري معا — أريد أدبنا ، قوميتنا ، خصائصنا ، نظمنا ، تشريعنا ، مراحل تطورنا ، التيارات التي لامست حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، الرجالات الذين لعبوا دورهم على مسرح الحياة العقلية وعشرات المباحث التي تتكون منها هذه المصادر الرئيسية لكل من يريد أن يتعمق ويوغل في درس تاريخ العرب الحديث في شتى أطوار حياتهم .

بعد هذه الخطوات المتئدة من الدرس والبحث أخذ يوجه اهتمامه للفترات الغامضة من حياتنا الفكرية . . . فحين تلقيت دعوة المعهد الكريمة لأحاضركم عن « الحركة الأدبية في حلب » استجبت لهذه الدعوة شاكراً ... لا بنزعة إقليمية ، فأنا من الذين يعتقدون أن أدبنا العربي كل لا يتجزأ وأن تباين تعبير الأدباء عما في نفوسهم ، بل لأن حلب قد مرت ، خلال هذه الفترة ، كسائر البلدان العربية بألوان مختلفة من حياة الفكر ، وقد شارك أدباؤها وشعراؤها ورجالاتها المصلحون بنصيبهم من النهضة العربية والبعث العربي ، إلا أن هذه الفترة ما تزال غامضة ، والدراسات لم تتناول رجالاتها بالدرس والبحث . . . أومرت بأكثرهم مرورا سريعاً . . . ومن الانصاف لتاريخنا الأدبي أن نحيط بكل من أسهم في بناء هـــذه النهضة الفكرية ولو بوضع لبنة صغيرة .

وأرجو أن ألقي بعض الأضواء على الحركة الأدبية العربية الحديثة لمدينة حلب ، كما أرجو أن أعطيكم صـورا واضحة لحياة الأدباء والشعراء والمفكرين ولا سيما الذين أهملتهم الدراسات الأدبية ولم تتناول سيرتهم بالاسهاب والتفصيل .

— ٣ —

وقبل أن نتناول حديث الحركة الأدبية فى حلب يحسن أن أحدثكم حديثا مقتضبا عن المدينة التى رضعت لبانها وشممت طيب هوائها وترعرعت تحت سمائها وعشت حياتى فى ربوعها . . . فهى مدينة وادعة توفرت فيها كل وسائل الحياة . وهى من المدن الموغلة فى القدم حتى ليذهب بعض المؤرخين إلى أنها من أقدم مدن العالم . عاشت مع التاريخ خلال القرون فصمدت للأحداث وشهدت المعارك وخاضت الحروب وواجهت الفاتحين فى كرّهم وفرّهم فرحبت ببعضهم وأزورّ وجهها للكثيرين ممن جاءوها مستعمرين ، وقد تناشد الشعراء على صعيدها شعر الفتح والغزو وقصائد الوصف والمديح ، وكتب المؤرخون عن عهودها المنصرمة آلاف الصفحات .

نعم ، إنها ذات تاريخ قديم ، وقد لا يعرف بالضبط من الذى بناها وإن اتفق الكثيرون على أن الذين بنوها هم الحثيون الذين كانوا يقيمون على ضفاف الفرات بالقرب من مدينة جرابلس أو قلعة «قره قش» — ينشرون مدنيتهم وينصبون تماثيلهم ويشيدون معابدهم ويقيمون المدن هنا وهناك توسيعا لمملكتهم ، فكانت حلب من جملة المدن التى رددت ذكرها النصوص البابلية والآثار الآشورية والنقوش المصرية القديمة وعرفت باسم حلب Halav, Halbb Halvan, وقد كشفت الحفريات الحديثة التى جرت فى وادى الملوك ، وبعض نقوش وكتابات أثرية رسمتها يد النقاشين بأمر رعمسيس الثانى على جدران الكرنك والأقصر عن ذكر صريح لهذه المدينة التى جرت فى أراضيها حروب دامية بين ملوك الفراعنة وملوك الحثيين انتهت بمعاهدات صداقة وود وولاء . . .

ونحن نعلم أن القوات المصرية كانت قد احتلت سورية الشمالية فى عهد تحتمس الثالث وما لبثت أن تركتها بعد قليل للحثيين .

وترمز هذه النقوش والكتابات إلى أن حلب « مملكة صغيرة خاضعة

الملك الحثيين وقد عرفت باسم «حلبو» ثم تطور هذا الاسم فأصبح «حلوان» فى عهد الأشوريين و « بيروا » فى عهد اليونان والرومان أى أن اسمها تطور خلال الأجيال من « حلب » إلى « حلبو » إلى « حلوان » إلى « بيروا » إنسياقا مع لغات الأمم التى غزتها وفتحتها . . . ثم لزمتها الصيغة الآرامية باسم « حلب » فترة طويلة إلى أن عرفت باسم « حلب » بالصيغة العربية وما تزال تحمل هذا الاسم منذ أجيال سحيقة إلى يومنا هذا .

وتاريخها حافل بالأحداث شأنها شأن كل بقعة من هـذا الوطن العربى الكبير وقد عرفت كمدينة ذات حضارة ومركز تجارى ممتاز منذ القرن الثالث، وحين دخلتها الجيوش الإسلامية فى القرن السابع ق . م نشطت بدخولها الحركات العمرانية والعلمية والاقتصادية ولا سيما فى عهد الأمويين ، وفى عام ٩٤٥ م . اتخذ الأمير الحمدانى سيف الدولة مدينة حلب عاصمة له ومقراً لجيوش المسلمين فى زحفها لصد الهجمات البيزنطية . . . وفى عهد الأيوبيين نعمت بجانب كبير من الإزدهار حيث أقام الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى عدداً كبيراً من المنشآت العمرانية فجدد حصون القلعة وحفر فيها الآبار وأنشأ داخلها حماما ومسجداً كبيراً وأصلح القنوات وأقام فى المدينة الحمامات المشهورة وعقد مع أهالى البندقية معاهدة ليكون لهم سوق تجارية فيها .

هذا ، وقد تعرضت المدينة لكارثتين كبيرتين من جراء هجوم المغول عليها بقيادة هولاكو عام ١٢٦٠ م فاعملوا فيها قتلا ونهبا وتدميرا مما قوض بنيانها ودك أركانها من جديد ثم أظلها عهد المماليك والدولة السورية المصرية وهو عهد من الفوضى والاختلال . وأعقبه بعد ذلك تيمور لنك عام ١٤٠٠م ثم آلت إلى الأتراك العثمانيين . . . وفى عام ١٥١٦ انضمت إلى الإمبراطورية العثمانية حتى نهاية الحرب الكبرى حيث كان الحكم العربى فى عهد الملك فيصل ، ثم دخل الإفرنسيون الطغاة وما زالوا فيها حتى عام ١٩٤٦ حيث تم إجلاؤهم عن سورية فنعمت بسيادتها ، وكانت حلب بين مدن سورية

الكبرى التى استردت نهضتها بفضل مركزها التجارى الممتاز .

لقد مر بهذه المدينة ما يقرب من عشر أمم ذات نزعات مختلفة فى الدين واللغة والدم من الحثيين إلى الأشوريين إلى المصريين إلى البيزنطيين إلى الفرس والعرب والترك وعرفت وجه الانكليز والافرنسيين عقب الحرب العالمية الكبرى ومع كل ما مر بها من عادات وأخلاق وديانات وحروب وثقافات متباينة ظلت كأكثر مدن الشرق العربى « عربية الروح والدم » وظلت متمسكة بالخصائص العربية فى شتى مظاهر حياتها .

* * *

إن تاريخ المدن ، أريد أكثر المدن ، مرتبط دائماً بتاريخ الحضارات ...

والمدن التى يتاح لها أن ترافق تطور الحضارات وأن تأخذ منها وتعطيها بعض ما عندها هى التى يكتب لها الخلود .

وقد استطاعت مدينة حلب أن ترافق أكثر من حضارة واحدة ، وأن تأخذ من كل حضارة ما عندها من تزاويق وتلاوين ومثاليات ، تحتفظ بها كوديعة مقدسة من جيل إلى جيل .

أخذت من الحثيين ومن البيزنطيين ، ومما أبدعه الإسلام ، وما غمرت به أوروبا الشرق أخيرا . . . فكان من تفاعل هذه الثقافات وتمازج هذه الحضارات أثر فى كل بقعة من بقاعها وفى كل مظهر من مظاهر حياتها — فى بيوتها وعماراتها ، فى خاناتها وأسواقها ، فى مآذن جوامعها وأبراج كنائسها ... فى هذه الخصائص النفسية التى تريك ألوانا من الصدق فى وطنيتها ، والاخلاص فى نضالها ، والحرص على كرامتها ، والذود عن حريتها ، والوفاء لذكرى أبطالها ، نعم ، ما زالت منذ عهد الحثيين ، إلى عهد الحمدانيين ، إلى يومنا هذا تعبُّ من مختلف الحضارات وشتى الثقافات إلى أن أصبحت خلال القرون الطويلة مدينة وادعة ذات أنفة وحمية وكرامة ، محتفظة بذاتيتها وبطابعها الشرقى الذى لا يأنف من الاستجابة إلى كل ما هو جديد مفيد .

وبعد ، فقد كدت أقصر حديثى على النواحى النفسية وما لهذا قصدت ، ولأعد بعد هذا الاستطراد إلى الكلام عن بعض ملامحها ومظاهرها .

* * *

إنها تقع فى شمالى سورية ، فى حفرة ترتفع حوالى ٣٨٠ م عن سطح البحر . . . لها كل مظاهر المدن الكبرى ، يخترقها نهر قويق — وهو نهير صغير — تكثر مياهه فى الشتاء وتجف فى الصيف ، وهذه حالة لازمته منذ القدم ، وقد أشار الصنوبرى الشاعر — أحد شعراء سيف الدولة — إلى هذا الجفاف بقوله :

قويقٌ من الصفراء ركّب جسمُه رُباه بهذا شهدٌ وحدائقه
إذا جد جدًّا الصيف غادر جِسمَه ضئيلا ولكن الشتاء يوافقه

وقد وصف مدّه فى الشتاء بقوله :

قويق إذا شم ريحَ الشتا ء أظهر تيهًا وكبراً عجيبا
وناسب دجلة والنيل والفرات بهاءً وحسنًا وطيبا
وإن أقبل الصيف أبصرته ذليلا حقيرًا حزينا كئيبا
إذا ما الضفادع نادينه قويقٌ قويقٌ أبى أن يجيبا

وما زالت الضفادع تناديه فلا يجيب ، ولا سيما بعد أن حبس الأتراك مياهه عن المدينة مخالفين بذلك كل دستور دولى . . . وكانت حلب تشكو الظمأ ، أو تشكو — وهذا الأصح — أزمة ماء شديدة صيف كل عام تدوم قرابة ثلاثة شهور فانفرجت هذه الأزمة بجلب مياه الفرات ، ويشرب الحلبيون اليوم مياها عذبة فراتا خاضعة لأحدث وسائل التعقيم .

وحلب ذات مناخ صحى جاف خال من الرطوبة .

وسهولها من أغنى مناطق الأرض السورية لسعة أراضيها وخصبها وتنوع مزروعاتها وهى أكثر عمرانا وسكانا .

وتزرع فى حقولها عدا الحبوب وعدا الأقطان مختلف الفواكه وأشجار الزيتون والفستق .

ولفستق حلب أسطورة يرددها الحلبيون بروح شاعرية .

يقولون : إن حباته لا تتفتح إلى فى ضوء القمر ، ويخلف تفتحها « طقطقات » أشبه بقُبل العذارى فى ليلة صافية من ليالى الصيف وقد وصف الأستاذ عادل الغضبان الشاعر الحلبي المتمصر هذه الطقطقات وكروم الفستق حين تحدث عن رحلة له فى ربوع سورية فى فصل الربيع بقوله :

« ليس فى السهل والجبل شجرة ولا زهرة ولا نبتة لم تستفد من نعمة الربيع إلا كروم الفستق بحلب ، فليس بينها وبين الربيع صلة ولا وداد ، فغلالة الفستق فى الربيع صفراء جامدة ، وثغوره مقفلة لا تفتر عن ألسنته الحمر ، وهو من رعايا الصيف يبلغ فيه أوج عزه وزهوه وإشراقه ، ويتكلم فى لياليه القمرية ويغنى ، فلا عجب إذا بدا فى هذا الفصل غيران محنقاً مغيظاً ، ولعل حاله بين الربيع والصيف تعرب عنها الأبيات التالية :

والفُستق الغيران أطبق جفنَه غيظا ولاح بوجنة صفراء
يرنو إلى الصيف الجميل لأنه يختال فيه بحُلةٍ حمراء
فكأنه وُذكاء تلقى نورَها حبّاتُ مَرجان بكف ذكاء
يا حسنه متدليًا ، يا لحَنَهُ متشققًا فى الليلة القمراء

* * *

ومع أنها بلد زراعى فقد برّت فى المجال الصناعى جميع مدن سورية ولبنان ولا سيما فى الصناعة المعدنية وصياغة الذهب والفضة ، وتعادل دمشق فى الصناعات النسيجية والحلوى والصابون والدباغة والأسمنت ، وتمتاز بصناعة السجاد والمشروبات الروحية والكحول وعصير الزيتون وحلج القطن .

وصناعة النسيج من أقدم الصناعات فى حلب وكانت فردية يدوية تعتمد على الغزل الأجنبي ولكنها تطورت فأصبحت آلية ، وتكونت شركات كبرى لها مصانع آلية ضخمة تسير على المغازل والمناسج الفنية الحديثة .

هذا ، وحين أمرّ هذا المرور السريع بشتى ألوان الحياة فى حلب — ماضيها وحاضرها ، حياتها الزراعية وحياتها الصناعية أريد أن أعطى ملامح صادقة فى كافة مظاهرها .

فحلب اليوم إن هى إلا استمرار لحلب الأمس من حيث حضارتها وازدهارها ، وهى إلى أخذها بمختلف وسائل الحضارة الحديثة مازالت محتفظة بطابعها الشرقى القديم ، وهى بذلك تجمع بين أمجاد الماضى وروعة الحاضر ، فالعمران قد امتد امتداداً واسعاً إلى كل بقعة من بقاعها . . . فى قلب المدينة وعلى تخومها قامت عمارات شامخة كما قامت قصور و « فيلايات » ، إلى حدائق كبرى هى آية بيانع زهورها وباســـق أشجارها وجمال أحراجها وأحواضها وبحيراتها .

نعم ! ، إنها إلى أخذها بمختلف وسائل الحضارة الحديثة مازالت محتفظة بطابعها الشرقى القديم ، « فهى تنفرد بين بلاد الشرق الأوسط بانها أسعد المدن الإسلامية حظاً من الآثار ، فقد حفظ التاريخ آثارها على الرغم من النكبات والحوادث والفتوح والغزوات . . . وما تزال فى جنباتها آثار اليونان والرومان وكتابات الفراعنة . وقد انقضى عليها ما يزيد على ألفى سنة »[١] .

ولعل أبرز أثريات حلب قلعتها الضخمة التى يعتبرها كروسول من أضخم القلاع الإسلامية فى الشرق الأوسط والنموذج الكامل للقلاع الحربية الإسلامية فى العصور الوسطى . . والحديث عنها يطول ، فقد شهدت حروب الكرّ والفرّ فترة طويلة مع الأمير الحمدانى سيف الدولة والقائد البيزنطى نيسفور فوكاس . . . ومع أن بناءها يرجع إلى أيام الرومان ، وفى رواية إلى أيام الحثيين إلا أن جانباً كبيراً من أبنيتها يرجع إلى العهود الإسلامية ، إلى عهد الملك الظاهر غازى فى أوائل القرن الثالث عشر . . . ومما يلفت

---

(١) مجلة الحوليات الأثرية السوريه المجلد الأول الجزء الثاني ص ٢٠٧ سامى الدهان .

النظر فى هذه القلعة مدخلها الرائع ، وهو يعد بحق آية من آيات الفن فى التحصين العسكرى . . . ثم قاعات الدفاع التى تعلوها قاعة العرش الكبرى ، فمسجد نور الدين زنكى والجامع الكبير الذى بناه الملك الظاهر سنة ١٢١٣ هـ .

وكما تعد القلعة من آثار حلب البارزة فلأسواقها هذه الشهرة الكبرى ، حيث تتميز بطابعها الشرقى الجميل وبقبابها الفخمة . . . وهى بذلك تشكل مظهراً بديعاً من مظاهر الطابع الإسلامى الذى تفتقر إليه غيرها من المدن .

وبعد فلا أريد أن استرسل فى وصف ما امتازت به حلب من خصائص إذ لا يتسع المجال للكلام عن شتى ظواهرها فحسبى هذا الالماع ، وحسبى أن أقول أن السنوات التى رقدتها تحت حكم العثمانيين قد كادت تردها إلى العصور الجاهلية الأولى ، ولم يكد ينزاح عنها هذا الكابوس الذى دام عدة قرون حتى استفاقت لتعيش من جديد ، وإذا هى فى سنوات غير طويلة تخطو خطوات جريئة وتثب وثبات منطلقة . . . فمن منشآت خيرية إلى مؤسسات اجتماعية إلى دور للطفولة إلى ملاجىء ومستشفيات ، إلى مدارس ومعاهد ، إلى مصانع ومعامل ، إلى حدائق ونواد وملاعب ، إلى ما شئت من هذه المنشآت التى تؤلف حياة من هذه المجتمعات الراقية التى تمتاز بها المدن الكبرى .

— ٤ —

وانتقل بكم الآن ، بعد هذه التوطئة عن حلب ، إلى الذين كتبوا تاريخ حلب ، فقد حظيت هذه المدينة بغير واحد من الأعلام تصدوا لكتابة تاريخها الأدبى والسياسى عبر القرون أذكر فى طليعتهم المؤرخ الثقة كمال الدين ابن العديم صاحب كتاب « بغية الطلب فى تاريخ حلب » وكمال الدين هذا من أفذاذ الرجال ، برزت مواهبه الفذة فى مختلف الفنون « كان محدثا حافظا

ومؤرخا صادقا ، وفقيها مفتيا ومنشئاً بليغاً ، شغل منصب قاضي قضاة حلب وتولى منصب السفارة بين الخلفاء والملوك ، وبلغت تأليفه العشرات من الرسائل والكتب ،وبين رسائله الهامة التي دلت على إيمانه المطلق بحرية الفكر في عصر ساده التزمت رسالته « الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري » فقد دافع بحماسة عن عقيدة شيخ المعرة وهاجم خصومه المتزمتين بجرأة . . . وكتابه « تاريخ حلب » من أوسع ما كتب عن هذه المدينة ، ضمنه أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ومن كان بها من العلماء ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراسة والملوك والأمراء والكتاب ثم بحث باسهاب جغرافية مملكة حلب وبحيراتها وجبالها وتربتها وهوائها ومائها وخراجها وعادياتها وذكر فيها مدنا تعد اليوم من كيليكية والجزيرة مع أنها من أعمال حلب ، وقد بلغت مسودة هذا الكتاب أربعين جزءاً كبيرا وهو أوسع مرجع لجميع المؤرخين الذين كتبوا عن حلب . .

ولا تقل قيمته عن قيمة تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي .

وكان ابن العديم قد انتزع من تاريخه الكبير هذا مختصراً سماه « زبدة الحلب في تاريخ حلب » .

هذا ، وقبل ابن العديم وضع حمدان بن عبد الرحمن الأثاربي تاريخا للشهباء بعنوان « القوت » والأثاربي هذا طبيب متأدب وشاعر ، وقد جمع تاريخ المدينة من سنة تسعين وأربعمائة وهو يتضمن أخبار الأفرنج وأيامهم وخروجهم إلى الشام من السنة المذكورة وبعدها .

وممن تصدى لكتابة تاريخها ابن العظيمي وابن حميدة .

وكتب رضي الدين محمد الحنبلي المتوفى سنة ٩٧١ هـ « در الحبب في تاريخ حلب » ثم كتب هذا المؤلف أيضا كتاب « الزبد والضرب في تاريخ حلب » وهو مختصر من « زبدة الحلب » .

كما كتب ابن الخطيب الناصرية « الدر المنتخب فى تاريخ حلب » وابن الخطيب هذا هو قاضى القضاة علاء الدين أبو الحسن على بن محمد ابن أسعد الطائى الجبرينى ثم الحلبى المشهور بابن خطيب الناصرية وكانت وفاته بحلب سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة . ٨٤٣ هـ

وكتب موفق الدين أبو ذر سبط ابن العجمى كتاب « كنوز الذهب فى تاريخ حلب » .

وكتب الشيخ طاهر بن حسن المعروف بابن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ كتاب « حضرة النديم من تاريخ ابن العديم مختصر من زبدة الحلب » .

وكتب ابن الشحنة كتاب « الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب . وخص ابن شداد مدينة حلب بجزء خاص من مؤلفه « الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء أهل الشام والجزيرة » .

ونلاحظ أن أكثر الذين تصدوا لتاريخ حلب نهجوا نهج ابن العديم وقبسوا من فيض أدبه ومن معين كتابه . . . بعضهم قد زاد حوادث السنين التى تتالت بعد ابن العديم ، وبعضهم اختصر وأوجز وأكثرهم اعتمدوه فى نقل الكثير من نصوصه وتحقيقاته .

وقد صدر عن المعاصرين أكثر من مؤلف واحد عن حلب ، نهج أصحابها النهج القديم فى التاريخ وسرد الحوادث وسير الأعلام كما جاءت فى كتب السير والتاريخ دونما تحقيق أو غربلة أو نقد .

من هذه التواريخ تاريخ « نهر الذهب فى تاريخ حلب » للشيخ كامل الغزى و « طرائف النديم فى تاريخ حلب القديم » و « لطائف الحديث فى تاريخ حلب الحديث » لميخائيل الصقال و« إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » للشيخ راغب الطباخ وسأعرض إلى هذه التواريخ حين أسوق الحديث عن أصحابها واكتفى بالاشارة إلى من أرخ لهذه المدينة التى شهدت جلائل الأمور وكبريات الأحداث خلال قرون التاريخ .

— ٥ —

بعد هذا الاستطراد الطويل عن تاريخ حلب عبر القرون وعن بعض مظاهر حياتها نتحدث عن تاريخها الأدبي . . . وتاريخها الأدبي يرجع إلى عهود سحيقة — إلى العصر الذى تربع فيه سيف الدولة على عرش المملكة الحمدانية — تلك المملكة التى لعبت أولعب أميرها دوراً خطيراً فى تاريخ العرب السياسى وتاريخهم الفكرى .

ولست هنا فى صدد البحث عن الدولة الحمدانية التى ازدهر الأدب وازدهرت الحياة العقلية فى حمى أميرها الشجاع سيف الدولة حيث التقى على صعيدها فى عهده صفوة من شعراء العرب وأدبائهم الخالدين . . . من المتنبي إلى الصنوبرى إلى أبي فراس إلى كشاجم إلى الخالديين إلى ابن جنى إلى الفارابى إلى غيرهم من شوامخ الأدب فتركوا للتراث العربى آثاراً ما تزال متداولة مع كر الأيام إلى يومنا هـذا . لست فى صدد البحث عن هؤلاء الشوامخ ولا عن تلك الفترة التى ازدهرت فيها الحياة الفكرية بل إذ أشير هذه الإشارة العابرة أريد أن أقول أن حلب أعطت دنيا الفكر العربى أجل ثروة تعتز بها دولة الأدب — أقول ذلك لا على سبيل الاعتزاز والتفاخر كحلبي بل لأقرر حقيقة يقول بها صفوة من رجالات الأدب — القدماء منهم والمحدثون — فقد أبدع أدباؤها وأبدع شعراؤها زهرات ذات عبير مسكر، وخلدوا آيات فى الشوق والحب والحكمة والرثاء مما يؤلف كتابا ضخماً فى تاريخ الأدب ، ولن أذكر عشرات الأسماء من كبار الشعراء والكتاب والمؤرخين الذين يزينون تاريخ حلب على ممر العصور ؛ ولا المؤلفات والدواوين ونفائس المخطوطات التى تحتل رفوف المكتبات فحسبي أن أذكر من هذه المجموعة اسم عبقرى واحـد استطاع أن يكشف أسرار النفس الإنسانية على ضوء ذاته ، والذى كتب من عزلته فى قريه من قرى حلب أجل التأملات الفلسفية ، وعرض إلى غوامض الكون وأسرار الحيـاة

فجلاهما بروحه الفلسفية وبصيرته النافذة ومزاجه الساخر المتشائم — جلا غوامض الكون وأسرار الحياة أوضح جلاء .

ولعلكم عرفتم من أقصد .

لقد كان أبو العلاء المعرى أكبر مفكر عربى فى تاريخنا الأدبى كله .

وحسب حلب مفخرة أن يكون هذا الفيلسوف الشاعر من قرية من قراها .

أأقول أن أرض حلب المخصابة قد تصاب بالعقم أحياناً . . . بلى . . . ولكن حين تنجب تأتى بالأعاجيب ...

وبعد فمالنا ولهذا ... إننا نريد أن نؤرخ فترة من تاريخ حلب الأدبى — تاريخها فى الحركة الأدبية الحديثة .

ونحن نعلم أن الحركة الأدبية ، فى شتى الأقطار العربية ، مرت فى فترات صمت عميقة خلال العصور المتعاقبة التى حكم فيها العثمانيون وما زالت حتى بداية القرن التاسع عشر أونهاية حكمهم . نعم ، ظهر أدباء وشعراء ومؤلفون ولكن كان أدبهم وشعرهم يسير فى نطاق من المعانى المحدودة الضيقة ، فلا حس ولا شعور ولا تعبير عن عاطفة صادقة ، قدغلف أكثرهم عقولهم وقلوبهم وفتحوا عيونهم على من سبقهم من الشعراء والأدباء وأخذوا فى تقليدهم وإقامة بناء قصائدهم بناء لا انسجام فيه ولاجمال — لا وحدة فى المعنى ولا اتساق فى المبنى ، وهكذا فقد أصيب الشعر مثلا فى العهد التركى بوباء التنميق اللفظى الذى ذهب بمائه ورونقه وتركه مراراً كثيرة على حالة المريض المدنف بعد أن ألح عليه السقم والهزال فإذا ما أزحت ستار الألفاظ البراقة لاتقع غالباً إلا على معان مكرورة مسروقة غثة ، وافتن الشعراء فى أنواع البديع والتصنع وكثر التشطير والتخميس والاقتباس والتضمين حتى قال بعضهم :

أطالع كلَّ ديوان أراه ولم أزجُرْ عن التضمين طَيرى
أضمِنُ كلَّ بيت فيه معني فشِعرى نِصفُهُ من شِعر غيرى

وأولع الشعراء خصوصاً بالتورية وتباهوا بأنها من خصائص عصرهم فقال ابن حجة « لهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شموسها ، ومزجوا بها الذوق السليم لما أداروا كؤوسها » .

ونظموا الألغاز والأحاجى واستكثروا لإظهار براعتهم وحذقهم من الألفاظ المصغرة والمعجمة والمهملة ، والتزموا مالا يلزم ، وأتوا بمالا يستحيل بالانعكاس ، وبالغوا فى التأريخ الشعرى وهو أن يأتى الشاعر بالفاظ تدل حروفها بحساب الجُمَّل على سنة معينة ، وقد أسرف الشعراء فى استعمال الكلام العادى الصريح فى الهجر ، والتعابير البذيئة والغزل المذكر ، وانتشرت فى الشعر الألفاظ العامية والكلام غير المعرب »[1]

هذه هى سمات الأدب وهذا طابعه فى عصور الانحطاط التى دام فيها حكم العثمانيين للبلاد العربية ، وقد ورث الأدباء والشعراء هذه الميوعة التى لازمتهم إلى بداية القرن العشرين إلا من تحرر أدبه وشعره من القيود والأقمطة وهم قلة .

* * *

والحياة الأدبية لقطر من الأقطار أو لعصر من العصور هى تعبير أدبائها وشعرائها عن ذاتهم وعن مجتمعهم ، عما يثيرهم أو يثير قومهم ومجتمعهم تعبيراً صادقاً فنقرأ فى شعرهم وفى نثرهم ملامح الحياة وصور المجتمع ، ونجد فى شكل هذا التعبير لون هذا الأدب . . . هل هو أدب يماشى سنة التطور؟ هل تحرر من القيود ؟ هل كان أدباً مبدعا أم مقلداً ؟

« فالأدب فن من الفنون الرفيعة تصاغ فيه المعانى فى قوالب من اللغة وفيه جمال وفيه متعة وفيما يتضمن من بيان وبلاغة وروعة ، وله سحر قوى الأثر فى النفوس ، وهو هذا الذخر المعنوى الذى نصوغه فى قالب لغوى ، وفيه

---

(١) تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخورى ص ٨٦٥ .

أفكار وعواطف وصور مختلفة من الحياة يتخذ منها القارىء أو المستمع غذاء لنفسه وحافزاً لحياته ويجد فيها سروراً ومسلاة ويتبين فيها صورة من حياته وحياة الجماعة .

فمادة الأدب هى الحياة والتجارب التى تصاغ فى قوالب من الألفاظ والتراكيب والأساليب ، فينشأ عن ذلك تيار متدفق من الصور الذهنية ومن الفكر ومن العواطف والوجدانات ومن المعانى المتماسكة تماسكا عقليا منطقيا أو وجدانيا عاطفياً ، وكل هذا يبعث فى الإنسان الانتباه ويسترعى نفسه فيصور هذا التيار المعنوى عن طريق عقله وقلبه كما يرى شريطا تصويريا « سينمائيا » عن طريق عينى رأسه ، وقد يجتذب هذا التيار المعنوى الوجدانى عقل الإنسان ويستهوى إعجابه ويسحر لبه ويستولى على حواسه فيشعر بجلال المعانى وروعة الأسلوب ، ويغمره إحساس يملك عليه مشاعره فيحس بالخضوع لهذه القوى الساحرة »[1] .

وعلى ضوء هذه التجارب الذاتية أو هذه التيارات الأدبية سنحاول أن ندرس هذه الفترات من حياة أدبائنا وشعرائنا .

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هل ساهمت حلب فى الحركة الأدبية الحديثة ؟

من هم أدباؤها وشعراؤها ؟

ما هى آثارهم ؟

ما هو الأثر الذى تركوه فى الحياة العقليـــة ... أو فى بيئتهم ؟ هل استجابوا إلى النزعات الحرة التى ترددت أصداؤها فى مصر ودمشق وبيروت وبغداد مثلا . .

قبل الإجابه على هذه الأسئلة وقبل أن ندخل صميم الموضوع أريد أن أقول كلمة عن أدبنا المعاصر كتوطئة عامة .

---

(١) الأصول الفنية للادب لعبد الحميد حسن ص « ٤ ـ ٨ »

— ٦ —

وإذ أقول الأدب المعاصر أريد هـذه الصيحات التى يرسلها الأدباء وتفيض بها قلوب الشعراء من أدب وجدانى ، إلى مقالات منثورة فى ظواهر الحياة والمجتمع ، إلى دراسات تتناول حياتنا العقلية وتبحث أدبنا فى ماضيه وحاضره ، إلى شعر يصور هذه الهجسات القومية والتأملات الذاتية ، إلى غير ذلك من الصيحات والنفحات . . .

وكما كانت هذه الهجسات والتأملات فى المـاضى وفى مختلف عصور الأدب ، صورة حية لتراثنا الأدبى ، فهى اليوم بشتى ألوانها تؤلف هذه الصورة الواضحة من أدبنا المعاصر .

ولست من رأى بعض الأدباء الذين يقولون أن أدبنا لا يمثل حياتنا ، أن هذا الأدب على اضطرابه وضعف بعض ألوانه يصور هجساتنا ونزعاتنا أصدق تصوير . . . وهو اليوم أقوى منه بالأمس ، ولا يتسع المقام هنا لأن أشير إلى التطور الذى بدأ من نهاية القرن الثامن عشر إلى اليوم . فقد مر أدبنا ، خلال هذه الفترة الطويلة بعوامل مختلفة منها سياسى ومنها اجتماعى ... ولـكن حسبى أن أقول أن إتصال الغرب بالشرق . . . ثم ظهور المطبعة كعامل قوى فى نشر الفـكر . . . والبعثات العلمية التى أرسلها مؤسس الأسرة العلوية إلى أوروبا — هـــذه الظواهر التى يبحثها مؤرخو الأدب باسهاب هى المراحل الأولى لبدء تاريخنا الأدبى . . . فى هذه الفترة ظهر أفراد من مفـكرى العرب ، بعضهم تأثر بثقافة الغرب وبعضهم بثقافة الشرق — وجميعهم قد أوتوا هذا الفيض الوجـدانى لبعث الأمة العربية وتحريرها من عبودية القرون المظلمة . نعم ، فى هذه الفترة ظهر أفراد من مفـكرى العرب أخذوا على عاتقهم أن يعيدوا للماضى العربى بريقه وإشعاعه ، فقد قرأوا تاريخ الأمة العربية ، وقرأوا أدبها الزاخر بالحكمة البالغة فرأوا أدبا قويا وأمة لعبت فى تاريخ الحضارة أكبر دور ، وانطوى ما ضيها على أمجد الصفحات . . ثم رأوا هذا الأدب يضعف ويهزل بضعف الأمة العربية وتقلص سيادتها . . وكان بعض المفـكرين قد قرأوا أدب الأمم الحية

ودرسوا تاريخ تطور الشعوب ، وقارنوا بين نهضة الغرب وانحطاط الشرق ، وكيف يعيش الأول بمجد وسؤدد والثانى فى ذل وعبودية . . . فتألموا . . . وكان الأدب وسيلتهم للتعبير عن آلامهم وما تشعر به الأمة من ضعف ... وقد قادهم هذا الألم إلى أن يكون أدبهم صيحات تنبه الغافلين ، وتعمل على بسط المعرفة فى جميع أنحاء الشرق — من أولئك الذين آمنوا بثقافة الغرب، ولم ينكروا قيمة الخصائص العربية البستانيون واليازجيون والطهطاوى والأفغانى والشدياق وغيرهم من المفكرين الأحرار الذين كانوا أول من بذر بذور الثورة الفكرية فى الشرق العربى . . . وقد ترك بعضهم آثارا أدبية قيمة وظهرت عدة رسائل فى أغراض ثقافية محدودة وأخذت دواليب المطبعه تقذف النشرات والصحف ، وتمخض العالم العربى عن جيل جديد من المفكرين كان فى طليعتهم محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وأديب اسحق وأحمد لطفى السيد وشبلى شميل وسليمان البستانى الذى عرّب الياذة هوميروس — وتعريب الالياذة من الأعمال الأدبية الفذة التى لم يظهر ما يوازيها فى أدبنا المعاصر إلى اليوم كأثر أدبى وإن كانت الاستفادة منها مقصورة على أفراد قلائل جداً — كان لهؤلاء المفكرين نزعات سياسية واتجاهات اجتماعية ترمى إلى بعث الشرق وتحريره من الأصفاد ، وكان بعضهم يقول بخلق (الكيان العربى) كعامل قوى فى تطور الشرق .

وهنا بدأت (العنصرية التركية) تذر قرنها محاولة القضاء على هذه الروح الجديدة التى أخذ مفكرو العرب يوقظونها ، فانتبه الأدباء لهذه الظاهرة قبل أن ينتبه إليها السياسيون المندمجون فى الكيان العثمانى ، نعم، انتبه الأدباء لهذه الظاهرة وأخذوا يرسلون صيحاتهم فى جو مكبوت ، فأدى الأدب رسالته من الناحية القومية دونما تبجح ، ومر الشرق العربى ، فى هذه الفترة ، بمراحل سياسية مختلفة ليس هنا مجال سرد عواملها ، من « الشرقية الإسلامية » إلى « القوميه العربية » ، وكان شرقنا العربى يخطو خطواته الوئيدة ، يلتفت إلى الماضى أكثر من اندفاعه إلى الأمام ، ومع هذا فقد بدأ الأدب المعاصر مرحلته الثالثة فى تصوير هذه التيارات ، وهى ذات بواعث قومية ونزعات تحريرية ،

فظهر جيل جديد عمل أفراده على بعث الأمة العربية ذات الماضى الذهبى الجميل .

نذكر فى طليعتهم محمد كرد على وشكيب أرسلان ، ورشيد رضا ، ويعقوب صروف وجورجى زيدان ، وفريد وجدى ، وجميل صدقى الزهاوى ، ومعروف الرصافى ، وشوقى وحافظ والمطران وأمين الريحانى ، وغيرهم وغيرهم من رجالات الفكر الذين قضوا شطراً كبيراً من حياتهم يرسمون أهدى الطرق لسير هذه الأمة ، وفك السلاسل التى أحكم ربطها المستبدون على مر الأجيال وتعاقب القرون .

* * *

وتبدأ هذه المرحلة فى نظر مؤرخى الأدب بإعلان الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ ، وهنا لمعت أسماء سارت فى نفس النهج . ثم جاءت الحرب العالمية الكبرى سنة ١٩١٤ ، فالحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، وظهر خلال هاتين الفترتين أعلام من المفكرين ساروا جنبا إلى جنب مع قادة الحركة الوطنية ، فكان الأدب ، ولاسيما الأدب القومى ، يتغذى من الحركات الوطنية ويغذى بدوره الثورات السياسية فى سيرها التحررى ، وتطور الفكر العربى تطورا ملموسا ، وقاد حركة التجديد الأدبى طه حسين وهيكل والعقاد ، والمازنى واسماعيل مظهر وسلامة وموسى فى مصر ، وتابعهم فى سورية ولبنان والعراق أدباء متحررون .

وظهر جيل جديد يفهم رسالة الأدب بمدلولها العميق . وكثر إنتاجنا ، ودخلت حياتنا الأدبية فى عهد جديد بما يجعلها أن لا تكون فى منأى عن الحركات الأدبية العالمية ، واستعاد الأدب العربى الحديث رونقه القديم فى أبان إزدهاره وربما زاد عنه قوة ، وضاهاه رونقا وجمالا ، وبهراً وسناء .

* * *

وأقف بكم اليوم عند هذا العرض السريع لا بدأ محاضراتى التالية عن أدباء حلب — عن نثرهم وشعرهم ومؤلفاتهم والأثر الذى تركوه فى الحياة العقلية أو فى بيئتهم . ومدى تجاوبهم مع أدباء الأقطار العربية ، وبذلك نجلو بعض صفحات غامضة من أدبنا المعاصر .

الشرق العربي فى القرن التاسع عشر ـ مهمة الأدباء المفكرين فى يقظته ـ أدباء
ثائرون ـ رزق الله حسون ـ مراحل حياته ـ نزعاته ـ سفره
إلى باريس ولندن ـ من القاهرة إلى الآستانة ـ اشتغاله فى الصحافة
ـ اتهامه فى أماناته ـ سجنه ـ فراره من السجن وسفره
إلى روسيا ـ ترجماته عن الأدب الروسى ـ عودته
إلى لندن ـ اهتمامه بالمخطوطات العربية ـ
نقل قصص من التوراة شعراً ـ
نماذج من شعره المترجم

— ١ —

نبدأ محاضرة اليوم بإلمامة عامة عن أدباء حلب الذين عاشوا فى منتصف القرن التاسع عشر . . وهم يؤلفون حقبة من التاريخ الأدبى . ، والواقع ، أن تاريخ حلب ، وتاريخ سورية بصورة عامة — إن تاريخنا الفكرى لتلك الحقبة من الزمن لم يكتب بعد . . وفى قولى هذا لاأريد أن أغمط جهود من تقدمنا من الفضلاء الذين كتبوا مئات الصفحات وآلافها عن تاريخ حلب . أومن حاولوا هذه المحاولة بصفحات قليلة . لا . ومعاذ الله أن أغمط فضل هؤلاء أو انتقص جهود أولئك . . فعمل كلتا الفئتين مشكور ، والأمانة التاريخية تقتضينا أن نشيد بذكرهم وأن نشير إلى فضلهم لأنهم أناروا لنا معالم الطريق وإن بدت هذه المعالم جد ضئيلة . . فقد ذكروا المترجم له واسمه ونسبه ونماذج يسيرة من نثره وشعره ، ولا سيما شعره الذى يتصل بالمدح والفخر والغزل والهجو والرثاء — اقتصروا على ذلك دون ذكر الأحداث التى رافقت عصرهم والتى لها وثيق الصلة بنظام الحكم وطبيعة المجتمع ونفسية الشعب وماكان وراء هذه الأحداث من شدة ورخاء ، ويأس ورجاء ، وظلمات وضياء . . وهذه عناصر أساسية للمؤرخ الذى يرى من سجوف هذه الأحداث حيوية الشعب بكافة طبقاته فيلمس على ضوئها ثورة الكاتب ورعشة الشاعر وكفاح المفكر — هؤلاء الذين يتميزون على غيرهم بجرأتهم ونضالهم فيتركون للتاريخ أثراً بارزاً من أعمالهم التى تقود الأمة إلى طريق التحرر والحياة .

ولسنا الآن بصدد نقد النهج الذى اتبعه من سبقنا فى تاريخ سيرة تلك الشخصيات بل أشرنا إلى هذا بطريق الاستطراد .

ولنعد إلى ما كنا فى صدده .

فنحن حين نرجع مائة سنة إلى الوراء نتلمس حالة الشرق فى مجموعه — وكان الشرق العربى مقاطعات خاضعة للسلطة العثمانية المترامية الأطراف — نجده لا يزال فى غيبوبته . يتسكع فى دياجير الجهل ، فلا مدارس ولا جرائد

ولا أندية ولامؤسسات كما هو الحال اليوم — لقد كان العلم محصوراً فى نطاق ضيق — فى المدارس الدينية والجوامع .

والعلم فى الماضى — فى تلك الحقبة من الزمن ، وفى تلك الفترات التى سبقتها ، هى علوم العربية والعلوم الدينية ولا شىء غير ذلك — نعم ، حين نرجع مائة سنة إلى الوراء نجد مدينة حلب كبقية المدن العثمانية ، قد خمدت فيها الحياة . وران على صدرها الجمود ، وانقطعت عن العالم إلا ما يتصل بعالم التجارة والصناعة اليدوية ، يحكمها وال هو الحاكم المطلق المنفذ لإرادة السلطان — ظل الله فى أرضه — . . كل همّ الشعب أن يؤمن على طعامه وشرابه ، وأن يتقى الأوبئة والمجاعات وأن يدفع عنه شرور ذوى النفوذ الذين كانوا يتآمرون مع الولاة لاستغلال خيرات الوطن أبشع استغلال .

كانت هـذه الحالة المزرية هى التى أهابت ببعض المفكرين ، وهم من الندرة بمكان ، أن يعملوا فى الخفاء على بحث الحيوية فى قلب المجتمع ، بما يبثونه من آراء حرة ، وما يذيعونه من خواطر منطلقة ، هى صدى خافت لبعض المذاهب الجديدة التى كانت تسود أوروبا وبعض مدن الشرق — تلك المذاهب التى انبثقت عن الثورة الافرنسية التى أشعت أضواؤها على كل أفق .

وقد كان لتسرب هذه الآراء إلى بعض المفكرين صدى غير مستحب لدى رجالات الحكم ولداتهم من المتسلطين الذين كانوا يعيشون بذهنية الإقطاعيات القديمة وأخيلة العصور الوسطى . . وهنا بدأ الصراع الخفى .

لقد آلم بعض المفكرين أن يكون هذا الجزء من وطنهم على ما هو عليه من التفكك ، وأن يعيش الشعب فى وهدة الخمول ، وأن يفقد حس الحياة ، وأن يصبح مطية للولاة المستبدين ، ومزرعة لأطماع الإقطاعيين ، فثاروا على هذه الأوضاع ، وأخذوا يعبرون عن آرائهم ، ويفصحون عن ميولهم بالسر طوراً وبالجهر طوراً آخر . . وقد لقى أكثرهم العنت والظلم وضاقت بهم

أرض الوطن الرحبة ، فنزحوا عنها ، وهاجروا إلى مختلف بلاد الله . . وهنالك رفعوا أصواتهم جهرة واستطاعوا أن يكونوا أول رسالة من رسل الحرية . .

إن فى تاريخ حياتهم سطوراً تنبض بالحياة والقوة والاندفاع فى سبيل تحرير وطنهم من الجهالة والظلمات وإذاقته طعم الحرية الحلو المذاق . . لقد حمل كل واحد منهم عبء آلام الأمة التى كان ينوء به ظهرها . . وهذه هى صفات المفكر الحر الذى لا يستطيع أن يصبر على ما تقاسيه أمته ومايقاسيه وطنه من ألوان الذل والعبودية .

فعبد الرحمن الكواكبي ورزق الله حسون وجبرائيل دلال وفرنسيس مراش وغيرهم وغيرهم ممن شربت نفوسهم كأس الحرية وتأثروا بمبادىء الثورة الافرنسية قد أحبوا أن ينهضوا بوطنهم ؛ وأن يشيعوا روح الحرية فى نفوس أبناء أمتهم ، فلقوا فى سبيل ذلك الكثير من العنت والاضطهاد .

ونظرتنا إلى حياتهم تختلف كل الاختلاف عن نظرة من أرّخ لهم من المواطنين .

فسيرة جبرائيل الدلال مثلا ليست هذه القصائد التى كتبها فى مختلف أغراض الحياة فى المدح والرثاء والحب والوجد والحنين بل قصيدته الكبرى — العرش والهيكل — وهى لون من الشعر الثورى ، ففيها ثورة على العادات والتقاليد والكثير من الأوضاع والعقائد الفاسدة . . إنه أراد أن يهوى بتلك العروش التى تربعت على أرائك الحكم وأخذت تفرض سيطرتها وجبروتها على النفوس الساذجة ، فهو يهدم الانصاب والتماثيل ويفضح نيات الدجاجلة من رجال الدين ، ولا يترك ناحية مما يمس الحياة والمجتمع إلا صورها تصويراً دقيقاً . وقد نظم قصيدته هذه وهو فى اكتمال شبابه ، وتربو أبياتها على المائة والخمسين بيتا . . وفى رواية أنه ترجمها عن فولتير . . ولكن

أسلوبها لا يتمشى مع أسلوب فولتير . . والأصح أنه تأثر بآرائه الهرطقية ونزعاته الحرة فضمنها الكثير من تلك النزعات التى عرف بها أحرار الفكر من أدباء الفرنسيس كروسو وديدرو وغيرهم .

وقد أودت به هذه القصيدة إلى السجن فظل سجيناً مدة سنتين إلى أن وافاه القدر المحتوم وهو فى سجنه فذهب ضحية فكره ومعتقده ونزعاته الحرة فى سبيل وطنه وأمته .

ورزق الله حسون صاحب جريدة « مرآة الأحوال » التى صدرت فى استانبول ثم انتقلت إلى لندن كان من ألمع الكتاب السياسيين لزمنه . . ومن لندن أخذ يكتب مقالات ثورية فى نقد سياسة الحكومة العثمانية والتنديد برجالها والتشنيع على جور ولاتها وحكامها . . وكانت حياته سلسلة من الآلام والمتاعب .

وعبد الرحمن الكواكبي ، أنه فى طليعة المفكرين الحلبيين الذين قاوموا الاستبداد وتحملوا العنت ، وسيرته مليئة بالكفاح المستمر والنضال الثورى العنيف . . لقد بدأ نضاله فى بلدته حلب يقاوم جور السلطان المستبد عن طريق الصحافة حتى إذا ضاقت به وتألب عليه الطغاة سافر إلى مصر . . ثم طوف فى بلدان الشرق يعمل وراء فكرة تحرير العالم الإسلامى وخلق امبراطورية عربية كبرى . . وما زال إلى أن ذهب ضحية الدسائس بعد أن ترك للعالم العربى كتابيه الشهيرين « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » ويعد الأخير من أنفس ما كتب لعهده ، فى موضـــوع الحرية ومقاومة نزعات الاستبداد الطاغية فى تلك الفترة من الزمن .

لقد بذر الكواكبي بذور الحرية فى أرض كانت لا تزال خاضعة لشتى ألوان العسف والجهل والحرمان . . وهو بهذا يعتبر ، كما قلت ، من الرائدين الأولين فى سبيل التحرير الوطنى بمعناه الشامل .

ثمة رجال غيرهم ممن حاولوا هذه المحاولات . وكان الرمز شعار أدبهم خشية البطش .

وقد تميز ذلك العصر بشخصيات لم تكن لتجول فى هذا المضمار .. وكان أدبهم قاصراً على هذا اللون الجاف من تصوير بعض أفانين الحياة بأسلوب متعاظل ، ومن الأمانة للتاريخ أن نلم إليهم . وحياة كل واحد من أولئك الرواد تحتاج أن تؤرخ تأريخاً صادقا على ضوء المناهج الحديثة وهذا مانريد أن نحاوله فى محاضراتنا لنرسم صورة واضحة المعالم عن تلك الشخصيات الحلبية من أدباء القرن التاسع عشر ثم نعقبها بإلمامة عن أدباء حلب المعاصرين فى القرن العشرين .

— ٢ —

رزق الله حسون

١٨٨٠ — ١٨٢٥

وأبدأ حديثى بالكلام عن رزق الله حسون . .

وكما ذكرت آنفاً ، فقد تميز القرن التاسع عشر ، فى شرقنا العربى بظهور فطاحل من رجالات الفكر ساهموا مساهمة فعالة فى التمهيد لهذه النهضة التى يقطف ثمارها أبناء الجيل الحاضر .

فقد كان العالم العربى فى غيبوبة سادرة ، وكانت مهمة المفكرين أن يزيلوا الغشاوة عن عقول الشعب ، فقام كل فرد بنصيبه من نشر المعرفة ومصاولة الاستبداد .. منهم من اتخذ الأدب وسيلته لبث آرائه فكتب وخطب وقرض الشعر وأصدر الصحف وألف الكتب .. ومنهم من دخل غمار السياسة ، ومنهم من انتظم فى سلك رجالات الحكم فكان أداة لخدمة بنى قومه .

وكثيرون هم الذين لمع إسمهم فى تلك الفترة فتركوا أثراً بيناً فى تطورنا الإجتماعى ويقظتنا القومية بل فى حياتنا العقلية . . أظهرهم ، كما ألمعنا ، جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وبطرس البستانى ، ورفاعه الطهطاوى ، وأحمد

فارس الشدياق ، والشيخ ناصيف اليازجى ، وعبد الله النديم ، وأديب إسحق وغيرهم من رجالات الفكر فى البلاد العربية . . وكان لحلب نصيبها فى هذا المضمار ، فظهر فى تلك الفترة المظلمة من حياة الفكر ، رجالات وهبوا أنفسهم لرفعة وطنهم وإيقاظ أمتهم سواء عن طريق الصحافة أو تأليف الكتب أو تسنم المناصب العالية ، وقد لقوا ، ككل مفكر يعمل فى عهود الإستبداد ، المظالم والإضطهاد . . ولم يثنهم هذا عن أداء رسالتهم فظلوا يعملون حتى آخر لحظة من حياتهم بالرغم مما لاقوه من نفى وتشريد .

من هؤلاء الأعلام الذين خلد التاريخ الحلبي إسمهم بين أدباء القرن التاسع عشر ــ رزق الله حسون .

فقد مرت حياة هذا الصحفى الأديب الشاعر بألوان مختلفة من الصراع وسنحاول ، فى حديثنا هذا ، أن نلم إلمامة واسعة نؤرخ فيها خطوط حياته بالإستناد إلى ما كتبه بعض معاصريه[1] وسنرى فى سيرته صفحات مشرقة تدلنا على ألمعيته ونضاله وصراعه الطويل فى سبيل المجد والحرية .

* * *

نشأ رزق الله حسون وهو طفل فى وسط تجارى قح . وكان المفروض بعد أن ألم بمبادىء القراءة والكتابة ، أن ينهج نهج أبيه فى ممارسة التجارة ، ولكن الأمر جاء على العكس ، فقد كان تذوق طعم العلم حافزاً لأن يطلب المزيد .. فلم يكد يشب عن الطوق ويتم دراسته الإبتدائية حتى سافر إلى لبنان حيث انتسب إلى «دير بزمار» فى جهات كسروان فدرس العلوم اللاهوتية واللغات الإفرنسية والعربية والعلوم الرياضية ، وكان بحكم نشأته يعرف الأرمنية والتركية .. وقد برهن فى فترة الدراسة على تفوق ملحوظ .. وتعلق منذ صغره بنظم الشعر . . ويظهر أن مناظر لبنان الخلابة قد أثرت فى نفسه فأنطلقت هذا الشاب الأرمنى ، وولعه بالعربية شديد ، بالشعر . .

(١) منهم الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف فى مجلة المقتطف والأستاذ قسطاكى الحمص فى كتابه أدباء حلب .

ويحدثنا معاصروه أن نزعة قرض الشعر قد ظهرت مبكرة عنده ، فنظم بعض الأبيات وهو فى الثالثة من عمره . . . وبديهى أن تقوى هذه النزعة معه ، وهو فى لبنان ، بعد أن استكمل عدته من اللغة ، ونضجت ثقافته الأدبية بعض النضوج . .

* * *

بعد أن أتم دراسته الثانوية فى لبنان عاد إلى موطنه ، إلى الوسط التجارى يعمل فيه مرغما مع أبيه . . وقد كان أبوه ، إلى تجارته الواسعة ، يقوم بوظيفة ترجمان فى القنصليه النمسوية . . . ووظيفة الترجمان فى القنصليات كانت ، فى تلك الفترة ، شيئاً عظيما بالنسبة للامتيازات الأجنبية التى كان يتمتع بها الأجانب ومن يلوذ بهم آنذاك ، وكثيراً ما كانت تدفع المبالغ لبعض السماسرة المقربين من القناصل للحصول على هذه الوظيفة ، وقد حدثنى رجل مرموق من كبار عوائل حلب أنه دفع فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى ثلاثمائة ليرة عثمانية ذهبا لأحد المقربين من قنصل دولة أجنبية ليكون وسيطه لديه لادخاله كترجمان فى القنصلية ، وغايته من ذلك حماية مصالح عائلته خلال الحكم العثمانى . .

ويصرف النظر عن هذه الاعتبارات حرص رزق الله حسون أن يأخذ مكان أبيه فى القنصلية لعزوف نفسه عن العمل التجارى ، وقد ترك متجر أبيه وانشغل فى أعمال الترجمة ـ الهواية الجديدة التى وامت نفسه ـ وكانت هذه الهواية هى التى فتحت له نوافذ أطل منها على العالم ـ عالم الغرب الذى كان يدير شئونه أبالسة من دهاة الرجال ، ودهاقنة من أساطين الاستعمار الذين جعلوا همهم ابتلاع الشرق واقتسامه .

* * *

لبث هذا الشاب فترة غير قصيرة يمارس الترجمة . . وكان يلذه أن يغوص فى هذه المشاكل التى يعرض لها القناصل والتى تمس النواحى السياسية

والاقتصادية ، وكان يطلع بواسطة البريد الأجنبي الذى يصل إلى القنصلية ـ على الكثير من أحوال العالم وشئون الغرب . .

وانجذبت نفسه إلى أوروبا . .

وماذا فى حلب ؟

لقد مل الإقامة فيها .. وبدأ ينزع إلى أفق أوسع .. نعم ، لقد ضاق بهذه البيئة ذات العيش الرتيب والجو القاتم الكئيب .. فكل ما يحيط بها قاتم .. فالتجار منصرفون إلى كسبهم المحدود، والحياة عبارة عن الأكل والشرب والتراور والنزهات .. ولاشيء دون ذلك .. سوى ما يسمعونه كل يوم من آيات الثناء ، يرددها رجال الحكم ورجال الدين فى الجوامع والبيع والكنائس عن عدل السلطان ــ ظل الله فى أرضه ــ .

ولقد ضاق ، وهو شاب ذكى متعلم درس بعض ما كتبه روسو وديدرو وفولتير ــ ضاق بهذا الجو القاتم فأحب أن يفلت من هذا القيد .. وما من وسيلة تجلو عن نفسه صدأ هذا الضيق إلا السفر .. فاعتزم السفر إلى أوروبا ليتسنم ريح الحياة وعبق الحرية .. وبالفعل لم يطل مكوثه فى حلب حتى سافر إلى باريس ولندن .. وقضى فى ربوعهما فترة غير قليلة أخذ يتردد خلالها على المتاحف والجامعات ودور الكتب ، ويعبّ ، ما شاء له شبابه ، من حياة الليل فى ملاهيهما ومسارحهما . ، ولم يترك مظهراً من مظاهر المدنية الحديثة فى أوروبا إلا اطلع عليه .. وقد رأى الدنيا ، بعد هذه الرحلة الممتعة ، على غير ما عرفها فى موطنه .. وبدأ يختزن فى ذاكرته الكثير من هذه المباهج التى رآها بعينه وحسه ووجدانه .. وشعر من الأعماق ، أنه قد أصبح إنساناً يختلف كل الاختلاف عما كان عليه قبل هذه الرحلة .

وحين أنهى تطوافه فى أوربا لم يرجع إلى حلب بل يمم وجهه شطر مصر كعبة العربيه ، وكان يحترق شوقاً لزيارتها والاطلاع على مظاهر حضارتها ــ حضارتها القديمة ومدنيتها الحديثة ، والاطلاع على ما تضمه خزاناتها من كتب

ثمينة ومخطوطات نفيسة ، وقد مكث فيها فترة استنسخ خلالها الكثير من المخطوطات .

ومن مصر — عاصمة البلاد العربية — إلى الآستانة — عاصمة الخلافة الإسلامية . كان يرى أن زيارة هاتين العاصمتين كأديب استهوته السياسة — ضرورة من الضرورات .

وفى استانبول . بعد أن قضى فيها فترة طويلة أخذ يكتب رسائل بارعة إلى أصدقائه الأدباء فى حلب ولبنان ومصر ، وقد بادلوه الرسائل وكان بينه وبينهم مساجلات أدبية طريفة .

وقد تعرّف فى عاصمة الخلافة إلى الكثيرين من رجالات الشرق والغرب.

وطالت إقامته بعد أن ضمن لنفسه عملا لدى أحد كبار تجارها بصفته مديرا لمتجره .

وبينما هو فى استانبول ينعم بمفاتنها وبما خصها الله من سحر وجمال — سحر طبيعتها وجمال نسائها — ويوطد العزم أن يعيش طوال حياته فى ظلال ربوعها إذ بحرب القرم تنشب بين الروس والدولة أو بين الروس والانكليز والإفرنسيين .

كان ذلك سنة ١٨٥٤ .

وقد فكر بالعودة إلى حلب . ولكن عوامل اقتضته أن يبقى هناك ، ورأى ، وقد شغلت هذه الحرب الدنيا بأسرها ، أن الفرصة مواتية ليصدر جريدة عربية تتولى نشر أخبار هذه الحرب الضروس . وما كاد يفكر بالموضوع حتى حققه فعلا ، وأصدر جريدة باسم «مرآة الأحوال» — يقول المؤرخون أنها أول جريدة عربية صدرت فى الآستانة ، وأخذ رزق الله حسون يدبج المقالات السياسية عن هذه الحرب وعواملها وخفاياها وما يكمن وراءها من أسرار ، كما كان يخص البلاد العربية والقطر الشامى بصورة خاصة — بمقالات مسهبة .

وقد لمع اسمه بعد اصدار هذه الجريدة ، وتوثقت صلاته مع مختلف الهيئات السياسية ومع رجالات الدولة .

وحين نشبت حوادث ســـنة ١٨٦٠ فى سورية انتدبت الدولة وزير خارجيتها السياسى الكبير فؤادباشا لاخمادالفتنة واصلاح ذات البين والحؤول دون تدخل الدول الأجنبية ، فكان رزق الله حسون من الأشخاص الذين اصطحبهم معه ليقوم بتعريب الأوامر والبلاغات والمناشير التى قرر أن يذيعها . ورأى فى هذه المهمة التى انتدب إليها لونا من الاعتزاز ، فقد عاد إلى وطنه موفور الكرامة ، وكان قد تركه يافعا حدثا لم يستعمل أداته من الحياة كرجل مرموق .

وفى دمشق اتصل بالأمير عبد القادر الجزائرى ومدحه بعدة قصائدكان لهـا وقعها عند الأمير المحارب الشجاع الذى قارع الاستعمار فى بلاده مدة طويلة . كما احتفى به رجالات الفكر فى دمشق وكان على صلة سابقة باكثرهم .

ومن دمشق سافر إلى لبنان وإلى بيروت فى زيارات خاطفة . وللبنان فى نفسه أثر لا يمحى لأنه موطن طفولته ومرتع لهوه ودراسته .

ثم عاد إلى دمشق . وفى دمشق لم يصرفه عمله السياسى عن هوايته الأدبية ، لقدكانت أجمل هذه الهوايات التنقيب عن المخطوطات فاستنسخ الكثير من نوادرها . واعتبرها أثمن من الياقوت والذهب ، وقد حملها معه فى رحلته الثانية إلى أوربا .

— ٣ —

حين رجع فؤاد باشا إلى الآستانة ليتقلد منصب الصدارة العظمى سنة ١٨٦١ م — أى رئاسة الوزراء — انتقل معه رزق الله حسون ، وبما أنه قد برهن على كفاءة نادرة فى رحلته إلى الشام فقد اعتمده كسكرتير خاص يتولى تحرير مراسلاته الأجنبية ولا سيما المذكرات السياسية ، وحين سافر إلى لندن ليمثل الدولة العثمانية فى افتتاح معرضها الكبير صحبه معه أيضا وقد أولاه الكثير من ثقته .

ولما عاد من لندن اسندت إليه نظارة جمارك التبغ وهى وظيفة مرموقة ، فلم يلبث فيها طويلا . واتهم بمد يده إلى وارداتها واستيلائه على مبالغ ضخمة

مما اضطر الحكومة أن تكف يده وتزجه فى السجن هو والكثيرين ممن كانوا يعملون معه .

وقد آلمه هذا المصير وأخذ يرسل من السجن قصائد يعترفيها عن آلامه وبراءته من التهمة التى الصقها به أعداؤه الوشاة .

فمن قصائد الاستعطاف إلى فؤاد باشا قوله :

فؤادَ هـــذا الملك عطفا على ... غرسك يذوى فى شقا محنته
إن لم تغث عبدك من ذا الذى ... يحميه أو ينجيه من نكبته
يا غالبَ الدنيا بساداتها ... شرقا وغربا بدُهى فطنتــه
وواحـــدَ الآحاد فى عصره ... وصائب التدبير فى حكمته
أحييت هذا الملك من بعد ما ... أودت به الأخطار فى فترته
وصنتَ أهليه رؤوفا بهـــم ... من سطوات الدهر أو حطمته
ارحم « عُبيدا » لك واستبقه ... للولد المجبول من مهجتــه
فوالذى حقق ظنى بِمـــا ... أرجو من الانصاف أو رحمته
أمسيت فى الحبس كفرخ القطا ... من كرَب الحزن ومن شِدته

وقد بعث إليه من السجن قصيدة أخرى يستعطفه فيها وينفى التهمة عنه ويندد بأعدائه الذين وشوا به هذه الوشاية السافلة للحط من كرامته والإنحدار به من علياء المجد الذى وصل إليه . ومما قاله :

أعيـــذك الله أن تميـل إلى ... مقالِ واش يسعى على دَخـل
وكيف تأخذنى بإغراء ذى ... حقد يكشّر بالعـــداوة لى
أشبهُ خُلقاً بالذئب مفترســـا ... طار اسمه فى الأذى مع المثل
لولا البنون وما أحاذره ... ضيما يلم بهم على عجـــل
ما كنت أضرع أن تحولنى ... عن مقعد الذل ليس عن زللى

ولكن قصائده ورسائله لم تجده نفعاً فلجأ إلى وسيلة أخرى للخلاص من نكبته ، إلى ما فعله الشاعر ابن زيدون حين زج فى أعماق السجن —

لقد فر وأخذ طريقه إلى روسيا .. وهناك ، فى بلاد القياصرة ، أطلق لسانه ينقد الحكومة العثمانية نقداً مرا ، وقد أقلق الحكومة بطول لسانه وقارص هجوه فحرصت أن يكم فمه بأية وسيلة ؛ وطلبت من الحكومة الروسية تسليمه فرفضت واعتبرته لاجئا سياسياً ، ولا سيما وهو صحفى ذرب اللسان أخذ يفضح مخازى عدوتها اللدود فتمسكت به وخصته بالكثير من عطفها وعنايتها وعطاياها .

— ٤ —

بعد أن مكث فترة طويلة فى روسيا شد الرحال إلى انجلترا واتخذ لندن مقامه حيث استأنف إصدار جريدته « مرآة الأحوال » فجعلها منبراً حراً للتنديد بسياسة الحكومة العثمانية .

وقد يسأل بعضكم عن هذه الجريدة العربية التى أصدرها حلبى قبل مائة سنة ونيف فى بلاد أجنبية لا تنطق بالعربيـــة كيف كانت تطبع .. ولم تكن الطباعة العربية قد استكملت أدواتها ولا سيما فى بلاد الغرب .

كان يكتب المقالات بخطه الجميل .. ثم يتولى طبعها على الحجر حيث تصبح فى متناول القراء فى مختلف الأقطار .. وكان يرهقه هذا العمل ففكر بطريقة يتغلب فيها على هذه المصاعب ، وهداه تفكيره إلى تأليف رسالة مختصرة فى الطباعة العربية والاقتصاد فيها مادة ووقتا .

ولم يكتف وهو فى لندن بجريدة « مرآة الأحوال » - وهى جريدة سياسية . بل أصدر مجلة أدبية ، وكان بينه وبين الشيخ أحمد فارس الشدياق خصومات أدبية عنيفة ، ورأى أن يجعل مسرح هذه الخصومات غير صحيفته السياسية فأصدر نشرة أدبية بعنوان « رجوم وغساق .. إلى فارس الشدياق » لم يصدر منها غير عددين الأول فى أيار سنة ١٨٦٨ فى ١٤ صفحة صغيرة والثانى فى ٥ أيار من السنة نفسها . ثم أوقفها كما أوقف جريدة « مرآة الأحوال » ليصدر فى عام ١٨٧٦ مجلة نصف شهرية عنوانها « حل المسألتين

الشرقية والمصرية ، والمفروض أن تكون هذه المجلة سياسية تبحث المسألة الشرقية والقضية المصرية بأسلوب الصحافة السياسى . ولكن الأمر لم يكن كذلك . فقد كانت تعالج هذه القضايا المعضلة بلغة الشعر . وهذا انحراف غريب أميل إلى السخف منه إلى الواقع ، ولا أعلم ما الذى دفع هذا الصحفى الذى تمرس بالسياسة وذاق حلوها ومرها أن يستبد به الشعر فيلجأ إلى « أبولو » يستلهمه معالجة هـــذه القضايا العويصة بلغة الشعر . ولا شك أن عوامل خفية حملته أن يلجأ إلى هذه المحاولة ، ولو وقعت بيدنا هذه القصائد لاستطعنا أن نعرف من التوطئة التى كتبها العوامل التى ألجأته إليها ، وتؤلف هذه القصائد التى نظمها فى تاريخ المسألتين الشرقية والمصرية مجلداً فى ثلاثمائة صفحة !

— ٥ —

هذا ، وحين فشل رزق الله حسون فى عالم السياسة وملتوياتها لجأ إلى حياة الفكر — إلى عالم الأدب وأفقه الواسع الرحاب . وأخذ يعنى بالمخطوطات التى تحتويها خزانة لندن فبلغ ما استنسخه من نفائس الكتب أكثر من عشرين أهمها ديوان الأخطل وديوان ذى الرمة ونقائض جرير والفرزدق وصبح الأعشى فى صناعة الإنشـــاء للقلقشندى والمتمم لابن درستويه والأناجيل المقدسة ترجمة أبى الغيث الدبسى وديوان حاتم الطائى الذى تولى طبعه — عدا الكثير من المخطوطات التى ظلت محفوظة فى مكتبات روسيا وفرنسا وانكلترا وألمانيا وهولنده .

وقد طالت غربته واستبد به الشوق والحنين إلى حلب فجاءها متنكراً قبل وفاته بسبع سنوات ، واحتفى به الأهل والإخوان ، وكانت هوايته أن يعيش فى قلب المكتبات القديمة وأن ينسخ نفائس المخطوطات . فنسخ الكثير من ذخائر حلب فى شتى العلوم والآداب ثم خشى أن ينكشف أمره فقرر أن يهجر وطنه إلى غير لقاء . فودع حلب والعبرات تخنقه ثم يمم

وجه شطر انكلترا . . وهناك اختار قرية « وندسور » مقراً لسكناه ، ولبث فيها لا يعمل إلا فى شئون الأدب حيث تفرغ لوضع كتبه وتنسيق دواوينه وطبعها . .

— ٦ —

لقد بدأ رزق الله حسون حياته موظفاً فى دواوين الدولة كمترجم يتقن العربية ويتقن عدة لغات حية . . ثم اشتغل بالصحافة التى اتخذها وسيلة للتعبير عن آرائه السياسية فى إصلاح الدولة ، وكان وهو فى الآستانة على صلة بكبار رجالات الفكر والسياسة الأحرار . وقد وثق صلته بفؤاد باشا السياسى المشهور كما ألمعنا ، وبمدحت باشا أبى الدستور الذى كان يخصه بعطفه وعنايته ، ولكن السياسة كالمرأة اللعوب لا ذمام لها . . لا تكاد تداعب عاشقها وتمنّيه أعذب الأمنيات وتمهد له أسهل الطرق للصعود إلى القمة حتى تنحدر به إلى الهاوية .

لقد كره السياسة بعد ما لاقاه فى سبيلها من عنت وظلم ونفى وتشريد . وعاد إلى رحاب الأدب يكتب ويؤلف ويصحح المخطوطات التى حملها معه من الشرق ومن الغرب . وهكذا ، فقد مرت حياته بسلسلة من التيارات السياسية والأدبية ، فصارع أمواج الحياة التى تقاذفته ذات اليمين وذات الشمال صراعاً عنيفا ، فطفا على وجهها تارة ، وانحدر فى أعماقها تارة أخرى ، وما زال بين مد وجزر إلى أن قذفته الأقدار إلى تلك البلاد النائية التى استمرأ حلاوتها بالرغم من تجرعه مرارتها فعاش غريبا ومات غريباً ، وقضى الشطر الأوفر من أيام حياته بين الأقلام والمحابر ، وفى خضم الكتب والدفاتر ، فترك ثروة أدبية تؤرخ بعض ظواهر الحياة فى العصر الذى عاش فى صميمه — أريد به العصر المنصرم الذى انبثقت عنه تباشير نهضة فكرية فى أكثر البلدان العربية .

* * *

يقول البحاثة الفيكونت دى طرازى صاحب كتاب « تاريخ الصحافة العربية » — وهو أوفى كتاب يؤرخ مراحل الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين .

« . . أما أول رجل عربى[1] أصدر باسمه صحيفة عربية واستحق دون سواه هذه الكرامة الجليلة ، فهو رزق الله حسون الحلبى ، منشىء (مرآة الأحوال) سنة ١٨٥٥ م فى عاصمة آل عثمان — ولأجل ذلك يمكننا ، بكل صواب، أن نسميه إمام النهضة عندنا بلامراء بل جدّ الصحفيين وزعيمهم على الإطلاق ، فاقتفى أثره بعض أرباب العلم والفضل من أدباء سورية المسيحيين الذين برزوا فى هذه المهنة وخلدا آثاراً تذكر فتشكر ، وهم اسكندر شلهوب صاحب جريدة « السلطنة » عام ١٨٥٧ فى الآستانة ، وخليل الخورى مؤسس حديقة الأخبار سنة ١٨٥٨ فى بيروت ، والكونت رشيد الدحداح منشىء « برجيس باريس » سنة ١٨٦٠ فى الآستانة ، والمعلم بطرس البستانى منشىء (نفير سوريا) سنة ١٨٦٩ ويوسف الشلفون ناشر « الشركة الشهرية » سنة ١٨٦٦ « فى بيروت »[2]

وهكذا فقد اعتبر الفيكونت دى طرازى — الشاعر السياسى رزق الله حسون — فى طليعة مفكرى العرب الذين أقدموا على إصدار جريدة سياسية ، بل اعتبره ، زعيم الصحفيين وإمامهم وجدهم ، ففتح الطريق لغيره من الأعلام وتبعه فى هذا النهج الخورى والدحداح والشدياق والبستانى من أفذاذ مفكرى لبنان ومفكرى العرب لعهدهم فى ذياك العصر .

---

(١) المعروف فى الأوساط العلمية أن عائلة حسون من أرمينيا وقد توطنت حلب واستعربت مع الأيام ولا أعلم إلى أى مصدر استند الأستاذ طرازى فى هذه الرواية .

(٢) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ٤٧ .

— ٧ —

هذا ، وقد سردنا ، فى بدء حديثنا ، سيرة حياته ، والمراحل التى مر بها فلا نعاود الكلام عن هذه السيرة بل نريد أن نحصر حديثنا عن آثاره .

فقد عرفنا أنه بعدأن طوّف فى البلدان ، وبعد أن فرمن سجنه إلى روسيا قد استقر فى انكلترا التى اتخذها موطناً ثانياً يقضى فى ظلال ربوعها بقية حياته . وهناك ، توطدت صلاته مع أكابر المفكرين ولاسيما مع المشتغلين بالشئون الشرقية وبالدراسات الأدبية فعرفوا فضله وتتلمذبعضهم عليه .

فمن أعاظم مستشرقى الانكليز الذين اتصلوا به وأفادوا من علمه وأدبه « ادور هنرى بالمر » الذى عرف فى دوائر الاستشراق باسم الشيخ عبد الله والذى حذق اللهجات العربية ونظم الشعر العربى وقام برحلة إلى صحراءسينا فلقى حتفه على يد بعض الأعراب الذين ارتابوا بنياته وشكوّا بعوامل رحلته فقتلوه وقضوا على حياة مشرقة لاتتجاوز الثانية والأربعين ربيعا .

لقد رأى هذا المستشرق الشاب عند رزق الله حسون ضالته المنشودة فتتلمذ عليه ، وأخذ عنه أصول الأدب العربى واللهجات العربية . . واشتدت بينهما أواصر الصداقة . . وكان أثر الأستاذ الحلبى فى تلميذه الإنكليزى عظيما — أثره فى كتاباته وخلقه . . وكان بالمرهذا ، أو الشيخ عبد الله من المولعين بتعلم اللغات ، وكان يجيد عدا لغته الإنكليزية — الإفرنسية والإيطالية والعربية والفارسية والأوردية . . وكان يجـــلّ أستاذه إجلالا كبيراً ، ولانتوسع بالكلام عن هذه العلاقة ، فحسبنا الإلماع ، ولأن الحديث عن بالمر يخرج عن نطاق بحثنا .

— ٨ —

إن رزق الله حسون الذى عاش أخريات أيامه فى لندن قد شغل نفسه بالأدب بعد أن صرعته أنواء السياسة وأعاصيرها . . . أى رأى أن يتغلب على فراق الأهل ونأى الوطن بنشر المخطوطات وتحقيق الدواوين وكتب الأمثال ونظم الشعر فقد نظم بعض هواجسه بشعر كان لنا منه ديوانان :

أحدها أشعر الشعر

والثانى النفثات

فى ديوانه « أشعر الشعر » رجع إلى بعض قصص التوراة ينظمها ويختار ماله صلة باللوعة والكمد . . وبالحزن والوجيب والألم . . أى بالحياة التى عاشها . ولم يجد ما يعبر عن هواجسه غير شعر أيوب . . فاختار اثنين وأربعين فصلا من سفر أيوب نظمها شعراً ، كما اختار فصلا من نشيدموسى فى الخروج وآخر من نشيده فى التثنية وثمانية فصول من نشيد الإنشاد لسليمان واثنى عشر فصلا من الجامعة ، وخمسة من مراثى أرميا . . . ولا شك أن رجال الأدب والشعراء بصورة خاصة يقدرون الجهد الذى يلاقيه الشاعر فى نقل تلك القصص إلى الشعر . . وهو جهد مضن . . . ولكن ثقة رزق الله حسون بنفسه ، والآلام التى تحملها دفعته أن يركب هذا المركب الخشن اينفّس عن صدره بعض هواجسه وآلامه المكبوتة ، وقد أشار فى مقدمة الديوان إلى صعوبة هذه المحاولة التى أقدم عليها فقال :

« اجمع فضلاء المغرب الذين استمازوا البلاغة بالحق ، على أن أيوب وهوميروس وشكسبير أشعر الخلق . . واصطفقت آراء الأكثرين على تفضيل أيوب إجادة وله السبق . . فلما اتخذت سفر أيوب أيام النكبة الممتدة — سميرا ، نظمته قريضا ولم أر له فى آثار السالفين نظيرا ، سميته « أشعر الشعر » اتباعا لفضلاء المغرب رأياً ومقالا مأثورا . . . »

ثم يقول :

ولا سيما وقد أضفت إليه ما كان نظمه لى تهيا ، من نشيدى موسى فى

الخروج والتثنية ونشيد الإنشاد لسليمان ومراثى أرميا . ابتغاء لوجه الله ، وتسلياً على مكاره الدنيا ، وما ادعى بهذه التسمية على الشعراء تقدماً .. وإنهم يعجزون عن سبكه منظما ، لأن الذى سيفرغه فى أحسن قالب سيكون الأقوى فى ملكة النظم محكما . أما سفر أيوب فإنه أوفر زبر النبيين علما ، الأدق معنى ، تحوم حوله الأفكار فهما ، الأصعب على الشاعر المطبوع نظما ، أقدم الصحف الأولى على الإجماع ، وقد خيل لبعض من لهم فى العلم أطول باع أن الأصل باللغة العربية ، وقد نقله موسى النبى إلى العبرانية وأن الأصل العربى مفقود الآن من بين أيدى البشر فيتعذر الحكم أبلغة حمير كان أم مضر . ومجال الكلام متسع لأهل النظر ، وقد كنت نظمت الفصل الأول وتاليه من سفر أيوب تبعا للترجمة المطبوعة فى لندن سنة ١٨١١ ثم حصلت على ترجمة السيد كرينليوس فانديك الأميريكانى المطبوعة فى بيروت فوجدتها خيرا من كل ترجمة رأيتها فى لسان العرب اعتنى بها المترجمون إلى هذا اليوم فجعلتها لى أماما لتتمة نظم السفر المذكور ومايليه ».

ونلاحظ أن الشاعر قد التزم فى مقدمته السجع — لغة الأدباء فى ذلك العصر ، ويبدو الجهد الذى عاناه فى نظمه هذه الفصول من أسفار أيوب بالشعر ، وقد خانته القافية فى أحد الفصول فنظمه على طريقة الشعر المرسل. وهنا يقول — « وقد سنح لى أن أنظم الفصل الثامن عشر فى سفر أيوب على أسلوب الشعر القديم بلا قافية .

لأن حد الشعر عنده ، كما يقول ، نظم موزون ، وليست القافية تشترط إلا لتحسينه . فقد كان الشعر شعرا قبل أن تعرف القافية ، كما هو عند سائر الأمم ، ولم يسمع للعرب بسبعة أبيات على قافية واحدة قبل امرىء القيس لأنه أول من أحكم قوافيها » .

وليس فى شعر الديوان هذه الطلاوة التى نجدها فى شعرنا المعاصر مثلا ، ولا تلك القوة والجزالة التى نجدها فى الشعر القديم . ومع هذا فلا نستطيع أن ننكر عليه جهده فى نقل قصص دينى مستوحى من التوراة إلى لغة

الشعر . . وهو جهد يشعر به كل من عانى النظم ولا سيما إذا حاول الشاعر هذا اللون من الصياغة فى عصر كانت فيه العجمة لا تزال تطغى طغيانها القوى واللغة العربية فى بدء تحررها من أقمطة وقيود عصور الانحطاط .

— ٩ —

وقبل صدور ديوانه هذا « أشعر الشعر » الذى أتم نظمه فى قرية « وندثور » احدى قرى لندن سنة ١٨٦٧ ، كان قد طبع ديوانه « النفثات »[1] فى لندن سنة ١٨٦٩ وهو فى قسمين — أولهما قصص كريلوف شاعر الصقالبة التى وضعها على طريقه بيدبا الفيلسوف الهندى فى كليلة ودمنة ولافونتين شاعر الإفرنسيين ، وقد عربها نظما فى ٤١ قصة جاءت فى ٦٩ صفحة ، وقد يكون رزق الله حسون أول أديب عربى التفت إلى خصائص الأدب الروسى فنقل بعض أقاصيصه . . والقسم الثانى من ديوانه قصائد فى موضوعات شتى — فى المدح والشكوى والتهنئة إلى قصيدة موجهة إلى الشيخ فارس الشدياق — وهى هجو مقذع من الوخز المؤلم . . وقد أثارت هذه القصيدة أمام الهجو الشيخ فارس الشدياق فلم يتمالك حين قرأها إلا أن قال — « كان حسون لصاً وله سرقات . . فأصبح صلا وله نفثات » ويوضح لنا الشاعر عوامل هذه النفثات فى مقدمة الديوان بقوله « عبر أنباء أبناء الزمان ، نقد أحوال السوقة والأعيان ، قسطاس تعديل النقص والرجحان ، وضعها كريلوف شاعر الصقالبة ، على طريقة بيدبا الهندى ، سالكا مذاهبه ، رواية عن ألسنة الطير والبهائم ، مناقشة ومصاحبة تعريضاً وتلميحاً إلى ما يود ، بهزل يراد به الجد ، تحاميا عن عتاب واستقالة من رد ، وصونا للغرض وتنويها وضنا بالحكمة ، وتنزيها عن العوام وغير أهلها . . » ثم يقول : « خرجت بها من حجاب الأعاجم نفعاً لوجه الله ، غير ملتفت إلى زيّاغ عن القصد تياه ، يصرف مغزاها إلى هواه » . . ثم يختم المقدمة بقوله « ذيلتها ببعض نظمى أيام الشدة

---

(١) طبع هذا الديوان فى هرتفرد فى دار طباعه استفان أوستن .

ممتطيا غارب الاقتراب فى النكبة الممتدة ، إغراء بالشكر على السراء والضراء ،

ويظهر أن الأدب الرمزى الذى اعتمده بعض أدباء الروس فى نقد أساليب الحكم القيصرى قد صادف هوى من نفسه فنقل تلك القصص ليشير إلى فساد الحكم فى العهد العثمانى ، وهى لا تنأى بمدلولها ومغزاها عن فساد الحكم فى العهد القيصرى .

فالقصائد المعربة تتناول هذه الصور التى تصور لنافساد الحكم على ألسنة الحيوانات ، وتشير إلى صلف الحكام وقسوتهم — إلى الظلم والعدل ، إلى القسوة والرحمة ، إلى الغباوة والدراية وإلى غير ذلك من هذه الخطوط التى ترينا تحكم الأقوياء فى الضعفاء ، وحكم الأغبياء بدلا من حكم الأذكياء ، والجهلاء عوضاً عن العلماء — صـــورة الحكم القيصرى الغاشم فى ذلك العصر — فى حكايات عن النسر والعنكبوت ، عن البلبل والحمار ، عن الذبابة والنحلة ، عن الفارة والجرذ ، عن الذئاب والغنم ، عن المرآة والقرد وغير ذلك من هذه القصص التى اعتمدها بيدبا وسعدى ولافونتين وغيرهم من الأدباء والشعراء الذين يلجأون إلى التلميح بدلا من التصريح ، وإلى التعمية والألغاز بدلا من الجلاء والوضوح خوفا من بطش وحقد وانتقام الحكام الجهلاء ، والطغاة المستبدين .

وتؤلف هـذه القصائد أكثر من نصف الديوان ، وقد خص الباقى بالمناسبات من تهان إلى حنين ، إلى وصف شجونه وآلامه ، إلى مدح الأمير عبد القادر الجزائرى لوقوفه ذلك الموقف النبيل من حماية نصارى دمشق فى فتنة ١٨٦٠ ، إلى التغزل بالبلاد الروسية التى لجأ إليها — موطن آبائه وأجداده — ديار الكرج والأرمن . .

وهنا وصف تلك الربوع وصف المغترب الذى عاد إلى وكر آبائه بعد سنين طويلة فوصف أرضها وسماءها ، ماءها وهواءها ، وبانت له تربتها كأنما هى أجمل تربة فى الأرض . . فما تكاد قدماه تطآن أرض تفليس ويرتوى

بخمر كاخيت حتى يشعر بالنشوة ويحسب نفسه قيصراً من قياصرة الروس وإن ألزمته قافية القصيدة — وهى رائية — أن يتشبه بكسرى .

فبتُّ اقـــترع الدنانَ على رغم الرزايا ونَكبةٍ أخرى
ازحزح الكرب والهموم بها عنى فلم تستطع معى صبرا
شربت ريث استفقت من كدر منتعشـا وكأننى كسرى

وفى قصيدته هذه التى سماها « الروسية » يصف تطوافه فى بلاد الله . . وأثر السفر فى تكوين شخصية الإنسان وصقل ذهنيته . . وإن السفر أكثر فائدة على المرء من تلاوة الأسفار وقراءة السير . . ثم ينعى حكم السلاطين الطغاة ويتغنى بالعدل ويقول إن ملكا لاتشاد دعائمه على العدل يكون معرضاً للخراب والانهيار .

وقفت أنعى خراب الملك من مدن فى الحصر والوصف تُنعى المرء بالحصر
لهفى ولهف بنى الأحرار كلهم على التساوى بانصاف مدى العمر

ويشبه بعض القرى الروسية بالقرى الشامية ويذكر إنطاكية بصورة خاصة لكثرة بساتينها ووفرة مياهها . وبالرغم من ابتهاجه بهذه الرحلة التى أنسته بعض آلامه وشجونه فقد ظل كثير الحنين إلى أرض الوطن ، تثيره الذكرى فتنهمر عيناه بالدموع .

إذ انظرت بلاد الروس سُرّ بها قلبى وكنت شكوراً نكبة القدر
وربمـــا جر خيراً شرُّ زِعنِفِهِ والنفع واليسر بعد الضُر والعُسر
وإن تذكرت أوطانى بكيت دما من مهجة طفحت جريا بمنهمر

وفى ديوانه هذا قصائد وجدية ، من حنين إلى ولده ، إلى ذكرى ليالى بيروت — ليالى الأنس التى قضاها هناك مع رفاق الصبا وإخوان الصفا — إلى إطراء بلاد الانكليز التى اتخذها وطنا ثانيا

جزيرة لم تزل خضراء ناضرةً خصبا تسامت على الدنيا مزايا
طابت هواء وماء نعم ثروتُها وحبذاً لبنى الأحرار مأواها

وفى هذه القصيدة لون عن وجده ، وأثر تلك البلاد فى نفسه ، وقدختمها بالمقارنة بين جمال الفتاة الروسية والفتاة الانكليزية . . . فرأى الانكليزية أجمل . . وهذه من المفارقات الغريبة .

قد كنت أحسب قبل اليوم منحصراً ... فى غيدقوقاس حسن الجسم رهراها
واليـــوَم أشهد أن الحسن أجمعه ... للانكليز بمعـــناها ومرآها
الغانيات التى لو قلت قد خلقت ... كما اشتهت لم أكن فى الحكم تياها !

وهذا الديوان الذى طبع قبل مائة سنة فى لندن هو اليوم فى حكم المفقود — إنه يؤرخ طوراً من أطوار حياة هذا الصحفى الأديب الشاعر الذى عاش فى منتصف القرن التاسع عشر ، فكانت حياته مليئة بالتيارات السياســية والأدبية معاً . . وهى ترمز إلى طبيعة الحياة وألوان الحكم ومذهب الشعراء والأدباء وطرق تفكيرهم وصدى نزعاتهم وهواجسهم والفارق بين أدبنا وأدبهم فى تلك الفترة من الزمن .

— ١٠ —

وبعد فنقف عند هذا الحد ، إذ لا مجال للإسهاب عن رزق الله حسون أكثر من هذا ومجال الحديث عنه واسع جداً . . وهكذا . . فقد مرت حياته بألوان مختلفة من الصراع ، وقضى أيامـــه الأخيرة بين المحابر والأقلام والكتب يؤلف ويكتب ويحقق وينظم الشعر ويترجم عن الروسية والانكليزية والإفرنسية وظل فى وندسور — تلك القرية الهادئة إلى أن فاضت روحه إلى بارئها سنة ١٨٨٠

يقول معاصروه :

إنه ، وهو فى غربته ، كان يردد هذين البيتين اللذين يدلان على حرقته

وألمه من هذه النهاية التى انتهت بها حياته وهو بعيد عن وطنه وعن أهله وخلافه :

قد قضى الله أن أموت غريبا فى بلاد أساق كرهاً إليها
وبقلبي مخـــدرات معان نزلت آية الحجاب عليها

مختارات من شعره

المترجم عن شاعر الصقالبة « كريلوف »

* * *

قرد ونظارة

قِرد على الزمان أعياه الكِبَرْ
وساءه من وَهنه ضعفُ البصر
بلغه فيما مضى من النفـــر
دواءُ هـــذا الداء فيهم مشتهر
بآلة الرجاج تحـــديقَ النظر
فابتاع نظارات بـــلّور أغر
مجـــرباً أحسنها للمختـــبر
فى رأســـه يضعها كما ائتمر
ثم على ذنبـــه إذا اســـبكر
وكان هـــذا دأبه وما ظفر
بمـــا تمنى نفعه ولا شـــعر
حتى اعتراه اليأس من فرط الخور
ألقى بها يقول موفور الكدر
أحمقُ من صدق أقوال البشر
مديحهم كذب نفاق وهذر

صدقتهم بذا فكنت المغترر
ضربها ضرباً شـــديداً بالحجر
بددها على الثرى شـــذر مذر
وقد فشا هـــذا الخطأ وانتشر
فى الناس من أفعالهم على غُرر
فكل شىء نافع له خطـــر
عنـــد الذى يجهـــله لمحتقر
لاقدّرَ اللهُ جهول إن قـــدر
فى فُرصة يكافىء الخـــير بشرّ

* * *

ذبابة ونحلة

يوم اجتلاه الربيع واعتبقت نُواره بالرياض باهرُها
والبان ترقصه الصّبا مرحا والطيرُ كاسيةٌ منابرها
والنحل حول اليعسوب جائلةٌ كالفرس غائرة أساورها
ذبابةٌ قعدتْ على فَنَن تعجب من نحلة تجاورها
قالت النحلة ما معيشتكم أولهـــا متعب وآخرها
مَرُّ الدقائق تجهدين ولو إياك كنت لما أصابرها
ولو تجملتُ قدر يومك لا أشك فى هلكة أحاذرها
أليس بى عِبرةٌ وأحسبنى فى جنـــة طافح بشائرها
وشغلىَ البحثُ والتطلب عن دار بهـــا موسمٌ أبادرها
لابد ألقى الذبابَ قاعدةً على أسرتهـــا أسامرها
فى بلدتى هذه أدور على القصور يعرفنى أكابرها

لا فخر والوزراء كلهم ... والغانيات وقد أعاشرها
أقبل الجيدَ والجبينَ وفى ... المباح من لثمه أكابرها
كأننى شامة الخدود وكم ... جمشّت تفاحَها أعافرها
وللضيافات والولائم أن ... أسعى فخلفى مشى جماهرها
مطاعمى أنيتُها الخزف ... الصينى مثمنها وفاخرها
ولقمتى ما اشتهيتها لفمى ... قبالتى لا عنى ولا كُرُها
ارتشف الخمر من زُجاجتها ... والقوم من فضلتى تباشرها
هلا وايايَ تذهبين ترى ... معيشة بالهنا أخامرها
ردّت جواباً : بلى ، وبلغنا ... أخبارَكن الرواةُ خابرها
بئس الهوام الذباب بعضها فى ... الأرض بادى الملا وحاضرها
إذا أتيتن دارة رفعت ... لا للسلام يدا معاشرها
يهز إخراجكن مِروحة ... للوقت كبارها أصاغرها
فتطردُنّ عن البيوت وفى ... وجوهكن انطوت معابرها
فاستضحكت تلكم الذبابة من ... كلام نحلتنا تقامرها
قالت فما بالنا وذمّهم ... أو بغضة تتقى نهابرها
الطرد لا تعبأ الذباب به ... تعود فى كرّة تظافرها
أيتها النحلة افهمى كلمى ... بالغمز عمن يشار ظاهرها

مرآة وقرد

حكى لنا الراوون عن ... قرد ودُبّ فى سمر
فى صفحة المرآة قر ... د مذ تراءى وانبهر
وأعجبته نفسه ... وهيئة فيها اشتهر
دبّ على الدب يدا ... هز به ثم انتهر
وقال ما أشنأ ذا ... الممسوخَ من بين الصور
لو حل بعض قبحه ... بى فاض قلبى وانفطر

أقبح به ذا سخنة شوهاء سوداء الوبر
ونوعه جميعه أبشع خلق فى النظر
أجابه الدُبّ على تعييره بما ذكر
أيا أخى القردُ التفت وارجع لمرآك البصر
تجد على نفسك ما انكرت منى فالحذر
الخلق لا يرون ما فى ذاتهم من العور
مسئلة مبحوثة بالأمس عنها ذو غبر
إن الرشى يأكلها بكر ويحكى عن عمر

ومن نثره المترجم :

ذئاب وغنم

استهلكت الذئاب الضان ، بكثرة الخطف وشدة العدوان ، وحموا البوادى وكلأها — وخربو الحظائر وقتلوا رِعاءها ، فعيل صبر الضان إذ لم يبق لها فى الحياة مطمع ، وصاحت تستغيث وهيهات من يسمع . والذئاب لاتكف ولا تقنع ، فاعرضت الضان خطبها لدولة وحوش الغاب ، تشتكى متظلمة من جَوْر الذئاب ، فعقد دولة الوحوش فى أحد الوديان ، لكشف ظلامة الضان ، مجلساً حضره الذئاب فكانوا الأكثر عدداً ، ليمنعوا عن الضان ويكونوا لها عوناً ومدداً ، فمن قائل إن كل ذئب شر بالطبع خطاف ، ومن قائل إن بعض الذئب يمر وديعاً لكن إذا كان شبعان ، ولا يفترس الخراف .

وعلى كل حالة تجب صيانة الضان ، كما لا يجوز أن يضيق على الذئاب البتة فى زمان ما أو مكان فتفكر أرباب هذه الدولة وتشاوروا ، وتكلموا فى هذا المجلس وتجاءروا ، ثم وضعوا قانوناً ونظاماً وحكموا على الذئاب أن تمتثل أمره إبراما . وهذه ترجمة النظام كلمة بكلمة ، ليفهمها كل خروف وغنمة :

إن كل ذئب يعدو على الضان سواء أكانت من الغنم أو الخراف فيحق للضانة أن تجر الذئب من مخنقه من دون أن تحترمه أو تخاف ، ولتأت به إلى الغابة الأقرب لمكانها ، فتصيح هنالك مستنصرة بجماعة الوحش من سكانها ، ولا حاجة وقتئذ إلى القاضى والشهود ، فاعتبر من هذا المثل بالمقصود وأعلم أن الذئب وإن لم تكن لهم الحرية المطلقة ، فإنهم يذيقون الضان مابين ظهرانيهم العذاب الأليم والشدائد المرهقة ، وعند الله يجتمع الأخصام ولسوف تلقون ما كنتم تكسبون .

جبرائيل الدلال

١٨٣٦ – ١٨٩٢

نشأته – سفره إلى الآستانة – أيامه فى باريس – رحلته
إلى الأندلس – اشتغاله بالصحافة فى مراكش – اتصاله
بخير الدين باشا وزير باى تونس – لمحة عن صفات
الوزير – سفر الدلال إلى فينا – عودته إلى
وطنه – نزعاته التجديدية التى أودت به
إلى السجن – موته – قصيدة
« العرش والهيكل »

. . . حفل تاريخ الفكرى البشرى ، قديمة وحديثة ، باسم غير واحد من شهداء الفكر ، ممن اضطهدوا وسجنوا وشردوا وقضوا نحبهم فى سبيل عقائدهم الحرة ، وفى سبيل تجبهم للآراء المضللة والمعتقدات الفاسدة التى يدافع عنها بعض المشعوذين الدجاجلة ممن ينتسبون إلى الدين والدين براء من شعوذاتهم ودجلهم وأضاليلهم .

وحفل تاريخ حلب باسم غير واحد من شهداء الفكر الذين قضوا نحبهم فى سبيل عقائدهم الحرة ، وتجبهم للآراء المضللة والمعتقدات الفاسدة ، ولدفاعهم عن الحريات ، ووقوفهم وقفة الجبابرة ضد طغيان المستبدين وجبروت الحكام المتغطرسين .

وقد قضى أكثرهم ضحية الوشايات التى قلبت حسناتهم سيئات ، وجعلتهم لدى السلطات ولدى الدهماء ثائرين متمردين وكفرة ملحدين .

* * *

قدمت هذه التوطئة فى سبيل حديثى عن شاعر حلبى حر عاش فى القرن التاسع عشر ، مرت حياته بسلسلة من التيارات الفكرية ، فعلا مقامه ، وسطع نجمه . . شرّق وغرّب ، ولم يكد يجرد قلمه لشجب سلطان المستبدين ، وكشف الستار عن الأوهام والخرافات التى يتخذها بعض المشعوذين سلاحا فى التمويه على عقول السذّج حتى قامت الدنيا عليه وكان مصيره السجن فالموت .

هذا الشاعر السياسى الحر الذى مرت حياته بسلسلة من التيارات جدير بعناية الباحثين .

وإذا أخذت على نفسى أن أزيح التراب عن أسماء المغمورين ممن قضوا شهداء النزعات الجديدة والأفكار الحرة رأيت أن تكون محاضرة اليوم عن جبرائيل دلال — الشاعر الذى واجه الحياة بخيرها وشرها ، بهديها وضلالها فكان حظه من شرورها أكثر .. ولم يحصد من وراء أدبه ونزعاته الحرة غير البؤس والشر والسجن الذى انتهى به إلى الموت .

— ٢ —

فى الثالث من شهر نيسان سنة ١٨٣٦ ولد جبرائيل دلال من أبوين كريمين ، فقد كان أبوه عبدالله الدلال من وجوه حلب ورجالاتها المشهورين وكان بيته من أعرق بيوتات حلب . . وكان إلى هذا ملتقى رجالات الفكر والأدب ، ففى صالونه الأدبى كان يجتمع غير واحد من الأدباء يتدارسون دووان الشعراء ويقرأون المقامات وينظمون الشعر ويعرضون إلى أمور الدولة فى جو من الهمس .

وقد عنى الأب بتربية ابنه منذالصغر .. ولكن لم يكد يبلغ الحادية عشرة حتى فقد جبرائيل أباه وهو فى ريعان الصبا . . فكفلته عمته وعنيت بتربيته وهى كما يقول من أرخوا لهذا البيت ، كانت من فضليات النساء . . فما كاد الطفل يتم دراسة مبادىء اللغة العربية حتى أرسلته إلى مدرسة « عين طورا » فى لبنان حيث قضى فيها سنة دراسية كاملة ، ثم عاد إلى حلب وعكف على دراسة اللغتين الإفرنسية والايطالية — وهما اللغتان اللتان دخلتا فى ذلك العصر البيوت المسيحية قبل غيرهما من اللغات وكانت الإفرنسية أكثر تغلغلا ونفوذاً — وما مرت سنوات على دراسته لهاتين اللغتين حتى أصبح من المتمكنين بهما ، وقد حذق إلى جانبهما اللغة التركية — لغة الدولة آنئذ — إلى جانب العربية التى تمكن منها — وهى لغة آبائه وأجداده — وأصبح فيها من الأعلام .

ومذ تفتح ذهنه إلى المعرفة بدأ يثقف نفسه الثقافة العالية فأنكب على علوم ذلك العصر يعب من رحيقها ، وساعده على ذلك فرط ذكائه ، وقوة حافظته وشدة ميله إلى العلوم . . .

وما شب حتى أصبح فى محيطه ممن يشار إليه بالبنان . ولم يكتف بالمركز الذى ظفر به بين أترابه بل كان يرى آفاق العلم أوسع من أن تحد . . ومال ، منذ نشأته الأولى ، إلى اقتناء الكتب على اختلاف أنواعها ، فلم يقع على كتاب

نفيس فى يده إلا استعاره فأصاب حظاً وافراً من علوم العرب ، وكان يحفظ جل ما كان يقرأه ، فكان يتذكر فى الخمسين من عمره ما كان قرأه مرة واحدة قبل ذلك بثلاثين سنة ، وكان يحفظ ديوان المتنبي وأكثر شعر صفى الدين الحلى ، ومقامات الحريرى ، وكثيرا من مقدمة ابن خلدون ، والمعلقات السبع ، وطائفة من أشعار العرب ، وقسما كبيرا من القرآن الكريم [١] ، وبذلك تكونت عنده ملكة قوية ليكتب وينظم ؛ فكتب كثيرا ونظم فى مختلف موضوعات الشعر .

وإذا تفتحت عقليته لهذه الآفاق بدأ يستزيد ويلتهم كل ما يزيد فى ثقافته ليبلغ مرتبة مرموقة بين أدباء العصر .

وقد كان لمعرفته الإفرنسية والإيطالية أثرها فى تكوينه الثقافى ، أخذ يقرأ كل ما تصل إليه يده مما كتبه مفكرو الغرب . . قرأ كتب الأدب والفلسفة . وتطلع ذهنه إلى الرياضيات والطب والعلوم والفنون ، واشتد ولعه بالرسم والموسيقى .

وبالأجمال ، فقد كان صدره — يقول قسطاكى الحمصى — «أشبه بخزانة علوم وفنون» ، فلا يسأل عن علم أو اختراع أو مسألة فلكية أو سياسية ألا يجيب أحسن جواب بل كثيراً ما كان يأخذ فى الشرح والتعليل كأنه من أئمة ذلك الفن [٢] » أى كان يلم من كل علم بطرف وبتعبير أدق كان واسع الثقافة ، وهذا ليس بالقليل فى تلك الفترة من الزمن ، حيث كان الشرق يغط فى نومه العميق ، وكان الناس فى جهل عميم ، وكان الذين يعرفون القراءة والكتابة محدودى العدد ، والذين لهم مشاركة فى الثقافة العامة من الندرة بمكان . .

وقد وصف الرحالة الافرنسى فوليه الحياة الفكرية فى مصر وسورية ، فى تلك الفترة وقبلها بقوله :

---

(١) السحر الحلال فى شعر الدلال لقسطاكى الحمصى ص ٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٤ .

إن الجهل فيها — أى فى مصر ، عام مثل سائر مدن تركيا ، وهو يتناول كل الطبقات، ويتجلى فى كل العوامل الأدبية والطبيعية والفنية حتى الصناعات اليدوية فى أبسط أحوالها ، ويند أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة . وإذا وجد فهو أفرنجى »

ويقول عن سورية :

« إن الجهل سائد فيها كسائر تركيا ، وليس فى العرب أو الأتراك علماء فى الرياضيات أو الفلك أو الموسيقى ، ويندر فيهم من يحسن الفصد ، وإذا احتاجوا إلى الكى استخدموا له النار، وإذا عثروا على متطبب افرنجى عدوه من الهة الطب .

وأما علوم النجوم فقد صارت عندهم للنجامة واستطلاع الطوالع »

فى تلك الفترة المظلمة من حياة الفكر ، عاش جبرائيل دلال ، وبدهى ، وقد تفتح ذهنه للمعرفة ، بعد أن كوّن نفسه ، ونضجت ثقافته بالقرآات العربية والأفرنجية أن يكون من المرموقين بين أقرانه . وهو إلى ما امتاز به من خصائص المعرفة كان،كما يؤكد من عرفه من معاصريه ، عذب الشخصية ، لطيف الشمائل ، خفيف الروح ، صحيح الانتقاد ، وكان الغالب على طباعه سلامة السريرة ، وكثرة الوفاء ، وحرية الفكر »

— ٣ —

أصبح جبرائيل دلال ، وهو فى هذه السن المبكرة ، موضع إعجاب الكثيرين . . فما كاد يخطو العقد الثالث من عمره حتى ضاق ببلدته ، وأحب أن يقوم برحلة إلى الغرب . ولكن انىّ له السفر . . .

وتشاء الأقدار أن تتحقق أمنيته بظروف غريبة ، فقد توفى عمه فى القسطنطينية بلا عقب ، وكان من أصحاب الثورات الضخمة فسافر إلى استانبول ليستولى على حصته من التركة . .

وهناك .. فى مدينة السلاطين، بقى خمسة شهور ينعم بفيض جمالها ويغوص فى بحر لذاتها ويتأمل سحر سمائها ومفاتن بوسفورها ، ويتعرف إلى مغانيها وآثارها وجوامعها وقصورها ، ويختلط برجالاتها . . وقد استطاع ، فى هذه الفترة القصيرة ، أن يعرض شيئا من بضاعته ، وهى ذكاؤه وعلمه وشتى فروع ثقافته ، فظفر بإعجاب الكثيرين ممن اتصل بهم من رجالات الفكر والدولة معاً .

— ٤ —

بعد أن صفّى أعماله وقبض حصته من التركة عاد إلى حلب فمكث فيها سبع سنوات تزوج خلالها فتاة من أجمل فتيات حلب بل من أجمل فتيات سورية ، كما يقول كل من عرفها .

وإذ كانت استانبول قد فتنته بسحر مغانيها فقد عاد إليها سنة ١٨٦٨ وظل فيها قرابة سنة ونصف ، فكان على اتصال وثيق بالشخصيات الكبيرة ، فمدح بعض الولاة ومن عرفهم من رجالات العرب — مدح الوزير جودت باشا رئيس مجلس الأحكام العدلية آنذاك ومدح صديقه الأمير محمد أمين ارسلان أحد أعضاء شورى الدولة وغيرهم وغيرهم . . وأخذ ، وهو هناك ، يراقب عن كثب التطورات السياسية ، ولم تكن الأوضاع لترضى الرجل المفكر الحر فلم تطل إقامته واكتفى من هذه الرحلة أن أظهر عروسه الحسناء على مفاتن العاصمة . ومن استانبول عاد إلى حلب ليبيمم وجهه شطر أوربا — حلمه الذى راوده وهو فتى يقرأ مؤلفات روسو وفولتير ومن إليهم من أحرار الفكر — زار فرنسا وإيطاليا ، وبعد أن طاف أجمل مدن أوربا سافر إلى أسبانيا لزيارة فردوسنا المفقود . وما كاد يطوف ابهاء قصر الحمراء فى غرناطة ويرى بدائع الفن فى جامع قرطبة حتى وقف مشدوه الفكر ازاء تلك الآثار العظيمة التى تركها العرب كأثر خالد من آثار عبقريتهم فى الفن والعمارة ، وفى المدنية والحضارة .

ومن رسالته إلى أحد أصدقائه فى حلب يقول :

« وبت وكأنى أشاهـــد من الأمراء والوزراء خيال المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية وابن الحجاج وبنى سراج وبنى المظفر ، ومن العلماء والشعراء ابن خلوف ، وابن زيدون ، وابن خاقان ، وابراهيم بن سهل ، وكنت أرى آثارهم واضحة لا فقط من الأسماء الباقية على كثير من الأماكن والأبنية العربية الشامخة ، بل أيضاً من هيئة الجنس والسحنات الدالة على الأصل العربى وأخص ذلك العيون والحواجب »[1]

كانت زوجته الحسناء رفيقته فى الرحلة .. «وفى الأندلس كان يبوح لها بما كان يشعر به من سرور وحزن لدى معاينة تلك الآثار الناطقة بفضل العرب ، وما كان لهم هناك من ضخامة الملك واتساع الحضارة . وكانت تقرأ أقصى وجدانات نفسه فيجد لذلك لذة عظيمة ، وهى لذة مشاركته الأفكار وتوارد الخواطر التى لا يجهلها إلا الغبى الخامل ، وكان يسردلها فى تلك الأثناء ملخص تاريخ العرب فى الأندلس . ويعدد لها القصور والمساجد والأرباض الشهيرة فى كل مدينة من مدنها العظيمة[2] .

ومن أسبانيا سافر إلى البرتغال بمهمة خاصة ، وقد استطاع أن يحظى بمقابلة الملك ، ولم تكن مقابلة الملوك فى تلك الفترة من الأمور السهلة ولا سيما من شاب ليست له صفة رسمية ولا شهرة عالمية ، وقد أثمرت هـذه المقابلة فى قضية هامة لأحد أصدقائه فلعبت شخصيته العذبه دورها — وحلت القضية — وكانت مستعصية — ونال على هذه الوساطة مالا وفيرا .

ومن المفارقات الغريبة أن يصف — ليشبونه — عاصمة البرتغال — وصفاً مقذعا هو إلى الهجو أقرب ، وأن لا يرى فى نسائها — مع شهرتهن بفرط الجمال — إلا كل فتاة شوهاء .

(١و٢) السحر الحلال ص ٨ .

وأفيتها من بعـــد فرط العنا فـــلم أجد فيها سرور العيون
قد سارت الركبان فى ذكرها وقصر فى وصفها الواصفون
كل فتاة وجهها أشـــوه بالقبح تحكى خلقه الحيزبون

أكان جمال زوجته الساحر هو الذى جعله أن يرى فتيات لحيزبون كلهن شوهاوات !

— ٥ —

بعد رحلة ، فى أكثر مدن أوروبا التى استغرقت شهورا ، أخذ طريقه للعودة إلى وطنه .. وما كاد يصل إلى مرسيليا حتى أصيبت رفيقته الحسناء بمرض عضال فقضت نحبها هناك .. وعروسه ليست من أجمل بنات الشهباء بل من أجمل بنات الشرق كما يقول جميع من عرفها ، ويذكرون أن الشاعر حين كان فى باريس دعى مع زوجته إلى حفلة راقصة ، ، أقامها نابليون الثالث بقصر فرساى ، فلم تكد تدخل البهو حتى لفتت الأنظار بجمالها الساحر ، ويقال إن الامبراطور افتتح الحفلة بمراقصتها ولم يلبث أن لقبها بنجمة الشرق . Etoile d 'Orien

لقد فجع الشاعر بوفاة زوجته الحبيبة فى غربته .

تصوروا شاعراً فى طراوة العمر على جانب عظيم من الذكاء والثقافة ، غنى مفرط الغنى فما يكاد يرقى طريق المجد ويعمل المستحيل لمرضاة أحب البشر إلى قلبه حتى يفجعه القدر بهذه الضربة القاصمة للظهر .

ولما أراد أن يرثيها عصاه الكلام ولم يستطع أن يعبر عن لوعته إلا بهذه الكلمات الحزينة الصادرة من فؤاد مكلوم :

لى حالة يكتمها تجـــلدى إظهارها يصدع قلب الجلمد
قد شرد الغم جنانى بالأسى وقيد الهم لسانى ويدى
فباطن تبكى له أحبتى وظاهر تضحك منه حسدى
وما جرى نفى الكرى وفى الورى
بعد الذرى عدت أرى فى الوَبَد
من محنتى وفكرتى ولوعتى تجلدى ، تسهدى ، تنهدى

وهمتى تأ ـ الخمول فترى الـ　　جد مقيمى والقضاءَ مُقعدى
على شبابى والبلاد والغنى　　واحسرتى واحزنى وا كمدى

لقد دفن جزءاً من نفسه فى مرسيليا .. وكان يريد السفر إلى الوطن فلم يطق .. وعاد إلى باريس لعله ينسى ، ولـكن هيهات .

— ٦ —

من باريس سافر إلى الجزائر .. ثم إلى بلجيكا .. ثم عاد إلى باريس وهناك تعاقد معه وزير المعارف الافرنسية لتحرير جريدة « الصدى » العربية التى كانت تصدرها الحكومة الافرنسية لنشر رسالتها فى الشرق وفى المغرب العربى .

كان ذلك سنة١٨٧٧.

فقبل العمل ليلهو به عن مصابه الفادح .

ولا نعلم ماذا كان نهجه فى تحرير هذه الجريدة .. هل كان أداة الافرنسيين فى الجزائر .. أم استطاع أن يعبر على صفحات هذه الجريدة عن بعض ما كان يختلج فى صدره من أفـكار حرة .. ما تظن .

وقد أشار قسطاكى الحمصى إلى هذه الناحية بقوله :

« لـكنه لم يكن يكتب فيها ما يريد بل ما يراد بإيعاز وزارة المعارف الافرنسية المشار إليها» .

ولا شك وهو الأديب الحر ، أنه ضاق بهذا التـكليف فترك العمل وعاد إلى باريس .

وفى باريس أخذ يتصل بمختلف الهيئات والرجالات ، وكان يترجم بين سـفراء الحكومات العربية الذين يقصدون باريس كوزراء مراكش وتونس وزنجبار وبين وزراء فرنسا وغيرهم من رجالات الـكى دورسه .

وفى باريس تعرف على الوزير الشهير خير الدين باشا وزير باى تونس ، ورأى الوزير عند جبرائيل دلال الألمعية والعلم والذكاء . . فاتخذه نديماً له

وجعله أمين سره وكلفه بترجمة الكثير من الرسائل والمذكرات السياسية التى كانت تتضمن أمانى التونسيين الوطنية .

كان ينقل هذه المذكرات من العربية إلى الافرنسية بأسلوب عال . . كما كان يصحح الرسائل والمذكرات التى كان يكتبها الوزير بالعربية .

وهكذا لم يطل الوقت على تعارفهما حتى أصبح جبرائيل موضع ثقة الوزير التونسى . . وبدأ يصحبه معه أنى ذهب وأى مكان قصد . حتى إلى المصايف . . وإلى « حمامات فيشى حيث كان يذهب فى صيف كل عام أكثر رجال السياسة من سائر الممالك للمذاكرة فى المهمات متسترين ببراقع الاستحمام »[1]

ونزل خير الدين باشا من نفس الدلال أعظم منزلة . . فقد أحب فيه شخصيته الكبيرة وتقديره السامى لأدبه وعطفه عليه . . وهذا الذى حفزه أن يمدحه بأكثر من قصيدة واحدة .

وما دمنا فى صدد هذه الصلة الوثيقة بين الوزير التونسى والأديب الحلبى .

فلنترك حلب إلى تونس ، ولنتحدث قليلا عن رجل عصامى فذ لعب أخطر دور فى سياسة بلاده وفى سياسة الدولة العثمانية آنذاك .

— ٧ —

«خير الدين فتى شركسى ؛ قذفته الأقدار من القوقاز إلى استامبول أثر هجرة فبيع فى سوق الرقيق ، اشتراه تحسين بك نقيب الأشراف ثم باعه إلى أحد وكلاء باى تونس الذى أنفذه لسراء الشرارى والعبيد . وهذا حمله من استانبول إلى قصر الباى أحمد فلم يكد يلمح فى محياه مخائل الأصل والنجابة حتى اهتم بتعليمه . . وفى غضون سنوات قليلة ، ظهر نبوغ الطفل ، فقد حفظ القرآن

---

(١) السحر الحلال ص ٢٠ .

ودرس العربية والفقه والتوحيد على فطاحل الأساتذة . . ثم تدرج إلى مطالعة كتب الأدب والتاريخ : . ثم رأى أن علمه فى القصر يقتضى أن يتعلم الافرنسية .

وما هى إلا سنة أو بعض سنة حتى ألم بالافرنسية ، ثم حذقها كما كان قد حذق التركية من قبل .

وفى الفترة التى وجد فيها كانت تونس تقبل على نزعة اصلاحية فى شكل ادارتها وتنظيم جيشها الذى نيط أمره ببعثة عسكرية افرنسية فالتحق خير الدين الشاب بالجيش التونسى . وما هى إلا فترة حتى أصبح رئيساً لفرقة الفرسان . . وما زال يتدرج إلى أن أصبح أمير للواء الخيالة :

* * *

كانت التيارات السياسية تتجاذب تونس . وكانت الاطماع الإستعمارية تحيطها من كل جانب ، وهى أيالة مرتبطة بدولة الخلافة العثمانية . ولكن سلطتها عليها محدودة . . وكان الباى يتلقى التعليمات لينفذها فى نطاق سلطته الواسعة . . وقد اتجهت الدولة العثمانية فى زمن السلطان محمود إلى الأخذ بالأصلاحات الغربية وبتقوية الجيش ، ووصلت هذه التعليمات إلى الباى ، وبدأ اصلاحاته العسكرية على يد بعثة افرنسية كما أسلفنا ، وكانت فرانسا قد أحتلت الجزائر وبدأت تتحين الفرص للاستيلاء على هذا القطر ، وهو على ما هو عليه من الضعف والفقر ، والجهل ، وكانت تونس تحكم بثلاثة رجال: الباى أحمد ، ووزيره مصطفى خزنه دار ومحمود بن عياد .

فالباى أحمد وآل طموح يحب رقى بلاده ، فيأخذ فى تنظيم الجيش ويشجع نشر العلم ولكن فيه اسراف وافراط فى الترف وخضوع لبعض الظالمين الماليين من رجال الدولة .

ومصطفى خزانة دار وزير العمالة «المالية والداخلية» رجل مغربى الأصل ارتقى فى الوظائف حتى صار وزيرا ، وهو شخصية غريبة ، يحافظ على

الصلوات ، ويقرأ الأوراد ، ويقوم الثلث الأخير من الليل ، وهو مع ذلك شره فى جمع المال ، لا يتورع عن السرقة والغصب ومشاركة السارقين والغاصبين ، تولى الوزارة نحو خمسة وثلاثين عاما أثقل كاهل الشعب بالضرائب والمغانم والمظالم ، يفعل ذلك كله نهارا ويتهجد ليلا ، يختلس المال ويعمر المساجد ، زوّج بنته من خير الدين لما تنبأ له بمستقبل باهر .

* * *

ومحمود بن عياد يد مصطفى خزنه دار التى يقبض بها ويسرق بها ويستغل بها ، وظيفته جمع الضرائب على اختلاف أنواعها . وشراء جميع ما تحتاج إليه الحكومة وما يحتاج إليه الوالى .

وظل على هذا عشرين عاما ، استطاع أن يجمع من الثروة من هـــذه الأبواب ثمانين مليوناً .

وحين ضج الشعب من أعمالها المخزية هربا أموالها إلى فرنسا . وادعى ابن عياد المرض وزعم أنه مسافر إلى باريس للتداوى ، فلما وصل إليها أعلن عدم العودة ، وطلب أن يتجنس بالجنسية الافرنسية فأجيب إلى طلبه . ثم ادعى أن الحكومة التونسية مدينة له — بمبالغ طائلة قدرت بأربعين مليون فرنك ، نظير مشتريات لم تدفع ثمنها ، وقد أخذت الحكومة الافرنسية تطالب بحقوقه بالنظر لتجنسه بالجنسية الافرنسية .

وقد اضطر الباى أحمد أن يرسل خير الدين إلى باريس ليخاصم ابن عياد ويبين فساد زعمه . وظل ثلاث سنوات يرافع ويرافع إلى أن استطاع أن يحبط كل ادعاءاته الباطلة ، وكان قرار لجنة التحكيم التى رأسها الامبراطور نابليون الثالث أن أصدرت حكمها وهو يقضى بتخفيض مطالب ابن عياد من ستين مليون قرش إلى خمسة ملايين ، كما الزمته بأن يدفع للحكومة التونسية ١٤ مليون قرش فى ذمته لها ، ودفع مبالغ أخرى ، فكان مكسب تونس من هذه القضية نحو ٢٤ مليون فرنك بفضل حنكة الوزير خير الدين باشا .

وفى باريس درس الكثير من مناهج الغرب وأساليب نهوضه وتطوره فعاد وقد امتلأت نفسه بالاصلاحات الواجب اجراؤها ، ولكنه لم يكد يباشر حتى وقف فى طريقه المتزمتون والإقطاعيون والمستعمرون .

كان بعد عودته، قد عين وزيراً للحربية، كما انتخب رئيساً لمجلس الشورى .

وقد حاول الإصلاح على أوسع مداه فلم يستطع القيام إلا بأمور ضئيلة. مما اضطره أن يقدم استقالته ، ومما جاء فى كتاب استقالته :

« لقد حاولت أن أسير بالأمور فى طريق العدالة والنزاهة والإخلاص فذهب كل مسعاى سدى . ولم أشأ أن أخدع وطنى الذى تبنانى بتمسكى بالمناصب ، ورأيت أن الباى وعلى الأخص وزيره الرهيب العظيم الجاه مصطفى خزنه دار لا يلجآن إلى التشريعات الاصلاحية إلا لتبرير سيئاتهما تبريراً قانونياً ، فقدمت استقالتى سنة ١٢٧٩ من رياسة المجلس ومن وزارة الحربية وعدت إلى حياتى الخاصة » . . .

لقد اعتزل ولزم بيته ولكن الباى لم يتركه فى عزلته فقد انتدبه سفيراً إلى ألمانيا وفرنسا وانكلترا وإيطاليا والنمسا والسويد وهولندا والدانيمارك وبلجيكا فى مهمات خاصة .

وقد مكنته رحلته هذه ورحلته السابقة من دراسة الأسس التى قامت عليها المدنية الغربية وبنت عليها الأمم الكبرى قوتها ونفوذها مما حفزه إلى تأليف « كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » ، وكان فى ذهنه عند تأليفه أن يحذو حذو ابن خلدون فاشتمل على مقدمة وتاريخ . وأهم ماقصد من تأليفه أن يضع أمام القارىء العربى صورة لنهضة أوروبا وأسبابها وطريقة الحكم فيها حتى يقتبس المسلمون منها ما يصلح لهم . وقد أ دع فيه خلاصة ما رأى فى سياحاته وما قرأ وما فكر . . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الافرنسية بعنوان « الاصلاحات الضرورية للدول الإسلامية » .

* * *

لقد أطلت الحديث عن هذا الرجل، والحديث عنه شائق لذيذ، واعتماده فى الكثير من الأمور، على مواطننا الحلبي هو الذى جرنى إلى أن أطيل الحديث عن بطل من أبطال الإصلاح فى الشرق.

فبعد اعتزاله العمل واشتغاله بالتأليف كان الوزير مصطفى خزنه دار قد استشرى عبثه وفساده، وقد ارهق الشعب بالضرائب الثقيلة كما أرهق تونس بالديون حتى بلغت فى سبع سنوات ١٥٠ مليون فرنك مما حفز الدول أن تتداخل لصيانة ديونها.

اتجه الباى إلى خير الدين باشا لانقاذ هذا الموقف. ولكن ماذا كان فى وسعه أن يعمل؟ لقد اختاره رئيساً للجنة التى تألفت من فرنسيين وانكليز وإيطاليين لتوحيد الدين وتحديد الفوائد وإدارة المرافق التى خصصت لهذا الدين.

وهنا لعب دوراً كبير فى انقاذ تونس من الكثير من المشاكل الداخلية والخارجية:

وقف إمام شره اللجنة الأجنبية لصيانة حقوق التونسيين.

وخفف ما استطاع من الضرائب، ووقف أمام صهره إلى أن أجبر الباى على عزله بعد أن تربع فى الوزارة ثلاثين سنة، واتخذ قراراً بمحاكمته على ما اتهم به فحوكم والتزم بدفع خمسة وعشرين مليون فرنك..

وقد أصبح الوزير الأول فى المملكة التونسية، يناضل بعزم وقوة وإيمان ولكن قوى الاستعمار ومن التفّ حولها من أمثال الوزير خزنة دار وابن عياد كانت له بالمرصاد.

كان يبنى فيهدمون، ومازالوا يضعون أمامه العراقيل ويتهمونه بالحق وبالباطل إلى أن آثر اعتزال العمل فقدم استقالته إلى الباى فقبلها، وكان ذلك سنة ١٢٩٤.

وفى هذه الفترة استدعته استانبول، ونيطت به رئاسة الوزراء.. فعين

صدراً أعظم فى أيام كانت الدولة العثمانية تواجه فيها شدائد من أخطر الأمور. فتركيا فى حرب مع الروس ومنهزمة أمامهم ، وجيوش الروس تتقدم وتهدد العاصمة نفسها ، والأسطول البريطانى فى مياه البوسفور ، وحالة البلاد الداخلية من مالية واقتصادية ونفسية من أسوأ الحالات ، و ٣٨٠٠٠٠ مهاجر لا مورد لهم ولا معين يزحفون على العاصمة ، ومعاهدة سان ستيفانو التى عقدت فى برلين سنة ١٨٧٨ كانت طويلة الذيول تتطلب عقد معاهدة بين تركيا وروسيا فى الأمور الخاصة بهما .. وأبى الروس الجلاء عن أراضى الدولة العثمانية حتى تتم المعاهدة ، وأبى الإنجليز سحب أسطولهم حتى تجلو الجيوش الروسية ، ومشكلة قبرص معلقة ، والحالة مرتبكة مع النمسا لاحتلالها البوسنة ، ومشكلة الأرمن قائمة .

فى هذا الأتون المستعر وضع خير الدين ليطفىء النار .

فبذل كل ما يستطيع من رأى وجهد حتى كان الاتفاق مع روسيا ، ووضعت ضمانات تكفل مصالح المسلمين فى بلغاريا والروملى الشرقى ، وخفضت التعويضات الحربية تخفيضاً كبيراً .. وانسحبت الجيوش الروسية إلى بلغاريا والرُّوملى ، كما انسحب الأسطول البريطانى من بحر مرمره ، وسوّى الخلاف بين تركيا والنمسا بما حفظ لتركيا كثيراً من حقوقها ، وحُلّت مشاكل الأرمن التى استعصت على الحل نحو عشر سنوات ، وبسياسته حقاً أنقذ ما يمكن إنقاذه .

ثمانية أشهر قضاها رئيس وزارة كانت أعباؤها تساوى ثمانين عاما[1] .

هذه سطور عن سيرة الوزير خير الدين باشا .

---

(١) أحمد أمين . فيض الخاطر ج ٦ ص ٢٠١ .

— ٨ —

ونعود الآن إلى ما كنا فى صدده لنتابع الحديث عن جبرائيل دلال ، ابتعدت بكم عنه لأربط بين سيرة الرجلين .

فحين انتدب خير الدين باشا سنة ١٨٧٩ لمنصب الصدارة العظمى فى الدولة العثمانية كتب إلى جبرائيل دلال ، يستدعيه إلى الآستانة ليكون سكرتيره الخاص .

وسرعان مالبى طلبه : فما كاد يصل إلى الآستانة حتى ضمه إلى حاشيته ، بل كان من أخلص المقربين إليه . . وإن دل هذا على شىء فعلى ما امتاز به الدلال الأديب الشاعر ، السياسى المفكر ، من صفات نادرة ، وخصائص فذة .

فقد كانت عاصمة الخلافة تغص بمختلف الرجالات ، وكان فى وسع الصدر الأعظم أن يختار الكثيرين ليكونوا إلى جانبه ، ولكن ما لمسه عند الدلال من كفاءة جعله يختاره ويفضله على الكثيرين .

* * *

وقد عرفنا الوزير خير الدين باشا من الأفذاذ فى السياسة والعلم والحنكة والدهاء ، ولاختياره هذا الأديب الحلبى دلالته المتميزة .

اصطفاه بين الكثيرين حتى كان « يأكل على مائدته ويملى على سمعه درر مفاكهته ، وقد كلفه أن يصدر جريدة تعبر عن آرائه ونزعاته السياسية ، فأصدر جريدة « السلام » ، وكان يدبج صفحاتها بالمقالات الرائعة وبخلاصة من آراء الصدر الأعظم فى إصلاح جهاز السلطة ، ثم توقف صدور الجريدة لعوامل ليس هنا مجال شرحها .

وقد استطاع خلال هذه الفترة أن يوثق صلته بالكثير من الرجالات الذين اعتبروه لسان حال الصدر الأعظم فى الكثير من الملمات .

كما عرف فى الأوساط الدبلوماسية كرجل يتميز بالكثير من المواهب سواء فى ميادين العلم ، أو فى ميادين السياسة ، وتوثقت صلته بسفراء الدول الأجنبية الذين عرفوا مكانته وفضله .

وحين استقال الوزير خير الدين باشا من منصب الصدارة العظمى استأذن الوزير ليعود إلى وطنه ، ولكنه لم يرجع إلى حلب ، لأنه تلقى فى هذه الفترة رسالة من رئيس المكتب الملكى فى فينا يطلب إليه أن يكون أستاذاً أول فى المدرسة المذكورة ، فقبل المهمة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٢ ، وسافر إلى فينا عاصمة النمسا وتولى التدريس مدة سنتين .

وقد ألف لتلاميذه رسالة فى الهمزة وأحكامها ، ورسالة ثانية فى قواعد اللغة العربية تقرب منالها على الطالبين من الافرنج . . وقد نهج فى رسالته هذه نهجاً جديداً فى تعليم الأجانب اللغة العربية .

ولم يقتصر عمله فى فينا على التدريس . . بل كان يتصل برجالاتها ويدرس أحدث نظم الحكم . . وكان يراسل من فينا الجرائد العربية الكبرى فيكتب أدق الملاحظات السياسية والاجتماعية عن أحوال الغرب فكتب إلى جريدة « الجوائب » التى كان يصدرها فى الآستانة الشيخ أحمد فارس الشدياق ، وإلى الجنان « فى بيروت » و « الأهرام » فى الإسكندرية و « مرآة الأحوال » فى لندن — كان جم النشاط ، كثير الإنتاج يكتب فى الأدب والسياسة وينظم الشعر ويؤلف .

ولا يبخل بقصائد المدح حين يطلب إليه ذلك ، كان بحكم مركزه السياسى وصلاته الوثيقة بالسفراء يجامل ولا يتزلف ، فقد طلب إليه وزير مراكش السيد موسى الفضل أن يمدح سلطانها مولاى حسن فنظم قصيدة تعتبر من عرر القصائد .

وحين زار شاه إيران ناصر الدين مدينة باريس طلب إليه وزير إيران آن ذاك يعقوب خان أن يمدح جلالته بقصيدة فلم يضن . ومدحه بقصيدة كان لها وقعها فى نفس الشاه ، فأهداه عليها هدية ثمينة :

— ٩ —

لقد طال غيابه عن الأهل والوطن

سبعة عشر عاماً وهو فى أوروبا وآسيا وافريقيا .

ينتقل من بلد إلى بلد ، ومن منطقة إلى أخرى ، من مملكة فى الشرق إلى مملكة فى الغرب :

وما زال إلى أن ملّ التطواف وحنّ حنيناً ملحاً إلى أرض الوطن .

وفى سنة ١٨٨٤ عاد إلى حلب ، عاد إلى منزله الذى نشأ فى ظلاله . وقد شعر بالوحدة والألم : فلا أب يضمّه إليه ، ولا أم تحنو عليه . ولا زوجة تعانقه وتبادله الحب والعطف .. ولا أحد إلا بعض الانسباء الذين أحاطوه بالكثير من الرعاية والتقدير ، وقد استقبلت المدينة هذا الرجل الكبير الذى فارقها شابا نضير العود فعاد إليها كهلا بيضت السنون شعره — استقبلته بالترحاب ، وأقبل الناس يسلمون عليه ويغترفون من فضله وأدبه وعلمه ، وما أفاده من سياحاته واتصالاته بأكابر الرجال من سياسيين وقادة وعلماء وأدباء .. وأصبح بيته ، كما كان فى عهد والده ، منتدى لذوى الفضل من الأدباء والشعراء ، ولكن بعض المتزمتين من ضيق الصدر لم يرق لهم أن يصل هذا الأديب الحر إلى هذه المنزلة الرفيعة فأخذت نفوسهم الحاقدة تنفث سمومها ، وأخذوا يتحدثون عن ميوله التقدمية ونزعاته التجديدية وآرائه الحرة . وقد ضاق بهم فاحتمل اكاذيبهم وسعاياتهم وسكت على مضض ، وأنّى لمفكر حر أن يعيش فى البيئات الموبوءة ..

لقد كاد ينفجر فلم تطل إقامته فى وطنه الحبيب .. وما هى إلا فترة حتى قرر الرحيل . ولكن إلى أين ؟ إلى موطن يعرف قدره ويقدر مواهبه ، وكانت بيروت أقرب المدن إليه ، فشد إليها الرحال . وكان صيته قد سبقه إلى كل بقعة من بقاع الجبل فلم يكد يصل إليها حتى استقبله رجالاتها أحسن

استقبال واحتفى به علماؤها وأدباؤها . . وذوو الفضل فيها . وقد أنسته هذه الحفاوة بعض ما لقيه من مواطنيه الذين كانوا يقذفونه بالتهم ويرمونه بألسنة حداد .

— ١٠ —

لم يلبث طويلا فى بيروت . . فقد كان حنينه إلى استانبول يزداد اليوم بعد اليوم ، واستانبول مركز لكبار الرجالات من شرقيين وغربيين ، وسافر إليها . وهناك ، حل ضيفاً على صديقه منيف باشا ، وكان وزيراً للمعارف ، فسر بلقائه ، وأحسن ضيافته ، إلا أن المركز الذى كان يحتله خلال وجود الوزير خير الدين باشا قد تضاءل أو زال . وبدأ الناس يقذفونه بالتهم ، ويحاسبونه على الآراء الحرة التى كان يدين بها ، والعهد عهد مظالم واستبداد . . ولكى يجنبه صديقه منيف باشا مغبة اذاهم رأى أن يبعده عن هذا الجو . فقذف به إلى وطنه ، وعينه فى معارف الشهباء بوظيفة صغيرة لاتتناسب ومكانته [١] .

وأضاف إليها منصب استاذ أول للغة الافرنسية فى المكتب الإعدادى وقال له :

هذا دون مايليق بفضلك ووجاهتك . وستنال إن قدر الله مايشرح صدر أهل الفضل .

ولم ينشرح صدره لهذا التعيين . وعرف أن ميوله التقدمية ونزعاته الحرة هى التى كان لها أثرها فى محاولة إعادة المارد إلى القمقم . وقبل هذه الوظائف المتواضعة كوسيلة للنهوض بموطنه .

وما كان الدلال من الشخصيات التى تعنى بالمظاهر بعد أن رأى الدنيا بشتى مباهجها ، وقام بعمله خير قيام ، وطغى بعلمه وثقافته على الكثيرين

---

(١) أمين خزانة محاسب المعارف .

من النكرات التى كانت تفرض جهلها وسخافتها فضاقت به . ورأت ، لكى تتخلص منه أن تثير موضوع قصيدته الكبرى « العرش والهيكل » ، وهى قصيدة فى مئة واثنتين وخمسين بيتا ، عرض فيها إلى تصوير حقائق الحياة بشتى مظاهرها . . وأطلق لنفسه العنان ، وهو فى باريس ، للتعبير عن آرائه الحرة فى جور السلطان وشعوذة الكهنوت ، فكان حراً مفكراً لا يتقيد بنزعة ، وكان لهذه القصيدة صداها البعيد فى مختلف الأوساط . وكانت وسيلة بيد حاسديه لتحطيمه والقضاء عليه .

فقد بدأت الوشايات تنهال عليه من كل جانب . من جواسيس عبدالحميد ومن رجال الكهنوت . هؤلاء يتهمونه بالهرطقة والتجديف . وأولئك بغمزه من قناة السلطان ... وما اجتمع الداءان إلا ليقتلا : داء الاستبداد وداء الشعوذة . فقد تعاونت عليه سلطتان جائرتان : سلطة الكهنوت التى فضح الكثير من أضاليلها وخزعبلاتها — وسلطان الجور فى العهد الحميدى . فوشى به حاسدوه . وكانت النتيجة أن عزل من منصبه وزج فى السجن .

ماذا ؟

رجل كان نديم الصدور والوزراء ، يتخاطفه الملوك والأمراء لا يكاد يرجع إلى وطنه حتى يصبح فريسة الوشايات والأهواء ، ويكون مصيره غياهب السجن مع القتلة واللصوص .

لا شك أن هذه النهاية قد هدت أعصابه ، ولا سيما وهو إلى رقة شعوره ودقة إحساسه ممن عاش طوال حياته فى الأجواء الفسيحة ، ينعم بنسيم الحرية العليل ، وبفيض من الترف الأصيل .

لقد تحمل أكثر مما تحمله بشر ، وبالرغم من الحرية التى أطلقت له ضمن جدران السجن ، ومن السماح لأصدقائه وخلانه أن يزوروه — بالرغم من ذلك كان يقاسى الآلام المريرة . وقد عمل أصدقاؤه كل الوسائل لاستصدار العفو عنه فلم يفلحوا .

ثم نصحوه أن يلتمس عفو السلطان بقصيدة مدح .. وبالرغم مما يحسه الحر من مضض هذا التكليف القاسى فقد نظم بكثير من التكلف قصيدة استعطاف ، ختمها بعد المدح بزرايته بالواشين :

ياملیك الزمان عطفاً على الجـــانى المعنى المضنى الكئيب الشريد
أنت ظـــل الله الظليـــل على الأرض ومأمونه وخير رشيد
كن من الكاظمين للغيظ والعافـــين بالناس عن ذنوب العبيد
فأعف عنى فأنت للعفو أهل وأقل عثرتى بفـــك قيودى
واعدنى لحسن رأيك إنى خادم صادق وخير ودود
فالوشايات والسعايات من أعـــدای بادی ضغائن وحقـــود
وأنا عائذ بحلمـــك راج رحمة منك للذليل الطريد
فانعطف سيدى ومالك رقى واستمع صوت لائذ منكود
وابق فخراً للملك تزهو بك الدنـــيا ودم سالما بعيش رغيد

وبالرغم مما فى هذه القصيدة — وهى طويلة — من روح التزلف ، وفى اعتقادنا أنه أكره على نظمها ليتخلص مما يقاسيه — نقول بالرغم مما فيها من روح الخنوع والتزلف ، فقد ذهبت صرخة فى واد ، وما كان لمثل هذا الكلام ليستدر عطف السلطان الأحمر على أحرار الفكر :

* * *

وظل فى سجنه يقاسى الآلام المريرة مدة سنتين ، وما زال حتى لفظ أنفاسه فى صباح الرابع والعشرين من شهر كانون الأول ١٨٩٢ عن ستة وخمسين عاما ، فكانت وفاته خسارة كبرى — خسر بها العلم وخسر وطنه أكبر رجالاته .

وقد تقاطر أهله لنقله من السجن إلى منزله .. ثم إلى المقبرة فدفن فى موكب صامت بين الدموع والحسرات ..

وهكذا ، فقد كانت قصيدته ، « العرش والهيكل » هى التى أودت به إلى هذه النهاية المؤلمة .

— ١١ —

ونتحدث عن هذه القصيدة ، أنها نظمت فى باريس — نظمها وهو فى فجر شبابه ، بعد أن تأثر بفولتير وروسو من أحرار الفكر .

يقول بشير يوسف صاحب جريدة «القاهرة» التى كانت تصدر فى مصر سنة ١٩٠٣

« إن المرحوم جبرائيل دلال ، رحمه الله ، سافر إلى باريس فى عنفوان العمر ومقتبل الشباب ، فأطلع على كتابات فولتير وغيرها ، وعنها نقل هذه القصيدة إلى اللغة العربية ، وهى شهادة ناطقة بفضله .. وقيل إنه ساعده بترجمتها المرحوم رزق الله حسون السياسى الشهير ، والمرحوم عبد الله مراش الكاتب التحرير .. وبعد ثلاثين عاما من ظهور هذه القصيدة بأمضاء المرحوم جبرائيل دلال ، وبعد ان عاد عدة مرات إلى بلاد الدولة وإخصها الاستانة ، وحلب ، وشى به أحد اللئام ، وهو مأمور محاسبة معارف ولاية حلب ، فصدرت إرادة سلطانية بسجنه ومحاكمته .. أما المحكمة فلم تجد وسيلة للحكم عليه بعد مرور كل هذه المدة إلا إنه لم تصدر إدارة باطلاق سراحه فيئس ومات شهيد قصيدته « العرش والهيكل » ومنهم من يقول إنه مات مسموما والله أعلم » .[1]

وبعد أن صدّر الجريدة ، برسمه قال « بما إننا توفقنا إن ننشر قصيدة « العرش والهيكل » الآنفة الذكر فى هذا العدد وهى امنع من العقاب واندر من الكبريت الأحمر بعد ما نكب صاحبها لأجلها ومات فى ظلمات السجون — بحريرتها ، رأينا إن نطبع عددا زائدا — وقيمة النسخة غرش صاغ . . ! .

---

(١) العدد الرابع السنة الأولى ١٥ مايو ١٩٠٣ .

ويقول عطا حسنى بك عضو الجمعيتين العلمية والجغرافية فى باريس فى كتابه « خواطر فى الإسلام » .[1]

« هذه قصيدة من عدة قصائد نظمها العلامة الفيلسوف الشاعر ڤولتير ، أبو الثورة الفرنسية المشهورة عل ما يلقبه الافرنسيون ، كما يلقب الاتراك شاعرهم كمال بك المشهور . .

وقد ترجمها إلى العربية نظما المأسوف عليه شهيد الحرية جبرائيل دلال الحلبي .

واتصلت بى هذه القصيدة مطبوعة فى باريس بمطبعة حجرية بتاريخ ١٨٦٤ مسيحية ، ثم قال :

« أن هذا الناظم الكبير لم يسلم من شر القسيسين ، فأنه عند نظم قصيدته كان نزيلا فى باريس ، ثم بعد ثلاثين عاما ، رجع إلى وطنه فوشى به القسيسون إلى الحكومة بأنه من أنصار الحرية مستشهدين بهذه القصيدة فأخذ الرجل وسجن وما زال سجينا إلى أن مات فى سجنه شهيد الحرية » .[2]

وقد أعطى الشاعر لنفسه ملء الحرية فى التعبير عن آرائه وفى شذب الكثير من المعتقدات الفاسدة ، وفى كشف الستار عن الاضاليل التى يتخذها بعض رجال الكهنوات ستارا لمنافعهم الذاتية ، ومآربهم الخسيسة . . وهو إلى إشادته بسلطان الدين وأثره فى تهذيب النفوس وهداية البشر كان يأخذ على تجار الدين شعوذتهم .

وقد بدأ القصيدة بالكثير من المواعظ وغاص إلى الاعماق فى البحث عن الغاز الحياة وأسرارها الغامضة . . ثم إنتقل إلى وصف رجال الدين — أريد المشعوذين منهم — ثم إلى تعاليم المسيحية الصافية ، وما فى التوراة من قصص ومواعظ ، ومابين الهوى والعقل من صراع ، ثم عاد إلى أولئك الذين يتخذون الدين أداة لمآربهم الذاتية وتأثيرهم على السذّج ليظلوا فى غباوتهم

---

(١) ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٧ .

السادرة . . وبعد أن شفى صدره بوصف حيل والاعيب المشعوذين من الدجاجلة ، إنتقل إلى السياسية — إلى طغيان الملوك الذين يتربعون على صولجان الحكم كأنهم آلهة . . لامأرب لهم إلا التنعم باللذاذات والانغماس بالشهوات ومصّ دماء الشعوب .. وقد وصف ظلمهم وبطشهم ثم هزّ ضمير الأمة لتستيقظ وتخلع الشر عن رقابها .

وهى قصيدة ثورية بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، ولا سيما إذاعلمنا أنها نظمت فى منتصف القرن التاسع عشر . . وقدأراد منها أن تتحرر الشعوب من الاستبدادين الدينى والسياسى ، وليس هذا بالشىء القليل أن تصدر هذه الاراء فى فترة يحاسب فيها الإنسان على الهمسة . . وأن دل هذا على شىء فعلى جرأة الشاعر وتشبعه بمبادىء الحرية وبالآراء التى نادى بها فلاسفة الغرب الأحرار . . وماكان له أن يكتب هذه القصيدة لولا اسفاره . . ولولا مطالعاته . . ولولا استجابته لكل ما يقول به سلطان العقل المتحرر من الخرافات ، ولكن هذه النزعات الحرة هى التى أودت به إلى الموت فقضى شهيداً من شهداء الفكر .

وإذ نتجاوز عن الإشارة عن الكثير من شعره ، ولا سيما شعره الغزلى وموشحاته ، نرى من الأمانة أن نثبت قصيدة «العرش والهيكل» التى قال عنها صاحب جريدة «القاهرة» قبل خمسين سنة إنها أصبحت أمنع من العقاب وأندر من الكبريت الأحمر — وقد حصلنا عليها من أحد أنسبائه — لتكون بين يدى الباحثين مادة لدرس الحياة الفكرية والأدبية فى تلك الفترة من الزمن .

وهى تدور حول ثلاث نقاط رئيسية .

١ — مقاومة سلطان الكهنوت .

٢ — مقاومة استبداد الملوك .

٣ — الدعوة إلى الحكم الجمهورى :

ومتى ؟

فى الفترة التى حكم فيها السلطان عبد الحميد البلاد حكما أوتوقراطياً كان التلويح بكلمة من كلمات الحرية كافيا لأن يكون نصيب صاحبها الموت . . وهذا الذى يحدونا أن ننشر القصيدة بنصها الكامل لأنها تؤرخ فترة من فترات نضال الفكر الحر .

ومن هنا تبدو قيمة هذا الشاعر الأديب .

* * *

العرش والهيكل

مواعظ وحكم :

عسرتْ لك الأيام فى تجريبها ... وسرت بك الأوهام إذ تجرى بها

ومضت اويقات الهنا وتلاعبت ... أيدى سبا ببعيدها وقريبها

فإلامَ تعرض ناسياً ذكر البلى ... وعلى م تغريك الحياة بطيبها

واللمةُ الشمطاء تنـــذر بالفنا ... وتُشيب صفو صفائنا بمشيبها

ولّى الشباب واخلقت أثوابُه ... واحسرتى لنضيرها وقشيبها

وتجشمت هول الزمان وجوهُنا ... وعن النضارة بُدِّلت بشحوبها

والشمس تسطع فى أوان شروقها ... والاصفرار يكون عند مغيبها

وحياتنا بشرورها وغرورها ... كُسفت فكان شروقها كغروبها

فكأنها لجج تخوض عبابَها ... وسوابق تجرى على يعبوبها

فإذا دعتك دواعى اللهو اتئد ... بعداً لسامع صوتها ومجيبها

ربُ النهى من صمّ عن تصويتها ... وأخو الحجى من ضل عن تصويبها

تصفو الحياة مع الشبيبة برهةً ... ويروق كأس العمر عن مشروبها

ومع المشيب تمضنا إكدارها ... واخشيتى من مر طعم رسوبها

ركدت وقد كمن البلاء وشرُه ... برحيقها ورسى بصافى كوبها

من دأبها عطلَ الكريم وسلبُه   جمحت فما تنفك عن أسلوبها
عجباً لها إن كان أول أمرها   هذا النكال فما ترى بعقبها
لا تتقى الأحداث سطوة مالك   وبصمتها حكم لمن يدرى بها
فالعرش افصح مخبر بخطوبها   والنعش اصلح منبر لخطيبها
وبسلبها حالَ الخليفة أوجبت   حصر الفصيح بها وعى طبيبها
جبت البلاد فما نعمت بشرقها   وبغربها وشمالها وجنوبها
فبكل قطر شاع لفظ كرورها   وبكل مصر ذاع فرط كروبها
بخلَت بجبر كسيرها وابت فكا   ك أسيرها ، ضنت برد سليبها
واولو النهى تبكى لحالة جاهل   متعاقل بعيونها وقلوبها
إن الطبيعة أودعت مكتومها   فى صدر عالمها وذهن أديبها
لا يحزن الراسى شقاً مطعونها   كلا ولا الآسى أسى مضروبها
هل يوجد المعدوم من تحضيرها   أو يُعدم الموجود من تغييبها
أبداً لعمرى كل ذاك تحايل   يبدو لغمر ضل عن محجوبها
لكنها تأتى بما يتوهم الرائى عجا   باً من جمود حبيبها
فتباعدُ الإجرامَ فى تحليلها   وتساعد الأجسامَ فى تركيبها
ضاعت على الجهلاء غايتها وقد   ضاعت على العقلاء نفحة طيبها
خفيت عن الحمقى غوامض أمرها   واولو النهى علموا حقائق حوبها
وعُدوا بخافى سرها وجلائها   وغدوا بصافى درها وحليبها
لكن أكثرهم لسوء الحظ قد   بلغوا من الدنيا أقل نصيبها

* * *

وصف رجال الدين :

كل الأنام وأن تباين حالها   فالمال جل القصد من مطلوبها
فلكسبه أحبار روما وزعت   للناس كفارات غفر ذنوبها
ولاجله القسّان فى بيعاتها   باعت ذخائرها وعودَ صليبها

وبطارك ومطارن إذ مخرقت حصلت بما افكت على مرغوبها
ثم ادّعت زورا بخافى قدرة ومزية علوية تسطو بها
زعمت تسلسل سلطة اذنت لهـــا الرسل الكرام بمنعها أو سيبها
مابالها عجزت عن الأبيات حيـــث خلافة الأفعال فى تنويبها
عميت عن الخشب الذى بعيونها وقذى الآنام رأت ونذرَ عيوبها
فهى الذئاب وإن تردت حيلة بلباس حملان وظاهرِ ثوبها
بسوادها تنساب فهى أساور تسعى لتنفث سمها بلبوسها

تعاليم المسيحية :

وتقول إن الله قامت ذاته بثلاثة يقضى النهى بوجوبهـــا
من ضاقت الأكوان عن أن تحتويه كلهـــا بفسيحها ورحيبها
قد جاءنا متجسداً من ابنـــةٍ ولدته حقاً كأبنها وربيبها
والناس قد قتلوه ظلماً ثم قام وفرّ من غصص الجحيم وصوبها
وبذاته وجميعـــه وصفـاته وكمال عزته وسامى نوبهـــا
يعنو لها متنازلا عن عرشه بصلاتها أبداً وفعل عجيبها
وبأن مالى الكون يحضرُ صاغراً فى خـــبزه تبلى بمضغ رغيبها
حاشا وجلّ جلاله عن مثل ذا وتنزهت أوصافه عن ريبها
فلقد تسامى شأنه عن شيبها ولقد تعالى قدره عن ذيبها

النوادة :

* * *

جاءت بأسفار غدت تهذى بهـا زعمت وجود الحق فى تهذيبها
والعقل دل على صريح ضلالها والرشد يهدينا إلى تكذيبها
وصواب ذى العقل السليم بطبعه يأبى قبول السهل من تصعيبها
يبنى سخيف النص عن تزويرها ومناقضات القول فى ترتيبها

وإذا افترضنا الصدق فى أخبارها
ووجود محض النصح فى تونيبها

أو أن كل خرافة بحديثها تنبي عن الآتى برجم غيوبها
فنرى الرموز بها أتت بخشونة قد تشمئز النفس من تقليبها
كالفتك بالمغلوب دون ترأف وكذبجها الإخوان فى تأديبها
وغلاظة الأفكار فيما أوردت وقذارة التكهين فى تقريبها
فكأن كهنتها بهيكل ربها غلمان مجزرة لدى مربوبها
حيث الذبائح والصعائد دهنها مع شحمها وعظامها وكعوبها
نسيت جميل الصبر بعد مصائب وإياب خيرات إلى أيوبها
ووجود خلق لا تعد لكثرها من نسل يوسفها ومن يعقوبها
وقد اصطفاها أمة محبوبة بارى الخليقة دون كل شعوبها
وأنالها بالوعد أحسن بقعة بالأرض تنعم فى امتلاك خصيبها
فاستعبدتها أهل مصر بجورها قسراً لتعمل بالأجرّ وطوبها
ودعا لموسى الله من عليقة لهبت ولم تحرق بحر شبوبها
واختاره لخلاص أمته من الأسر المهين وشد عزم رغيبها
بسيوف أعجاز أراعت أهل مصر وأرغمت أبطالهم بضبيبها
فسطا على سحرائها بخوارق نكبت بها وعلا ضجيج نحيبها
ذكروا بأن الله أوصى أمة إسرائيل يوم خروجها وغروبها
أن تستعير متاع جيران وتهرب كاللصوص بمالها وذهوبها
ومن العجيب بأنها مع كثرها عدداً وبطش شجاعها وغضوبها
ومساعدات الله فى أبلائه أضدادها قهراً بأم رقوبها
وحوادث وكوارث ونوازل نالت بها فوزاً على مشجوبها
أودى بها هرباً وساعده يساعد سيرها فى وخدها وخبيبها
وختام ذا النصر المجيد لأمة نسبت له ومضى زمان شعوبها
شق البحار أمامها لتجوزها ربة وتنجو من أذى مغلوبها

وقد اهتدت فى التيه حيث عن الـ أمان وأصبح الأعوان حظ َ طلوبها
بعمود نار كان فوق خيامها يبدو ليجلى الشك عن مذبوبها
فيدلها بالسير أما قو ّضت وينيرها فى الليل فى تطنيبها
ودعاء موسى أمطرَ السلوى لها والمن قوتاً فيها سدّ سغوبها
وعصاه قد أجرت لها من صخرة صافى المياه طغت بفيض سكوبها
نزل الإله على الجبال له وأعطا ه الشريعة وهو فى شنخوبها
مكتوبة بأصابع الخلاق فى الأحـ جار فهو ملبِّين لصليبها
وكذاك أرميا بفضل عجيبة حل الدمار بسورها وصقوبها
نفخوا بأبواق وطافوا حولها فتقوضت دكا لهول صخوبها
ومع الجواسيس الالى نزلوا بها قد خامرت راحاب فى ترحيبها
وكذا ابنَ نون توقفت شمس الضحـــى بصلاته عن سيرها وغيوبها
ليتمم الفتك الذريع بفيئة شجعت وخاب السعى مع تدريبها

* * *

عود إلى القسيسين :

وعلى أضاحيك كذا استندت وقد ترجو نوال النصر من ترغيبها
وأتت تكابر باختراع زخارف تبغى اجتلاب النفع من تجنيبها
وعدت بجنات النعيم لطائع وتوعدت بالنار فى ترهيبها
حيث الشياطين التى تغوى الورى تسطو على الهلكى ببعلزيوبها
لما رأت شمس التمدن أشرقت وضلالها يبغى دوام قتوبها
بمحاورات الشهم فولتير التى اند دفعت مياه الحق من أنبوبها
فيها قد افتضحت وبان سقامها وبدا خفىّ جراحها وندوبها
إذ عن صراط الحق ذاع مسيرها وإلى احتشاد المال فرط لغوبها
وأراعها منــــه تهدم عرشها وتزعزع الأركان بعد رتوبها
هرعت لتدرك فائتاً فــــترده هيهات قد ولى زمان رحوبها

قَنطت وقد أبدى الهدى بهتانها ... كقنوط نفس من فراق حبيبها
جزعت بحزن لابتذال حجابها ... وتهتك الأستار عن مكذوبها
عبراتها تجـــرى لعابر وقتها ... مع لطم أوجهها وشق جيوبها
جمعت بروما جمعها وتقاطرت ... تدعو التئام أولى الدها بضغيبها
وتصيح يا أهل الكنيسة بادروا ... لقيام دعوة ربكم مصـــلوبها
يادار ندو تنا لفحص الدين هل ... من عودة يرجى رجوع مريبها
أيام نسلب مال من كفروا ... ونحرق جسم عاصينا بحر لهيبها
فالدين مفتقر لحـــل مشاكل ... وخلاص قائبة له من قوبها
لنرى مبادىء رأينا منبثـــة ... فى الأرض فاسد قولها كمصيبها
تشرى بمن جهلوا حميا وهمها ... ويدب فى الحمق ردى دبيبها
وبكل ذا ترجو ثبات دعائم ... مادت بها ودنا أوان ذهوبها
تسدى الثناء لكل فـدم دأبه ... تأييـــدُها والقرعُ فى ظنبوبها
فتحوم كالغربان تنشـد فائتاً ... منها وقـد ملىء الفضـا بنعيبها
أنّى اختفاء النور مهما حاولت ... رتق الفتيق وأين ســد ثقوبها
والله عالم سرنا لايرتضى ... فيما افترت ويسرّ فى تخييبها
كل البلايا والشرور أتت بذى الدنـ ... يا وها التاريخ من تحزيبها

* * *

الانتقال إلى السياسة :

وكذا الملوك فليس ينكر ماجرى ... فينا من استبدادها ووثوبها
أوجور من فتح الممالك عنوة ... وبغى على سكانها وغريبها
فبنصره خذل العلوم وأخربت ... تلك البلادَ جيوشهُ بحروبها
أودى بأسباب المعيشة بطشها ... وعلى التجارة سد أصلَ دروبها
نزل البلاء على الفلاحة والبـــوار فأمحلت بغراسها وحبوبها
وتقشعت سحب النجاح وإن سقت تـــلك السباخُ المزنُ من شؤبوبها
ذبح العباد على الوهاد بظلمـه ... وسقى المهاد دماءها عن صوبها

فذوت جراثيم الفلاح لعسفه وبدا لما سقيت جفاف رطيبها
فلم الخضوع لذى البغاة ومالها عجبا تتيه بتاجها وقضيبها
أم كيف نحمل جورها ونقاد رغما مر تضين بغمرها كنجيبها
وبم نرى فضلت على كل الورى وسمت على نحريرها ولبيبها
باللحظ أم بالسمع أم بالذوق أم باللمس أم بالشم فضل حسيبها
هل انها إلا اناس مثلنا وبنا ومنّا العزم فى تغليبها
فالجيش من أولادنا لقتالها والبذخ من أموالنا لمعيبها
حازت نفائس ما يرى فوق الثرى وتفاخرت بمتاعها وأتوبها
الخز والديباج اضحى لبسها وغدت كرام الخيل من مركوبها
فتنافست فيما حوت من سابق وتمتعت بنجيبها وجنيبها
لولا اختلاس الكل من اتعابنا لغدت تموت بجوعها وبلوبها
ولكنت تنظر كيف دون مساعد تسطو واى مهابة لرهيبها
إذ فى الوغى يبدو نبو ضرابها ويبان فى الهيجاء جبن ضريبها
لكنها بالمكر سادت مذ غدت كل الملا تعنو لبطش مهيبها
وغدا على كل الوجوه وجومها يبدو فعاد بشوشها كقطوبها
ولها أذل من العباد رقابها ارجاف واشيها وخوف رقيبها
خطفت سموم الظلم صوت خطابها لما اشتكت من عصفها وخطوبها
إذ تلك ريح زعزع نكباؤها الوت بهم عن رشدهم بنكوبها
غدت الورى صرعى كأن عذابها الصهباء يسكر مره كعذيبها
عجباً فهل غفلت لخبث مهبّها أم هل ترى قد حان وقت هبوبها
يا غافلين تنبهوا من رقدة طالت لسعد الوحش فى تأديبها
فيها قد افترستكموا مذ كشرت عن شر انياب لهول نيبيها

هيانهضوا ، وبطردها اجتهدوا فقـــد ساد الدمار وعم من تخريبها
أى لاأبالكم ، اخلعوا الأنيار إذ جارت على أعناقكم بلثوبها
وليحكم الجمهور من عقلائه قوم تراعى خيرة كنسيبها
ولتستوِ كل الحقوق تعادلا فيعود صوت قصيرها كاريبها
حتى ترى كل الورى فوق الثرى بالأمن يرعى شاتها مع ديبها

عبد الرحمن الكواكبي

١٨٤٩ – ١٩٠٢

فكرة الالتزام فى الأدب ـ يقظة الشرق وأثر المفكرين
فى يقظته ـ الصراع بين دعاة الحرية وحماة العبودية ـ
نشأة الكواكبي ـ خصائصه ونزعاته ـ ثقافته ـ
الوظائف التى شغلها ـ عمله فى الصحافة ـ
مقارعته الاستبداد ـ سجنه ـ فراره
إلى مصر ـ دعوته إلى تحرير
العرب ـ كتبه ـ نهايته

فكرة « الالتزام فى الأدب » التى اشاعتها الوجودية والتى تفرض على الأديب أن لا يكتب تجربة ذاته فقط بل تجارب مجتمعه ، أى أن لا يكون فى منأى عن هذا المجتمع بل عليه أن يعيش فى صميمه وأن يغوص إلى أعماق مشاكله فيعبر عنها بحرارة وصدق .

أن هذه الفكرة التى يعالجها الأباء المتحررون فى أيامنا هـــذه بروح ثورية عامة ، ويرون فى معالجتها وأثارتها ضرورة من الضرورات القصوى للأمة العربية . . ولا سيما والشرق العربى اليوم فى طور بعثه وفى انتفاضته الكبرى للتخلص من رواسب الماضى وعنعناته البالية وتحطيم هذه الأصفاد التى أحكم رابطها المستعمرون — أقول أن فكرة الالتزام هذه — وهى بدعة الأدب اليوم قد عالجها عبد الرحمن الكواكبي قبل نصف قرن — قلت عالجها ومن حقى أن أقول عاشها . .

وقد يكون هذا الأديب الثورى والمفكر الحر أول أديب عربى عاش هذه التجربة وكتب فصولها ومآسيها بحرقة وألم ، وبجرأة وإندفاع .

وقد لا يعرف الكثيرون أن الكواكبي بدأ حياته السياسية عن طريق الأدب ، فكتب ونظم ، وحاول حتى الشعر المنثور والشعر الحر المنطلق — وشعره هذا ذو لون قومى صارخ — ثم دخل غمار الصحافة فكان يقارع الإستبداد دون خوف أووجل ، وكان بحق ، فى تلك الفترة من الزمن ، أول أديب عربى الزم نفسه والزم أدبه أن يكون أداة للنهوض بمجتمعه .

هذا الأديب الحر الذى جعل الأدب وسيلته للنهوض بمجتمعه وبوطنه الكبير والذى طارت شهرته بكتابيه « طبائع الإستبداد » و « أم القرى » هو موضوع حديثنا اليوم .

— ٢ —

عرف الشرق العربى فى منتصف القرن التاسع عشر ، صفوة من أحرار الفكر أخذوا على عاتقهم أن ينهضوا بأوطانهم إلى ذروة المجد وأن يفكوا عنها الأغلال والاصفاد ، وأن يحرروها من العبودية والأسر ، فكان جهادهم مقرونا بالمصاعب والأهوال ، وبالمنافى والسجون ، وظلوا فى جهادهم يناضلون إلى آخر رمق من حياتهم بالرغم من جميع الكارثات التى أنصبت عليهم ، وفى طليعة هؤلاء المفكرين الأحرار السيد الكواكبى الذى سار على نفس النهج الذى سار عليه جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومصطفى كامل ومن إليهم من القادة والهداة .

نشأ الكواكبى فى بيئة ضيقة لا يتسع نطاقها للعمل الحر . . وكان منذ نشأته الأولى ثورة مشتعلة ، فحاول الإصلاح فى موطنه عن طريق الكتابة على صفحات الجرائد .. ولكن قيود العهد الحميدى كانت ثقيلة ، وكان أعوان عبد الحميد ورجاله يحاسبون المرء حتى على الهمس . نعم ، نشأ هذا المفكر الحر فى بيئة كانت تموج بالدسائس والظلمات بينما كان العالم ـ أريد عالم الغرب مثلا ـ قد تحرر أو كاد من ظلمات القرون الوسطى . .

لقد كان الغرب فى يقظة عارمة ، بينما كان الشرق لا يزال يغط فى نوم عميق . . وقد آلم الكواكبى أن يكون وطنه فى هذه الحالة ، وأن يكون قومه العرب ـ وهم من العزة والرفعة والماضى الذهبى فى الاوج ـ آلمه أن يكونوا محكومين ـ ليس لهم كيان ، قد امحت شخصيتهم أو كادت ، فلا يبدعون كما كان يبدع اسلافهم ، فصرخ صرخاته المدوية يهيب بأبناء قومه أن يفيقوا وأن يجمعوا شتات شملهم ، وأن يعملوا متحدين على التحرر والنهوض وفك الاصفاد ليتاح لهم السير مع الأمم القوية الحر، إذ لا يجوز للأمة العربية فى اعتقاده أن تظل محكومة فى عصر انبثقت فيه الحريات وشعت أضواؤها على العالم اجمع .

كان الكواكبي فى تلك الفترة المظلمة من حياة الشرق ، كالنجم الذى يهدى الضالين ، كان من أولئك الرواد المصلحين الذين حملوا علم الثورة وساروا فى الطليعة غير هيابين ولا وجلين ، همه أن يهز الوسنانين ويوقظ النائمين ، وكانت مقالاته وكانت صرخاته مدوية مثيرة ، كثيراً ما اقلقت الطغاة وارعبت الحكام الذين كانوا يلجئون إلى أدنأ الوسائل لمحاربة تلك الفكر وخنق ذلك الصوت الداوى كلما جلجل صداه . .

وكانت حياته صراعاً مع الولاة الأتراك . فما يكاد يتولى إصدار جريدة ليعبر عن رأيه وليفصح عن ميوله وميول الشعب العربى حتى يكون نصيبها التعطيل ومصيره السجن .

وقد ظل سنوات طوالا يصارع هذه الألوان المرهقة من الحياة دفاعاً عن الحرية ، وحرية قومه بصورة خاصة — يصارعها بنفس حرة أبية لا تعرف الونى أو التخاذل ، وما زال إلى أن اضطر أخيرا بعد أن كادت الدسائس والوشايات تصرعه وتقضى عليه — اضطر أن يهجر وطنه العزيز — إلى مصر ، وهنا استطاع أن يعبر عن آرائه بدون خوف ، وكانت آراؤه لزمنها أشبه بوقع القنابل على رؤس الحكام ، وقد انضم إلى تلك الزمرة الكريمة التى كان يقودها الأفغانى ومحمد عبده فكان الكواكبي يعمل معهم يداً بيد وغايتهم المثلى النهوض بالشرق وتخليصه من عبودية الجهالات ومطامع المستعمرين .

ولما كان الكواكبي صاحب فكرة ورسالة فقد كانت أهدافه من دعوته أن يحرر العرب أنفسهم من الظلم والظلمات ، من الجهل والخرافات ، من الخوف والذل ، ومن الخنوع والموبقات ، فدعاهم إلى الايمان بقداسة الحرية — أعظم رسالة فى حياة الشعوب — وإن يحطموا الأصفاد والقيود التى تعترض سبيلهم وأن يسيروا بخطوات المارد فى سبيل الرقى والعلم والتطور . ذلك لأن الكواكبي من القائلين بأن لا سيادة لأمة من الأمم بالجهل بل بالعلم وبعلم العصر الذى تعيش فى صميمه .

وهو يُرجع جميع النكبات التى نزلت بالأمة العربية إلى روح الاستبداد المتأصلة فى نفوس الحاكمين ، وقد آمن إيماناً مطلقاً بأن الاستبداد هو رأس الثورة التى نزلت بالأمة العربية وأنه لا يتاح لها أن تتحرر دون أن تقتلع هذه المفاسد من جذورها . ولهذا تعالت صيحاته فى هذا الصدد فجاءت كلماته عن الحرية جذوة ملتهبة أثارت فى النفوس روح الانطلاق والتمرد .. وهذا ما أرغب الحكام العثمانيين الذين عملوا شتى الوسائل لإخفات صوته ، بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى ، فقد منّوه بالمناصب الرفيعة ولما أخفقوا اضطهدوه فذهبت محاولاتهم بدداً .. ثم لجأوا إلى أدنأ الوسائل — إلى إلصاق شتى التهم التى تدينه وتقذف به إلى غيابات السجن طوال حياته . . ولكن ذكاءه تغلب على دسائسهم واستطاع أن يفلت الأسد من القفص — إلى وطن يتمتع فيه المفكرون بالحرية فسافر إلى مصر، كما أشرنا ، وهناك أخذ يعمل على تحقيق رسالته بما كان ينشره على صفحات جرائدها من مقالات ثورية كان لها وقعها الكبير فى النفوس .

ومن مصر قام برحلة جال فيها شتى أقطار الشرق حيث استطاع أن يثير الأفهام ويلهب النفوس بحق العرب فى الحياة .

واستطاعت كلماته التى ظنها البعض صيحة فى واد — استطاعت أن تذهب بالعروش والتيجان .

وهكذا ، فقد لعب هذا المفكر العربى الحر أكبر دور فى تاريخ الحياة السياسية للأمة العربية فى منتصف القرن التاسع عشر حين رسم فى كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » مناهج واضحة ليقظة أمة وتطور حياة .. بل رسم الخطوط الأولى للامبراطورية العربية التى لا تزال الحلم المنشود لكل عربى حر . .

* * *

بعد هذه التوطئة أقول إن من حق الأدب علينا ونحن نؤرخ هذه الفترة من حياة حلب الأدبية وكان الكواكبى من أبرز شخصيات تلك الفترة وكان

الأدب وسيلته للسياسة التحررية - نعم ، من حق الأدب علينا أن نؤرخ سيرته إلى جانب من نعرض إلى تاريخ حياتهم لإبراز تلك الصفحات من تاريخ حلب الأدبى .

— ٣ —

ولد السيد عبدالرحمن الكواكبي من أبوين كريمين فى الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ١٢٦٥هـ — ١٨٤٩م — أى قدمر مايقرب من نيّف ومئة سنة على ولادته ، وقد تعلم القراءة والكتابة فى المدارس الابتدائية — وهى المعروفة بالكتاتيب لذلك العهد — وبعد أن استوفى حظه منها استحضر له والده أستاذاً خاصاً لتعليمه التركية والفارسيه ، وكانت اللغة الرسمية للدولة فبرع بها ، ثم انتسب إلى المدرسة الكواكبية المنسوبة إلى أسرته — حيث درس العلوم العربية والفقه والمنطق .. وكانت فى نفسه هذه النزعة للإحاطة بشتى العلوم فعكف على دراسة الرياضة والطبيعة بالمراجعة والدرس على بعض الأساتذة وكان ذكاؤه الحاد من العوامل التى جعلته يحيط إحاطة شاملة بالكثير من فروع العلوم وشتى أنماط الثقافة .. وعرف منذ صغره بالتفوق وبالكثير من السجايا الكريمة .

ويصف لنا الشيخ كامل الغزى مؤرخ حلب وصديق الفقيد بأنه كان منذ حداثة سنه تلمح فى محياه مخائل النجابة والشهامة وعلو الجنان ، ويزيد على ذلك بقوله « كان سخى الطبع ، لا قيمة عنده للمال ، ولوعا بالتفضل على أقرانه وخلانه ، لا يرضى أن يسبقه بالبذل عليهم غيره ، يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة ، ويرى التلبس بهذه الخلال الذميمة دناءة وغدراً وخوراً فى الطبع ، وكانت نفسه العزيزة تأبى عليه الخضوع لأهل المجد الباطل ، ولا يرى شيئاً يطفىء نار غضبه منهم أفضل من قهرهم وإذلالهم .

بهذه الكلمات الموجزة ذات المعانى الكبيرة يصف الأستاذ الغزى صاحب «كتاب نهر الذهب فى تاريخ حلب — وهو رفيقه فى الدراسة وخدينه فى الحياة — نشأة السيد الكواكبي وطرفاً من خلقه وسجاياه. ونلمس من هذه الكلمات أن الكواكبي كان منذ حداثته ، ذا صفات مرموقة اخصها أنفته وكرمه وسخاؤه وحدة طبعه ، مع نزوع إلى الحرية ؛ وإيمان بالمثل العليا ، فما كاد يتجاوز دور الطفولة إلى عهد الشباب حتى لفتت هذه المواهب أنظار كبار رجال الدولة فى حلب فعين وهو فى الثامنة والعشرين من عمره محرراً فى الجريدة الرسمية — جريدة الفرات — وكانت تصدر بالعربية والتركية ، وإذ كان الكواكبي يجيد اللغتين فقد وقع الاختيار عليه للقيام بهذه المهمة وحدد راتبه الشهرى بثمانى ليرات عثمانية ذهباً . وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمعدل الرواتب فى ذلك العصر ، وكأن الدولة أرادت بإسنادها هذا العمل الرسمى إلى السيد الكواكبي أن تشترى قلمه ، وأن تكم فاه ، ولكن ظنونها ذهبت بدداً ، ولم يطق العمل فى الجريدة الرسمية التى تلزمه أشياء تتنافى وطبعه ومنازعه ، وسرعان ما ترك العمل فى صحيفة الحكومة وانصرف للأعمال الحرة . .

وكان لاعتزاله العمل الحكومى أثره فى نفس رجال الحكم وخشوا أن يفلت من أيديهم . وقدروا ما سيكون لنشاطه وهو غير مقيد من أثر فى إلهاب النفوس . فاحتالوا عليه وأعادوه إلى البيئة الرسمية . وعينوه فى ديوان المعارف ثم نقلوه إلى كتابة العدل فمديرية التنفيذ ، فمديرية مطبعة الولاية ، ثم إلى رئاسة بلدية حلب ، فرئاسة كتابة المحكمة الشرعية ، فمفتشية انحصار الدخان فرئاسة غرفة التجارة فرئاسة المصرف الزراعى ، وقد تعجبون من هذا التنقل من فرع إلى فرع ومن دائرة إلى أخرى ، ولكن عجبكم سيبطل إذا عرفتم أنه ما يكاد يتسلم دائرة من الدوائر حتى يباشر الاصلاح فيقلب عاليها سافلها ، ويعمل على تبديل أوضاعها ، أى كان فى جميع الرئاسات التى تقلدها ذلك المصلح الثائر على الكثير من القيود

والطرق المعوجة ، فكان يصطدم مع أولى الأمر . وكان خلافه معهم على سنن الاصلاح هو الذى يحدوهم إلى نقله من دائرة إلى أخرى وما زالوا إلى أن قرروا نقله من حلب إلى راشيا فعينوه قاضياً شرعياً فيها ، أى أرادوا نفيه بصورة غير مباشرة للتخلص من نزعاته الاصلاحية وميوله الحرة ...

ومن يمعن النظر فى الوظائف التى شغلها وهى ذات اتجاهات مختلفة من التجارة إلى الشريعة ومن الكتابة والتحرير إلى مفتشية حصر الدخان مثلا لا يجد تعليل ذلك إلى أن كفايته الذهنية كانت قابلة لاستيعاب كل عمل وهذا شأن الأذكياء الذين لا يهابون المسئوليات بل يقدمون على العمل بجنان قوى للوصول به إلى أسمى غاياته . . وكان الكواكبى من هذا النفر.

وقد كان تمسكه بوجهات نظره ، ومحاولته التجديد والاصلاح من الأمور التى أثارت عليه حفيظة الولاة ورجال الدولة فناصبوه العداء واتهموه بتهم كثيرة كانت تودى بحياته .

على أن أبرز أعماله فى بلدته هو اشتغاله بالصحافة وهو أول صحفى مارس هذه المهنة فى حلب فقد أصدر جريدة الشهباء سنة ١٢٩٣ هـ وجعلها منبراً عالياً للصيحات الحرة . . ولكن أنى لهذه الصيحات أن تأخذ طريقها إلى قلوب الجماهير والحرية مكبلة بالسلاسل — والكابوس الحميدى يحاسب المرء على الكلمة والهمسة ، لذلك لم تعش الجريدة طويلا فقد عطلتها الحكومة ،واستطاع بعدسنوات أن يصدر جريدة ثانية اسمها ، الاعتدال ولم يكد يصدر منها عدة أعداد حتى أقفلتها الحكومة ، وقد جعل منهاجها كزميلتها وهو التنديد بالسياسة الغاشمة التى تنتهجها الدولة ، وظلت الميول الإصلاحية حبيسة فى نفسه بعد تعطيل الجريدتين إلى أن أتيح لها أن تنطلق تحت سماء مصر والتى احتواها كتابه « طبائع الاستبداد» وهو فصول ومقالات نشرت متتابعة على صفحات «المؤيد» ـ كبرى جرائد مصر والشرق أنذاك ـ .

— ٤ —

لقد كان الكواكبي من الاذكياء الذين سبقوا زمنهم ، فحاول إصلاح الدولة فى بيئة لم تكن لتسمح له أن يبوح بآرائه حرة طليقة ، فوقف الحكام له بالمرصاد وكان بينه وبينهم منازعات وخصومات . . ولا يتسع المجال لسرد الكثير من هذه الحوادث التى كانت من أسباب هجرته وكلها تنتهى عند هذه الغاية التى استهدفها وهى مناصبة العتاة المستبدين من الولاة الذين كانوا يحافظون على ظلمات العهد الحميدى بأبشع صوره . . وقد أتهم أتهامات باطلة وزج فى السجون وحوكم وحكم عليه ، كما أتهم بالعمل مع الأجنبى ضد الدولة العثمانية ، وكانت جميع هذه التهم باطلة وهى من عمل الوشاة والجواسيس ، ولما ضاق ذرعا بهذا الجو الموبؤ بالوشايات قرر النزوح عن حلب . .

وقبل أن نشير إلى قصة فراره نلخّص الحادثة التى أتهم بها ودخل من أجلها السجن وكاد يبقى فى ظلماته سنوات طويلة لولا العناية الإلهية .

* * *

فى سنة ١٣٠٧ هـ عينت الدولة عارف باشا أحد كبار رجالات الدور الحميدى والياً على حلب ، وكان سيء الإدارة منهمكا بالرشى ، يقول الشيخ الغزى الذى روى هذه القصة :

« أن السيد الكواكبي تسلط عليه ، أى على الوالى جريا على منهاجه الذى كان ينتهجه مع أمثاله من الولاة فطفق يتتبع سقطاته ويفضح عوراته ، ويندد به فى صحف الآستانة وبيروت ، ويكتب بمساوئه إلى المراجع العليا حتى نكد عيشه وسلب راحته وصار الوالى يتمنى إن لو ظفر به بسقطة يتسلط بها عليه لينتقم منه فلم يظفر له بشيء من ذلك :

« وحدث فى يوم ما أن قنصل دولة إيطاليا فى حلب السنيور « اتريكوويتو » بينما كان راكبا عربته ، مارا فى محلة الجلوم التى هى محلة

السيد عبد الرحمن الكواكبي إذ وقع على ظهره حجر عاثر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً بحيث اضطرته أن يعود إلى منزله وأن يرسل إلى الوالى تقريرا يطلب فيه منه البحث عن الضارب واجراء العقوبة القانونية » .

هـذه الحادثة فتحت للوالى بابا يلج منه إلى الصاق هذه الجناية بالسيد الكواكبي ولاسيما وقد كان وقوع الحادثة فى محلته ، وعلى مقربة من داره ، وفى الحال أوعز إلى بعض شياطينه أن يرفع إليه تقريرا فحواه أن الكواكبي منضم إلى عصابة أرمنية ، وكانت ثورات الأرمن مشتعلة - وأنه قبل يومين أغرى بعض الناس فرشق قنصل إيطاليا بحجر أصابت ظهره ، محاولا بذلك أحداث ثورة بين الأرمن والمسلمين بحلب . . وحالما قدمت هذه الأخبارية إلى الوالى أمر رئيس الشرطة بالذهاب إلى منزل الكواكبي والدخول إليه قسرا وتفتيش مكتبته وخزانة أوراقه . فتوجه رئيس الشرطة على الفور إلى منزل الكواكبي وكان غائبا عنه فدخله ومعه طائفة من إتباعه وقصدوا خزانة كتبه والقوا فيها ورقة مزورة أستحضروها معهم ، وهى تركية العبارة محررة بحروف أرمنية مضطربة التركيب يفهم منها أن احد زعماء الأرمن يعد السيد الكواكبي بأنه سيقوم عما قريب باحداث ثورة بين المسلمين والأرمن فى حلب ، فقبض الشرطى على هذه الورقة وطار بها إلى الوالى فتسلمها منه ، وفى الحال أصدر أمره بإلقاء القبض على الكواكبي وزجه فى السجن . . وما أسرع ما أخرج من السجن مخفورا وأجلس على كرسى المحكمة لاصدار الحكم عليه ، وكان رئيس المحكمة رجلا متهالكا على التقريب إلى الولاة وكبار الموظفين فحكم على السيد الكواكبي بالإعدام على أن يكون الحكم قابلا للاستئناف ثم التمييز فتلقى السيد الكواكبي الحكم بالرضا وشرع يطلب من المراجع العليا أن تكون محاكمته التمييزية فى محاكم بيروت لعداوة شخصية بينه وبين الوالى فأجيب طلبه ونقل مع أوراق الدعوى إلى محكمة بيروت فتحقق لها أن الدعوى مزورة من أساسها ولا أصل لها ، وقد برأته وعاد إلى وطنه وهو أكثر اعتزازا بدعوته إلى الحق ومناصبته العتاة المستبدين » :

— ٥ —

لقد مل المقام فى بلدته وهو فى هذا الجو الموبوء بالدسائس والوشايات فوطن نفسه على الهجرة ولكن إلى أين ؟

قال لنا الأستاذ الغزى ، وهو أوثق من يروى سيرته للصداقة الوثيقة التى كانت بينهما :

« . . . وقبل سفره بيوم واحد زارنى فى منزلى يودعنى ، وأخبرنى أنه عازم فى غده على السفر لتبديل نيابته — أى نيابة قضاء راشياً — وكنت عالماً بكتابه « جمعيه أم القرى » وقد شعرت منه العزم على طبعه فوقع فى نفسى أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره إذ لا يمكنه أن يطبعه فى غيرها فحذرته من ذلك وقلت له إياك ياأخى والسفر إلى مصر ، فانك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع إلى وطنك لأنك تعدّ فى الحال من الطائفة المعروفة باسم « جون تورك » لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة لما اشتهرت وعرفت به من شدة المعارضة وانتقاد الأحوال الحاضرة . . فقال لم اعزم إلا على السفر إلى استانبول للغرض الذى ذكرته لك ، وقد كتم سر سفره حتى عن أعز أصدقائه . . . ثم ودعنى ومضى وأنا أسأل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته وأن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده ، وكانت مبارحته حلب فى أوائل سنة ١٣١٦ هـ ، وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوما لم نشعر إلا وصدى مقالاته فى صحف مصر ، وأخذت جريدة « المؤيد » تنشر تفرقة كتابه « طبائع الاستبداد » الذى لم يطلعنا عليه مطلقاً بخلاف كتاب « جميعة أم القرى » فقد اطلعنا عليه مراراً . . ثم أنه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما فى « المابين السلطانى » ضجة عظيمة وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية بيد أنهما رغما عن ذلك كله وصلا إلى حلب بصورة خفية وقرأناهما فى سرنا المرة بعد المرة »

* * *

وفى مصر شعر أنه فى وطن عربى حر ، فأخذ يرسل صيحاته المدوية التى انتظمها كتابه « طبائع الاستبداد »

ويصف لنا الأستاذ ابراهيم سليم النجار الفترة التى قضاها الكواكبى فى مصر بقوله :

اتصل المرحوم الكواكبى بالمرحوم الشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » على يد السيد رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود . فكنا نجتمع كل يوم فى حلقتنا المعروفة فى القاهره ، فكنت والسيد رشيد رضا والكواكبى ورفيق العظم والأستاذ كرد على نؤلف حلقة مستقلة فلا نفترق ليلة إلا لنعود إلى الإجتماع فى الغد ، وحدث أن صدر « المؤيد » ذات يوم يحمل إلى قرائه كتابا غريب الشكل واللهجة والأسلوب والموضوع لم يسبق للمقطم أو سواه فى الصحف التى عرفت يومئذ بكتاباتها الحرة ان كتبت مثله فلفت الكتاب إليه الأنظار وشغل الخواطر وأخذت الدعوة الحرة تلبس شكلا جديا . وأخذ الكتاب والقراء يتساءلون عن صاحب هذا الأثر البديع فى جريدة « المؤيد » التى سلكت مسلك الصحف الحرة على رغم اتصالها الشديد بالخديوى عباس الثانى وبالآستانه ويقولون « ترى من يكون صاحب كتاب طبائع الإستبداد » ؟ فاعتقد الجمهور ، لأول وهلة ، أنه من إنتاج قلم وتفكير الشيخ محمد عبده لولا الجفاء الذى كان مستحكما بين صاحب « المؤيد » وبينه حتى قبل حادثة « الموقوزة » ولولا بعد الشيخ محمد عبده رحمه الله عن كل من يتصل بالخديوى قريباً أو بعيداً فلم تمض أيام على إنتشار ذلك الكتاب فى « المؤيد » حتى عرف الكتاب الكواكبى فوضعوه دفعة واحدة فى الدرجة الأولى بين رجال التفكير والقلم وانزلوه منزلة الشيخ محمد عبده فعرفوا منزلته واعلوا قدره .

— ٦ —

هذا الأديب الثورى الذى ألزم نفسه أن ينهض بأمته وأن يحررها من

العبودية والخنوع ، وأن يقوض دعائم المستبدين ويهز عروشهم ، والذى انتفض على الأوضاع الفاسدة بشتى مظاهرها ومختلف الوانها — إن هذا الأديب الذى لم يحتمل الفساد المستشرى وأبت نفسه الذل والخضوع للسلطان الجائر قد عبر عن ميوله وآرائه وعما يحسه قومه ويئود ظهر مجتمعه — عبر عن كل ذلك فى كتابه « طبائع الاستبداد » أصدق تعبير . . وإننا لنقرأ فى كل جملة بل فى كل كلمة من كلماته نفحة من نفحات الحرية . . فكان أدبه أدب الرجل الثائر الذى ينهج نهج المصلحين الذين يريدون لقومهم حياة حرة كريمة .

كان يصرخ من الأعماق :

« الاستبدد اشد وطأة من الوباء . . أكثر هولا من الحريق . . أعظم تخريبا من السيل . . أذل للنفوس من السؤال .

« الاستبداد يقلب الحقائق فى الأذهان حتى إنه قد مكّن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييدا لاستبدادهم ، وقد وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة ، وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكى المتظلم مفسد ، والنبيه المدقق ملحد ، والخامل المسكين هو الصالح الأمين وقد اتبع الاستبداد فى تسميته النصح فضولا ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتوا ، والحمية جنونا ، والانسانية حماقة ، والرحمة مرضا كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياســـة والتحيل كياسة ، والدناءة لطف ، والنذالة دماثة !

« قد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعى من طلب الترقى إلى طلب التسفل بحيث لو دفعت إلى الرفعة لابت وتألمت كما يتألم إلا جهر من النور ، وإذا ألزمت بالحرية تشقى وربما تضنى كالبهائم الأهلية إذا أطلق سراحها ، وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها .

« المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بارادتهم ويحكم بهواه لا بشريعتهم . ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته .

« المستبد عدو الحق . . عدو الحرية وقاتلهما . .

« المستبد يتجاوز الحد لأنه لا يرى حاجزا فلو رأى الظالم على جانب المظلوم سيفا لما أقدم على الظلم . . كما قيل الاستعداد للحرب يمنع الحرب .

« المستبد إنسان مستعد بالفطرة للخير والشر . . فعلى الرعية أن تكون مستعدة لأن تقول لا أريد الشر ، ومستعدة لأن تعرف ما هو الخير وما هو الشر . . مستعدة لأن تتبع القول بالفعل ، والقول الذى ليس وراءه فعل هو موجة فى الهواء ، على أن مجرد الاستعداد للعمل عمل يكفى شر الاستبداد » .

وحين يتحدث عن الاستبداد والعلم يقول :

« إن بين الاثنين عداوة وحربا دائمة وطرادا مستمرا ، يسعى العلماء فى نشر العلم ويجتهد المستبدون فى إطفاء نوره ، والطرفان يتجانبان العوام . . ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا ، وهم الذين متى تعلموا قالوا ومتى قالوا فعلوا . .

« والخلاصة أن الاستبداد والعلم ضدان متغالبان ، فكل إدارة مستعبدة تسعى جهدها فى إطفاء نور العلم وحصر الرعية فى حلك الجهل ، وكذلك بعض العلماء الذين ينبتون فى مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم فى تنوير الناس ، والغالب أن رجال الاستبداد يطاردونهم وينكلون بهم والسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره .

« الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ويلعب بالدين فيفسده ويحارب العلم فيفسده ويحارب المجد فيفسده . .

« لو كان الاستبداد رجلا وأراد أن يحتسب وينتسب لقال :

أنا الشر ، وأبى الظلم ، وأمى الأساءة ، وأخى الغدر ، وأختى المسكنة ، وعمى الضر ، وخالى الذل ، وابنى الفقر ، وبنتى البطالة ، ووطنى الخراب ، وعيشتى الجهالة » . .

وبعد فيطول بنا المجال لو رحنا نقتطف هذه الكلمات الذهبية التى جاءت عرضا فى الفصول التى كتبها محللا طبيعة الاستبداد وطغيان المستبدين وقد اختتم هذه الفصول بصيحات من الأعماق أهاب بالشرق أن يستيقظ ويثور ليؤدى رسالته السامية التى أداها أسلافه للحضارة ومن هذه الصيحات قوله :

« ياقوم :

ينازعنى والله الشعور هل موقنى هذا فى جمع حى أحييه بالسلام أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة . .

* * *

« ياقوم :

لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين . . بل أنتم بين برزخ يسمى التنبت ويصح تشبيهه بالموت . .

* * *

« يا قوم :

هداكم الله . . ما هذا الفساد المديد والناس فى نعيم مقيم وعز كريم أفلا تنظرون . . ما هذا التأخر وقد سبقتكم الأقوام ألوف مراحل . .

* * *

« ياقوم :

وقاكم الله من الشر .. أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدرة ، مبتلون بداء التقليد والتبعية فى كل فكر وعمل . . وبداء الحرص على كل

عتيق .. فلماذا تقلدون أجدادكم فى الخرافات والأمور السافلات ولا تقلدونهم فى محامدهم ؟

أين الدين ؟ أين التربية ؟ أين الإحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المنعة ؟ أين الشهامة ؟ أين المساواة ؟ هل تسمعون أم أنتم نائمون ؟

* * *

ياقوم :

سامحكم الله ، لا تظلموا الأقدار وخافوا غيرة المنتقم الجبار . . ألم يخلقكم أحراراً لا يثقلكم غير النور والنسيم فأبيتم إلا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء .

. . .

« ياقوم :

جعلكم الله من المهتدين . . كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعا لله . وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الإخوان ، وأجدادكم ينامون الآن فى قبورهم مستوين أعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء ..

البهائم تود لو تنتصب قامتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم قوائم ..

النبات يطلب العلو ، وأنتم تطلبون الانخفاض .

لفظتكم الأرض لتكونوا على ظهرها وأنتم حريصون على أن تنغرسوا فى جوفها ..

فإن كانت هذه بغيتكم فأصبروا قليلا لتناموا طويلا .

بهذه الصيحات كان ينبه الشرق ويثيرة ويبذر فى حقوله بذوره الصالحة لينشأ أفراده على بغض الاستبداد وتقديس الحرية والإيمان بالمثل العليا .

— ٧ —

كان لظهور كتاب « طبائع الاستبداد » فى تلك الفترة من الزمن أثره فى نفوس الكثيرين ، وقد ذهب البعض إلى أن الكتاب منقول عن الإيطالية ، ومنهم من قال أنه منقول عن جان روسو ، وذهب غيرهم إلى أن هذه الآراء هى آراء بطل الحرية مدحت باشا إلى آخر ما ذهب إليه بعض المغرضين الموتورين الذين لا تهدأ ثائرة ضغائنهم إلا إذا جردوا أصحاب المواهب من مزاياهم وفضائلهم .. وقد رد كثيرون على هذه التهمة ومما قاله المرحوم الشيخ رشيد رضا صاحب المنار بهذا الصدد :

« وقد زعم زاعمون أن معظم ما فى هذا الكتاب مقتبس من كتاب لفيلسوف إيطالى ، ومن كان له عقل يميز بين أحوال الافرنج الإجتماعية وأحوالنا ، وذوقهم فى العلم وذوقنا يعلم أن هذا الوضع وضع حكم شرقى يقتبس علم الاجتماع والسياسة من حالة بلاده حتى كأنه يصورها تصويرا .. وإذا لاحظ مع ذلك أن هذا الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت فى «المؤيد» ثم مدها صاحبها من الأديم العكاظى وزاد فيها فكانت كتابا حافلا يتجلى له عمله الأول بصورة أوضح وأجلى ، وإذا علم بعد هذا كله أنه نقحه بعد الطبع فحذف منه قليلا ، وزاد فيه كثيراً يعلم علم اليقين أن ينبوع علم هذا الرجل صدره وأنه كان يزداد فى كل يوم فيضانا وتفجيراً ، نعم ، أنه قال فى مقدمته أن بعضه مما درسه وبعضه مما اقتبسه ، وأننا نعلم أنه لم يولد إنسان عالما ولكن فرقا عظيما بين من يحكى كلام غيره كآلة « الفونوغراف » وبين من يحكم عقله فى علوم الناس فيأخذ ما صح عنده وينبذ ما لا يصح ..

ويقول الأستاذ النجار بهذا الصدد :

« سبق لى أن قرأت فى شبابى كتاب « الكونتراسوسيال » لجان جاك روسو ثم انقطعت عن الرجوع إليه ، فلما قرأت كتاب « طبائع الإستبداد » أعاد إلى ذاكراتى كتاب الكاتب الأفرنسى العظيم ، ولو كان الشيخ العربى يعرف ولو قليلا اللغة الأفرنسية لاعتقدت بأنه أخذ عنه أو احتذى حذوه ولكن الحقيقية هى أن العقول النيرة والقلوب الكبيرة نيرة وكبيرة مهما اختلفت لغاتها وبلادها وأقاليمها .

ولو ملكت سلطة فى هذا الشرق العربى لأوجبت تدريس هذا الكتاب فى جميع المدارس لأنه ينشىء الشباب على حب الحرية ومقاومة الظلم والإستبداد أين كان مصدرها وعمن صدرا دون تعصب ذميم . ولطلبت ألوف النسخ منه ووزعتها على الناس فى هذه البلاد الضعيفة الخانعة المسكينة . . فى بعض الكتب شعاع من أرواح الأنبياء وقبس روحانى من اقباس السماء » .

والكتاب متداول بين أيدى الناس ، ولكنه فى طبع سقيم وأغلاط كثيرة منكرة . وكان ينوى ابنه الدكتور أسعد اعادة طبعه بعد أن يضيف إليه الخواطر والآراء التى سنحت لأبيه بعد رحلته الطويلة فى آسيا وإفريقيا والبلاد العربية والتى اضافها بخطه على هامش الطبعة الأولى والتى تؤلف ثلث الكتاب مضافا إليه الهوامش والمتون ..

ولا أعرف ما فعل الله بهذه النسخة المنقحة بيد المؤلف ؟ وهل يقوم أحد الأحفاد بما أهمله أبناؤه .

لا أعلم ..

ومن كتبه المتداولة كتاب « أم القرى » كتبه فى حلب قبل موته وقبل تطوافه فى مختلف بلاد الشرق الإسلامى :

يقول البحاثة أحمد أمين صاحب « فجر الإسلام » أما كتابه الثانى أى أم القرى — فأدل على الإبتكار وأوضح فى أظهار الشخصية ، يقف فيه من

المسلمين موقف الطبيب من المريض ، يفحص داءه ويتعرف أسبابه ويصف علاجه فى أسلوب قصصى جذاب ، تحدث فيه عن جمعية من المسلمين عقدت فى مكة حضرها ممثل أو أكثر لكل قطر اسلامى ، فعضو شامى ، وعضو اسكندرى ، ومصرى ومقدسى ويمنى وبصرى ونجدى ومدنى ومكى وتونسى وفاسى وانجليزى وروسى وكردى وتبريزى وتترى وفازانى وتركى وأفغانى وهندى وسندى وصينى ، وأسندت رياسة الجمعية للعضو المكى ، والسكرتارية للسيد الفراتى ، ويعنى به الكواكبى نفسه — واجتمعوا كلهم فى مكة قبيل الحج فى مكان متطرف فى مكة يتداولون فى حال المسلمين ، وكان أول اجتماع لهم فى ١٥ ذى القعدة ١٣١٦ هـ »[1] .

وقد انعقدت الجمعية ووضع الرئيس منهاج البحث ، وهو الكتمان وتناسى الاختلاف فى المذاهب، ثم التحرر من اليأس فى الاصلاح ، ويلخص برنامج هذا المؤتمر بحث موضع الداء فى المسلمين وأعراضه وجراثيمه ودوائه وكيفية استعماله ألخ . .

وقد أدار الحديث على لسان الجميع بأسلوب غاية فى الدقة والطلاوة ، صور فيه ما يشكو منه العالم الاسلامى وأسباب ذلهم بعد عزهم ، وتأخرهم بعد تقدمهم ، وفتورهم بعد يقظتهم ونهضتهم ، وقد رد الأسباب إلى عوامل دينية وعوامل سياسية وعوامل أخلاقية . .

فأهم الأسباب الدينية عقيدة الجبر ، ونشر ما يدعو إلى التزهيد فى الدنيا ، وترك السعى والعمل ، واختلاف المسلمين فرقاً وشيعاً ، وإضاعة سماحة الدين وتشديد الفقهاء المتأخرين، وإدخالهم فى تعاليمه الخرفات والأوهام — وعدم المطابقة بين القول والعمل فى الدين، وتهوين غلاة الصوفية شأن الدين وجعله لهواً ولعباً ، والتوسع فى تأويل النصوص ، والتحايل على التحرر من الواجبات، وإيهام الدجالين إن فى الدين اموراً سرية ، واعتقاد منافاة العلوم الحكمية

---

(١) فيض الخاطر ج ٦ ص ١٩٣ .

والعقلية للدين. وتطرق الشك إلى عقيدة التوحيد ، وتهاون العلماء فى تأييدها ، والغفلة عن حكم الجماعه والجمعة والحج . .

أما الاسباب السياسية فأهمها فى نظره : السياسة المجردة من المسئولية ، وحرمان الامة من حرية القول والعمل ، وفقدانها الامن والامل ، وفقد العدل التساوى فى الحقوق بين طبقات الامة ، وميل الامراء للعلماء المدلسين ، واعتبار العلم صدقة يحسن بها الامراء على الخاصة ، وإبعادهم للناصحين وتقريبهم المتملقين ، واستبداد الامراء وانغماسهم فى الترف ودواعى الشهوات .

والاسباب الاخلاقية التى دعت إلى الفتور هى « الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه ، واستيلاء اليأس على النفوس ، والاخلاد إلى الخمول ، وفساد التعليم وفساد النظام المالى وإهمال طلب الحقوق العامة جنباً ، وتفضيل الوظائف على الصنائع ، والتباعد عن المداولات فى الشئون العامة .

وزاد أشياء على ما سبق أهمها : الغفلة عن تنظيم شؤون الحياة وعدم توزيع الأعمال توزيعاً عادلا ، وعدم العناية بتعليم النساء وتهذيبهن ، وسقوط الهمة وداء التواكل .

ثم اقترح إنشاء جمعية دائمة تعنى بإصلاح المسلمين ، وتشرف على تنفيذ برنامجها فى الإصلاح ، وهذه الجمعية تؤلف من مائة عضو ، عشرة عاملون وعشرة مستشارون ، وثمانون مخريون ، ولا عدد للأعضاء المساعدين المحتسبين ، واشترط فى الأعضاء العاملين شروطا دقيقة من العفة والأمانة والإخلاص وسعة العلم والقدرة على التأثير وإمكان التفرغ للعمل لأغراض المؤتمر ، وجعل مركزها فى مكة ، ولها شعب فى الآستانة ومصر وعدن والشام وطهران وتفليس وكابل وكلكتا وسنغافوره وتونس ومراكش وغيرها ، والجمعية لا تكون تابعة لحكومة ما ، ولا تتقيد بمذهب دينى خاص ، ويكون شعارها « لا نعبد إلا الله » ، ويكون من أهم أغراضها تعميم التعليم بين المسلمين ، والترغيب فى العلوم والفنون النافعة ، وإيجاد المدارس العالية

يتخصص كل منها للتوسع فى فرع من فروع العلم ، وتوحيد أصول التعليم ، ووضع مناهج للرقى والأخلاق وتنفيذها ، وإنشاء مجلة شهرية للجمعية لتأييد أغراضها . .

ثم تعرض الكواكبي فى كتابه هذا إلى النزاع القائم بين الترك والعرب فى زمنه ، وناصر العرب على الترك ، ورأى أنهم أصلح للأخذ بزمام الدولة ، ووضع مشروعا لنظام الحكم بينه وأوضحه وانفض المؤتمر بعد أن اجتمع إثنى عشر اجتماعا وصل فيها إلى النتائج الآتية :

١ — المسلمين فى حالة فتور عام .

٢ — يجب تدارك هذا الفتور .

٣ — أسباب الفتور .

٤ — جرثومة الداء الجهل .

٥ — الدواء : تنوير الأفكار بالتعليم ، وإيقاظ الشوق للترقى وخصوصاً فى الناشئة .

٦ — تأسيس الجمعيات التى تقوم بهذا العلاج .

٧ — المكلفون بذلك كل قادر على عمل ، وخاصة نجباء الأمة من السراة والعلماء .

٨ — تشكيل الجمعية الكبرى لهذا الغرض ، ولتسم « جمعية تعليم الموحدين » .

هذا تلخيص موجز لكتاب أم القرى ، والكتاب كما يقول العلامة أحمد أمين رواية جدية ليس فيها غرام وغزل ، بل فيها غرام بالعالم الإسلامى يعانى فى سبيله ما يعانى المحب الهائم . ويود من صميم قلبه أن يصل محبوبه إلى أعلى درجات الكمال ، ويضحى من أجله بماله الذى ضيعه عليه الظلمة لتمسكه بالحق ، ويضحى بوطنه فيهجره لأنه لم يستطع أن يجهر برأيه فى حلب فجهر به فى مصر .[1]

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

(٩)

وقد كتب الكواكبي غير هذين الكتابين — كتاب « صحائف قريش » و « العظمة لله » .

يقول ابنه الدكتور أسعد عن كتاب « صحائف قريش » هذا الكتاب ألفه بعد طبع ونشر « أم القرى » وكان معدا للطبع ، ولكن حال دون ذلك سياحاته الطويلة ثم وقوع الوفاة الفجائية فصودر مع الأوراق المصادرة وأرسل هدية إلى السلطان ، وبحثت عنه فى أكثر دور الكتب الأهلية بالاستانة بعد إعلان الدستور وخلع السلطان فلم أعثر له على أثر . .

وكتاب « العظمة لله » أيضا لم يطبع وقد صودر مع أمثاله » .[١]

وغير هذين الكتابين اللذين فقدا ، فقد فقدت مجموعة مذكراته عن رحلته الكبيرة إلى مختلف بلاد العالم الإسلامى ، ونحن نعلم أنه قام برحلة طويلة إلى سواحل إفريقية الشرقية والجنوبية ومنها إلى الحبشة وسلطنه هرر الإسلامية والصومال ثم تابع رحلته إلى سواحل آسيا الجنوبية ، ودخل شبه الجزيرة العربية من سواحل المحيط الهندى ، وانتهى من هناك إلى كراتشى ثم إلى بومباى ومنها سافر إلى جاوه وسواحل الصين الجنوبية وبعدها إلى مسقط فسواحل بلاد العرب الشرقية فى البحر الأحمر وسواحل افريقيا الشمالية فركب الباخرة إلى برنديزى فى إيطاليا ومن هناك عاد إلى مصر .. وقد كان يدوّن كل يوم ما يشاهده من أحوال هذه الأمم على أوراق مبعثرة ليجمعها وينشرها فى أول فرصة ، وقد حال دون ذلك كما يقول ابنه الدكتور أسعد « وفاته الفجائية ومصادرة أوراقه من قبل هيئة مريبة بأيعاز من السلطان والمساعدة السرية من قبل السلطة المحلية » .[٢]

أن الكواكبي ، وهو أديب وصحفى ورجل فكر وزعيم من زعماء الاصلاح فى الشرق ، قد قام بهذه الرحلة الطويلة ليدرس وضع هذه الشعوب

---

(١) مجلة الحديث العدد ٩ ، ١٠ ، السنة ٢٦ ، عدد خاص عن الكواكبي .

(٢) المصدر السابق .

الإسلامية التى أصبحت نهبا مقسما للمستعمرين الاوربيين وللجهالات الطاغية .. وكأنه أراد ، بعد أن كتب كتابه الفريد « أم القرى » بلغة الخيال ـ أن يرى وضع تلك البلاد المزرى بعين الواقع والحقيقة .

وقد كتب انطباعاته الذاتية عن هذه الرحلة . وهى مذكرات وانطباعات لها قيمتها . . ولو سلمت من يد العبث لكان بين أيدينا اليوم أثمن رحلة كتبها عالم متحرر عن وضع تلك البلاد ووضع تلك الشعوب الاسلامية فى تلك الفترة من الزمن .

هذه صورة موجزة عن حياته وكتبه ورسالته . . والواقع أن الكواكبى كان صاحب رسالة حرة . . فمذ نشأته إلى أن طواه القدر ظل هذا المفكر الحر الذى يرسل صيحاته المدوية دون أن يهلع فؤاده أو يضطرب جنانه . .

ودعوته — دعوة المصلحين الأحرار — لم تذهب صيحة فى واد .. لا .. فقد كان لها أثرها المدوى . .

فقد استيقظ الشرق ، وهو يذكر اليوم لهداته المصلحين يدهم فى هذا البعث والانطلاق الذى تعيش البلاد العربية فى جوه اليقظ المتحفز .

والكواكبى من هؤلاء الهداة الذين عملوا فى سبيل رفع الغشاوة عن عقل الشرق ليهب ويستيقظ ويستعيد مجده السالف — ثم ليبدع ويعمل فى بناء دعائم الحضارة من جديد .

— ٩ —

ومن المؤسف أنه لم يعمر طويلا . . فقد مات فى اكتمال كهولته أى فى الخمسين من عمره . . ولو مد الله فى حياته لترك للجيل العربى الكثير من المؤلفات فى شتى قضايا الحياة والمجتمع . . ولكنه توفى فى سن مبكرة وفى ظروف غامضة اختلف الناس فى تأويلها ، ومنهم أصدقاؤه وذووه وأولاده الذين لا يزالون يعتقدون أن يداً مجرمة هى التى دست له السم ، وأن هذه اليد قد امتدت من قصر يلدز ، أو ممن يمت بصلة إليه من مواطنيه ،

ويذهبون إلى القول : أن للسيد أبي الهدى الصيادى يداً فى هذه النهاية ! . .

ويروى الشيخ صالح عيسى ، أحد أصدقاء الفقيد ، وكان مقيما فى مصر وهو موصوف بالصدق والأمانة ، وكان الكواكبي يأنس إليه ويجلس فى حانوته الأوقات الكثيرة . . قال هذا الرجل . . « وفى اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٩٣٠ هـ ورد على السيد عبد الرحمن من قبل حضرة الخديوى ، وكان مصطافاً فى الإسكندرية — بطاقة يدعوه لحضور ضيافة يقيمها هذا اليوم فى إحدى سراياته فى الإسكندرية فأجاب السيد الدعوة ، وركب قطار السرعة وسار إلى الإسكندرية وقابل الحضرة الخديوية وحضر ضيافته وعاد إلى مصر من يومه ، وفى الليل سهرنا معه فى مقهى استانبول مع جماعة من أدباء مصر وأفاضلها يزيد عددهم على العشرة قال : « وكنت جالساً جانب السيد عبد الرحمن . ولما صارت الساعة الرابعة من تلك الليلة هممت بالقيام ، لأن النوم غلبنى ، فاستدنانى إليه ، وكنت جالساً فى قربه وقال لى : أحس بوجع شديد فى خاصرتى اليسرى ، وهو إذا دام معى ساعة أخرى فلا شك أن يكون قاتلى . . فقلت له « لا بأس عليك إن شاء الله ، ثم انصرفت إلى منزلى ورقدت فى فراشى وما كاد شفق الفجر يلهب فحمة الليل إلا والباب يطرق على ، فنهضت من فراشى مسرعا وقلت : من بالباب ؟ فأجابنى الطارق بقوله : أنا . . إن أخاك والدى قد مات . . فدهشت من هذا الخبر المفاجىء . . وشعرت كأن الأرض قد دارت تحت قدمى . . وما كادت تبرز الشمس من مطلعها حتى انتشر الخبر . . وأقبل الأطباء من قبل حضرة الخديوى يفحصون جثة المتوفى فظهر لهم أنها فى رقودها الأبدى ، ثم شيعت جنازته على نفقة الخديوى ، ومشى فى موكبها طائفة كبيرة من العلماء والأدباء وذوى القدر ، واحتفل له السيد على يوسف صاحب « المؤيد » بثلاث ليال ، أحضر فيها القراء وأصاب الناس بموته دهشة عظيمة وحزن شديد وأسف ما عليه من مزيد » .

وقال الأستاذ النجار بهذا الصدد :

« جلست والفقيد والسيد رشيدرضا والأستاذ محمد كرد على ليلة الوفاة فى حلقتنا المعتادة فتحدثنا إلى نحو الساعة التاسعة ليلا حيث نهضنا فقصدت منزلى وذهب الاستاذ كرد على والكواكبي معا ، ولشد ما كانت دهشتى وحزنى فى صباح اليوم الثانى لنبأ تلفونى ينعى لى فيه الاستاذ كرد على — شيخنا الكبير بنوبة قلبية ضعيفة شعر بها فى نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .. ثم عاودته بعد ساعة ، رحمه الله ، لتقضى عليه ، ولا بدع ولا عجب ، فقد أضعفت النوازل قلبه فجعل الإسلام فى فؤاده ، والامة العربية فى رأسه ، والشرق على منكبيه » .

أبو الهدى الصيادى

١٨٤٩ - ١٩٠٩م

نشأته الأولى ـ شعر وتصوف وسياسة ـ من قرية خان شيخون
إلى استانبول عاصمة الخلافة ـ تمائم ورؤى ـ المرأة طريق
المجد ـ دسائس ووشايات ـ بينه وبين جمال الدين
الأفغاني ـ بينه وبين عزة العابد ـ إيمان عبد الحميد
بسلطانه الروحى ـ نهايته ـ من شعره الصوفى

من المفارقات العجيبة فى تاريخ حلب الأدبى أن أكثر الأدباء والشعراء الذين ظهروا فى منتصف القرن التاسع عشر — كان الأدب طريقهم إلى السياسة .

وحديثى اليوم عن رجل يختلف فى نهجه عن نهج من سبقوه ، وقد استطاع ، عن طريق الشعر ، أن يدخل البيوت ، ويتصل بمختلف الشخصيات ، وينتقل من بلد إلى بلد — وليس هـذا فقط بل استطاع بشعره وذكائه وسلوكه طريق التصوف أن يبلغ أرفع مقام فى السلطة العثمانية وأن يكون خدين السلطان وعشيره ، والآمر الناهى فى الكثير من شئون مملكته .

وقصته عجيبة من عجائب الدهر !!

إنه إنسان كبير المطامح ، ذو دهاء عجيب ، بدأ حياته بداية فيها لون من الذل والخنوع ، وإنتهى إلى أن بلغ أرفع ما يطمح به إنسان .

إن حديثى عن شاعر متصوف لعب دوراً خطيراً فى حياة السلطان عبد الحميد الثانى ، وكان له شأن يذكر فى سياسة الدولة العثمانية — أريد به السيد أبا الهدى الصيادى .

وأبدأ بكلمات عن نشأته فأقول ولد سنة ١٢٦٦ هـ فى خان شيخون — وهى قرية من أعمال حلب — تقع بين حماه والمعرة ، وقد عاش فى كنف أبيه الشيخ حسن وادى الذى يتصل نسبه بسيد الأقطاب الإمام الرفاعى .

وقد كان أبوه من مشايخ الطرق — من الذين يقيمون الأذكار ويستعطون أهل الجود والكرم .

ونشأ الفتى نشأة أبيه ، فلم يكد يشب عن الطوق ، وتظهر عليه علائم النجابة والذكاء حتى ترك خان شيخون — القرية التى ضاقت به — إلى حلب . .

جاءها كطالب علم ، فانتسب إلى إحدى مدارسها الدينية ، وتتلمذ على

مشايخها يأخذ عنهم الفقه والتفسير والحديث والأدب والأصول وكل ما يزيد فى ثقافته الدينية .

وبدأ حياته بنظم الشعر ، وظهر فى الأوساط الحلبية كشاعر مداح ، وشعره بالنسبة لاتجاهات الشعر فى القرن التاسع عشر ، على جانب عظيم من الرقة والجزالة ، فمن قوله فى الغزل :

ماهبّ نشر الصبَا إلا فؤادى صبا
والتفتت هِمتى لريم ذاك الخِبا
يا ساكناً مهجتى صيرتهـا كالهبا
رفقاً بذى لوعةٍ رأى الهوى مذهبا
لأحـل خديك قد يُعشق ورد الرُبى

وإنا لنقرأ فى دواوينه الكثير من القصائد الوجدية التى تفوح منها نسمات الشوق والحب ، كما نرى فى نثره هذا اللون الصوفى المشرق الذى يدنيه من أدب كبار المتصوفة .

فمن نثره يصف الفراق بقوله :

« الفراق عند النظريين سر لطيف يتصل بالقلب من طريق المخيلة ، فيمر بالحافظة ، ويقيم لباصرة القلب مشهداً تراه بعين رؤيتها ، فهى إذا رأته هزت القلب فاعترك عليه البث والحزن ، فتشوقت العين لرؤية ذلك المشهد وحيث لم تشهده للبعد والفراق ، بكت حينئذ العين ، وحنّت الروح ، وخفق القلب ، وانتشر سر ذلك الوجد والألم على الجوارح فألقى على العين رمداً وعلى الجسم كمداً ، ولا دواء لداء الفراق سوى التلاق ، غير أن كل مفارق لا يبقى فيمن فارقه ذلك الأثر ، إذ الروح لطيفه نورانية أمرية تحن إلى كل لطيفة معنوية أو مادية لا ينبعث منها الحسن إلى كثيف أصلا ، إذ الكثائف

سافلة واللطائف عالية ، وحنين الروح لمن يفارقه ذو الروح لا يكون إلا لمعنى فى المفارق لطيف ، تدركه الروح ولو أغفله الإنسان لما ينصب لمنافذ بصيرته من الحجب الكثائف ، ولما يكون فى لطيفة فكره من الضيق ، وفى حبل نور عقله من القصر حتى ينصرف لمجرد مرئى من مال أو جمال أو شأن أو حال لا حظ للروح به ، وأرباب الأفكار الوسيعة والعقول النيرة الطويلة ولو طرقتهم طوارق الميل للكثائف فهم يعلمون أن سر الحب للطائف ، يعرف ذلك العارف [١] » .

ونثره قليل بالنسبة لشعره الذى تعددت أغراضه وإن كان المدح والوجد هما أظهر ما فى شعره .. وهو إذ يحدد أغراض الشعر يقول :

« .. إن شعر العرب مع كثرة فروعه واختلاف معانيه ومبانيه ينقسم إلى أقسام فوصف الشجاعة والصبر فى مواطن الخوف يقال له حماسة ، ووصف الكرم والحسب والمجد القديم يقال له تقريظ ومدح وفخر ، وما يثنى به المرء بعد موته كذكر مناقبه وخصاله وشرفه وخلاله فهو رثاء ، وتأمين وذكر أخلاق الرجل أعنى الأخلاق الممدوحة كالإغضاء والحياء والإعراض عن الفحشاء والصفح عن عثرات الأخلاء فهو أدب ، ووصف الحسن والجمال واللطف والدلال فهو غزل ونسيب ، وذكر نقصان المرء وبخله ولؤمه وسوء خلقه وقبيح عرقه فهو هجاء ، ورفض الدنيا والحث على الرجوع إلى الله والتوكل عليه فهو زهد ، ورفض الدنيا على اختلاف أخبارها ورقائق أسرارها فهو ملح ووصف ونعت [٢] » .

ولا يتسع المجال لأن نعطى نماذج من شعره فى المواجدات والتصوف فقد انتشر فى الكثير من دواوينه وكلها تصور نهج الرجل الذى تجلبب بلباس الصوفيين وسلك طريقهم فأوصله هذا السلوك إلى أرفع مناصب الدولة ، وهذا ما سنعرض إليه فى حديثنا عن هذه الشخصية العجيبة .

---

(١) ديوان الدر المنتظم ص ١٣ .
(٢) المصدر السابق ٢٩٥ .

— ٢ —

اتخذ أبو الهدى الشعر ، كما قلنا ، وسيلته للظهور وفرض شخصيته على المجتمع الحلبي .

كان ينظم قصائد المدح ويطوف على البيوتات الكبيرة يمدح رجالات الدولة وأعيان البلد . .

وإذ كان من المتسببين إلى السيد الرفاعى ، فقد أجازه والده بطريقة أسلافه ، وألبسه الخرقة الشريفة بإذن ابن عمه الشيخ على افندى آل السيد خير الله الصيادى شيخ مشايخ حلب ، ثم أتم السلوك على يد شيخه الأجل السيد بهاء الدين الصيادى الشهير بالرواس[١] .

وعرف أبو الهدى ، بعد أن لبس جلباب التصوف ، بأنه « شيخ طريقة » و « دقاق مزهر »

وإذ كان للوظائف الدينية مقامها ، فقد طمحت نفسه للتولية على « خان شيخون » مسقط رأسه — وسعى إلى ذلك حتى وجهت إليه توجيهاً شرعياً بحكم محكمة ولاية سورية وذلك سنة ١٢٨٥ هـ ، وعمره يومئذ تسعة عشر عاما وقد نصت حجة التولية الشرعية على نسبه الشريف من الجهتين إلى الإمام الصيادى ابن السيد الرفاعى . وإلى الصحابى الشهير خالد ابن الوليد[٢] .

ولكن ما تولية خان شيخون هذه ؟

إن نفسه طامحة إلى أعظم من هذا .

لقد كانت بيوتات حلب ورجالها ينظرون إليه نظرة الهزء والسخرية ، ولا يعتبرونه أكثر من « شيخ طريقة » و « دقاق مزهر » و « شاعر مداح » يستجدى أهل الجود والكرم ، وكان يرى نفسه فى القمة نسبا وحسبا ، وكان

---

(١) الدر المنتظم ، مختصر براهيم الحكم ص ٢٩٩ .

(٢) نفس المصدر .

له من فرط ذكائه هذه الطموحات الواسعة . . ومدينة حلب لن تطمئن له هذه الطموحات ، لذلك فكر بالسفر إلى استانبول ، ولم يكن السفر فى ذلك العهد من السهولة كما هو اليوم . .

ولكن ما هى مشاق السفر إزاء ما كان يحلم به من السيطرة والمجد .

— ٣ —

شخص إلى استانبول ونزل أحد خاناتها ، ويصفه المرحوم محمد كرد على فى مذكراته نقلا عن أبيه بقوله :

« . . كنا بضعة تجار من الشاميين فى استانبول فى خان من خاناتها ، ولم تكن الفنادق يومئذ معروفة ، وكنا نتآلف ونشترك فى النفقة والسمر ، وكان يزورنا درويش شاب ، اسمر اللون ، جهورى الصوت ، تبدو إمارات الذكاء عليه ، وله جدائل يرخيها على ظهره ، يعتم بمئزر ، ويكتسى عباءة وقفطانا ، ويضرب بالدف ، وينشد أشعاراً على طريقة القوم ، وما كان يشاركنا فى النفقة ، ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة ، وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادى المعروف بأبى الهدى الصيادى الرفاعى » [١]

لقد شخص إلى استانبول وهذه حاله ، وأخذ يتصل بمن عرفهم من المرموقين من كبار الرجال فرأوا فيه فتى ألمعى الذكاء ، يفيض قلبه بالشعر ، ويفيض جنانه بنفحات التصوف ، فما كان منهم إلا أن عملوا على تحقيق بعض رغباته ، فوجهوا إليه « نقابة أشراف » قضاء جسر الشغور ، كما نال رتبة مولوية ازمير وسنه يومئذ ثلاث وعشرون سنة ، ثم ولى قاضيا على جسر الشغور ، مع احتفاظه بنقابة أشرافها ، وفى سنة ١٢٩١هـ عين «نقيب أشراف» عموم ولاية حلب ، وكان فى الخامسة والعشرين من عمره .

---

(١) المذكرات ج ص ٢٤٢ .

— ٤ —

هنا ، فى هذه الفترة ، وبعد أن حظى بعطف الدولة ، بدأت وجهات النظر تتبدل نحوه ، وأخذ الناس يتقربون إليه ، ويلتفون حوله ، ويزجون إليه التهنئة ، ويلتمسون منه العطف والرعاية ، ولاسيما بعد أن خصه الخليفة السلطان عبد العزيز خان براتب خاص ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل فوضه نقيب أشراف دار الخلافة النظر على نقباء ولايات سورية وديار بكر ، وبغداد والبصرة ، بل فوضه أن يعطى هو منشور النقابة لجميع النقباء فى ولاية حلب .

وفى سنة ١٢٩٤ هـ ، وجهت إليه « باية الحرمين الشريفين » بالإرادة السنية من لدن السلطان عبد الحميد .[١]

لقد بدأ الناس ينظرون إلى أبى الهدى نظرة تختلف ، كما قلنا ، عن النظرة القديمة . إنه الآن بموجب هذه المراسيم السلطانية ، وبحكم مركزه الجديد ، أصبح فى حلب وفى غير حلب ، من الأعلام المرموقين ، وأصبحت له الكلمة النافذة فى مختلف الشئون والقضايا العامة .

وقد بلغ ، فى هذه الفترة من حياته ، بعض امنياته ، ولكن مطامحه كانت أجل من هذا بكثير .

* * *

وكما اتخذ الشعر وسيلة للظهور ، فقد كانت « الصوفية » أو « الدروشة » والسير سيرة الأولياء الصالحين — وسيلة لمطامحه الكبيرة .

ولكن كيف نوآئم بين « الصوفية » ولحمتها الزهد والتقشف ، وبين هذه « الطمحات » التى تلتمسها نفسية شاعر يريد أن يبلغ سريعاً أرفع المناصب وأعلى المراتب ؟

---

(١) التاريخ الأوحد للغوث الرفاعى الأمجد ص ١٤١ .

نعم ، كيف نوفق بين رجل يريد أن يصل إلى القمة ويصل حياته بحياة رجال الدولة ، وبين « شيخ متصوف » يفرض فيه أن يترك بهارج الدنيا ويبتعد عن نعيم السلطان .

إن الطموح كثيراً ما يوقع الإنسان فى التناقض .

على أن الشيء الراهن أن نزعة الحياة كانت عنده أقوى من نزعة التقشف وقد اتخذ « المدائح النبوية » وسيلة لتحقيق مآربه . . وإذ كانت النزعات الدينية هى السائدة فى عصره ، وكان للدين قداسته وتأثيره فقد استغل هذه الظاهرة للوصول إلى أرفع مرتبة فى الإمبراطورية العثمانية التى كانت الشمس لا تغيب عن أطراف مملكتها . .

كان السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين ، فلم لا يكون الصيادى شيخه ووصيفه ؟ فهو ذو نسب ، وهو من الأشراف ، وهو من المتصوفة . وهو إلى كل هذا ، شاعر ذلق اللسان ونبيه من أذكياء البشر .

كيف الوصول إلى الأعتاب السلطانية ؟

لقد أعد قصائد المديح ليهنىء السلطان بعد أن وجهت إليـــه « بآية الحرمين الشريفين » .

ولكن السلطان قد اعتاد سماع هذه النغمات من كثيرين غيره ، وثمنها أعطيات وأوسمة . . . وقد قبض الثمن . وكان المفروض أن يرجع إلى وطنه . . ولكن مطامحه وأمنياته أوسع من هذا ، فما هو السبيل إلى بلوغ هذه الأمنيات ؟

لقد تحققت أمنياته عن طريق المرأة ، نعم ، عن طريق المرأة أتيح له أن يكون من أقرب المقربين إلى قلب السلطان .

والحادثة التالية تكشف لنا هذا السر .

« فقد أصيبت امرأة ناظر الضبطية بمرض أعجز الأطباء ، وكان يحبها حباً جماً ، فتذرع بكل ما فى وسعه لشفائها . ولما كاد ييأس من عافيتها وصفوا له أبا الهدى

الصيادى ، وما يكتب من حجب وتمائم ، وما يقرأ من أدعية وعزائم ، فاستدعاه لطب حبيبته بما عنده من بضاعة المشايخ ، بعدأن عجز الطب الحديث عن برئها .

والغالب أن الشيخ لم يقطع ترتيب الطبيب وترك السيدة تتناول ماوصف لها من أدوية وعقاقير ، فبرئت بعد أيام ، فعظم مقام الشيخ فى عين سيدها وشاع بذلك ذكره فى دار الملك ، وكثر قصاده والمعتقدون به ، وجمهور الترك يحسنون ظنهم بمن يأتيهم من طريق الدين بما يلائم عقليتهم ، ويسارعون إلى تصديق من يعتقدون فيه الخير ، ولم تمض أيام حتى أصيبت إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثانى بعارض يشبه عارض امرأة الناظر ، فعلم الوزير بالأمر ، وعرض على مولاه ماكان من الشيخ أبى الهدى مع زوجه ، وقال فيه كل خير حببه إلى السلطان ، فاستدعاه لمداواة حظيته بأدعيته فجاء يداويها بما داوى به امرأة الناظر ، فشفت الجارية بعد أيام ، وأعقب ذلك اتصال أبى الهدى بالسلطان عبد الحميد .[1]

وبعد هذه الحادثة . وبعد قصائد المديح التى رفعها إلى أعتاب السلطان «دعى لشرف الحضور الأقدس السلطانى بواسطة نافذ باشا المشير ـ السرقرناء يومئذ ـ وهى أول مرة فاز بها بشرف المثول بين يدى جلالته وسنه يومئذ ثمان وعشرون سنة ، وقضى حوائجه ، وتعطف عليه ، وأمره بملازمة خدمة أعتابه مرة أو مرتين فى كل أسبوع ، وأغدق عليه نعمته ، وبعد أن أقام مدة يسيرة استأذن جلالته فى السفر فمنعه ونصبه رئيس مجلس المشايخ فى نفس دار الخلافة ، وبموجب الإرادة حررت له التذكرة الرسمية من شيخ الإسلام . خليل افندى[2] »

---

(١) مذكرات محمد كرد على ج . . ١٤١ .
(٢) تاريخ الأوحد ص ١٤١ .

— ٥ —

لقد كانت سياسة السلطان عبدالحميد ترمى إلى اجتذاب الشخصيات الدينية الكبيرة إلى حظيرته ، لتكون عماده فى السيطرة و بسط نفوذه . وبلغ مسامعه ما يتحلى به أبو الهدى من صفات ومزايا ، ففتح له الباب على مصراعيه ، وسرعان ما ولجه باطمئنان .

* * *

من قرية خان شيخون إلى الآستانة عاصمة السلطنة العثمانية .. من الضعة إلى المجد ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الهاوية إلى القمة . . ومن التمرغ على الأعتاب إلى التربع فى دست القصور ونعيم الملك والسلطان .

وهكذا كان . . وهنا أنشد قصيدته الشهيرة التى يفتخر بها :

كيف لاتزدهى بنا العلياء ولنا المجد طينة ورداء

وعاد الناس يتساءلون ، ولا سيما فى موطنه ، عن السر فى بلوغ الرجل هذه المكانة السامقة . . لقد تخطى كبار الشخصيات من العظماء ورجالات الدولة وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان . . وبعد أن كان أبو الهدى فى نظرهم من « الحواة المشعوذين » أصبح من « الدهاة المرموقين » ، وهنا . . أى بعد أن صدرت الإرادة السنية بتقليده مشيخة المشايخ فى المملكة العثمانية خرست الألسنة عن ذكر نشأته وماضيه ، وأصبحت لا تذكره إلا بالتكريم والتبجيل والتعظيم ، إلا أن شاعراً شذ عن هذا التبجيل فهجاه بقوله :

هذا الذى قد كان قبل دخوله « دار السعادة » مغرقاً شحاذا
واليوم صـــورته تبين بأنه أضحى بأكبر حيلة أســـتاذا

وقضى الشيخ ثلاثين سنة إلى جانب السلطان فكان من أكبر ثقاته ، وكان خلال هذه المدة ملجأ القاصدين ، وكان قصره فى بشكطاش ، بغية الرواد من مختلف الأقطار والأمصار ، وكلمته فى المملكة العثمانية تجرى فى نفوس الحكام مجرى السحر ..

وما من رجل قصده إلا وقد حقق له أمنيته وأناله مبتغاه.

وإذ وصل إلى هذه المكانة السامقة كثر حاسدوه، وكثر شانئوه، وكثر خصومه.. والمنتقصون لقدره.. وبينا كان يسمع أماديح الشعراء بحقه كانت الدسائس تحاك له من وراء ستار.. فكان يبتسم لهؤلاء وأولئك، ولا يظهر الحقد لأحد، حتى إذا تمكن من الفرصة ضرب ضربته القاصمة، فقد كان خصومه من كبار الرجال ومن أهل الحظوة عند السلطان، فما زال بهم حتى بزهم واحداً واحداً، وبقى مكانه كالطود الراسخ لا تزعزع قواعده الصروف، ولا ترتقى إليه الهمم!! (١)

وقد مشى وراء خطواته الوزراء والكبراء، وقبّل يديه أعيان العصر والأمراء، وإنفرد عن الأشباه والنظراء، فظل فى صحابة عبد الحميد باقعة السلاطين من آل عثمان، زهاء ثلاثين سنة فى صعود متوال. ورفعة مكان، ولم ينل أحد من الأمة العربية بل التركية ما نال عنده من المنزلة الرفيعة والحظوة السنية، وكانت حضرته يومئذ فى القسطنطينية قبلة ذوى الآمال من القصاد، ومثابة الغرباء على إختلاف الأجناس من أقصى البلاد فكنت ترى أبناء الهند والصين والأفغان، ومراكش ومصر والسودان، إلى غيرهم من أجناس الأمم المنتشرة فى أبعد جهات آسيا وأفريقيا، بل كثيراً من عظماء الفرنجة يؤمون تلك الحضرة للتحدث فى بلادهم بمشاهدة الرجل الذى طبقت شهرته سائر العروش (٢).

وقد خصه شعراء البلاد العربية من ذوى الحاجات بالكثير من المديح، واستعانوا على مدحه لقضاء حوائجهم، فأخذ بناصرهم وأكرم وفادتهم، وأدنى منه مجلسهم، فكان منهم من يؤلفون الأسفار ويعزونها إليه، ومنهم من ينظمون الأشعار ويروونها عنه، فتناقلت الألسن مابدا من فضله المتزود

---

(١) المعلوم والمجهول ج ١ ص ٩١.
(٢) أدباء حلب لقسطاكى الحمصى ص ١٠٥.

وسهت الأفكار عن نقصه الكمين فيه »[1].

وكما ألمعنا فى البدء، إن هذا الرجل كلما إزداد رفعة عند السلطان وإزداد جاهه، كثر حاسدوه وعظم مناوئوه . . وليست الخصومات الشخصية مما يجدر الالماع إليها فهذه أمور طبيعية، مع أى إنسان يرتفع قدره وينبه ذكره، ولا سيما مع رجل بلغ هذه المكانة السامقة عند السلطان، ولكن هناك تيارات تمر من حياة المرموقين لا يمكن للمؤرخ أن يغفلها، كالخصومة العنيفة التى وقعت بينه وبين حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغانى، ففى الفترة التى لمع فيها نجم أبى الهدى، كان الحكيم جمال الدين قد ظهر فى المجتمع الاسلامى كسياسى كبير، ومصلح دينى عظيم له خطره.

والمتتبعون لسيرة جمال الدين يعلمون أنه قام بأكبر ثورة إجتماعية فى العالم الاسلامى، وكان يرمز من ثورته الاجتماعية إلى النهوض بالعالم الاسلامى من جهة، — وتخليصه من ربقة الاستعمار من جهة أخرى، وكان لصوته الداوى أثره القوى ورجّته العنيفة فى الشرق وفى الغرب . . وحين دعاه السلطان عبدالحميد لزيارة الاستانة، وكان فى لندن، استجاب للدعوة، وجاء عاصمة الخلافة فاستقبل بالحفاوة البالغة وأعد له السلطان قصراً منيفاً، وأجرى عليه راتباً ضخماً، بغية جعله من خواص رجاله وإستخدامه كأبى الهدى فى توطيد نفوذه وسلطانه ..

ولكن هل أهداف الشيخين واحدة ؟

لا . . فأهداف جمال الدين كانت غير أهداف أبى الهدى، ولم تكن المظاهر المادية لتغرى جمال الدين للسعى وراءها . .

* * *

ومنذ وصوله إلى الاستانة بدأت إتصالاته بالسلطان فرأى فيه رجلا يختلف كل الاختلاف عمن عرفهم من الرجالات . .

---

(١) ولى الدين يكن فى « المعلوم والمجهول » جـ ١ ص٩١ .

ورغب السلطان أن يستخدم جمال الدين فى دعوة المسلمين إلى الاعتصام بعروة الخلافة . أى أن ينضووا جميعهم تحت رايته . . وأن يسبحوا بحمده وسلطانه . . وما كان جمال الدين ليقبل أن يكون أداة وبوقاً يكيل المدح للسلطان فى سبيل مآرب خسيسة . . بل كانت مقاصده النهوض بالأوطان الاسلامية كلها وتحريرها من العبوديتين : عبودية السلطان الجائر، وعبودية الأجنبي المتحكم .

وفى هذه الفترة التى نزل فيها السيد جمال الدين ضيفا على السلطان توثقت الصلات بين الداهيتين : بين الأفغانى وأبى الهدى ، ثم ما لبثت أن توترت . . فقد اعتقد أبو الهدى أنه جاء ليزاحمه على مقامه الدينى الخطير ، لا سيما بعد أن عرض السلطان على جمال الدين مشيخة الاسلام . . وهنا انقلب أبو الهدى على جمال الدين وأخذ يتهمه بالكفر والزندقة والالحاد .. وأنه جاء ليفسد العقائد . .

وفى رسالة كتبها أبو الهدى إلى الشيخ رشيد رضا صاحب المنار جاء فيها :

« إنى أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة ، وقد تدرجت به إلى « الحسينية » التى كان يزعمها زوراً ، وقد ثبت فى دوائر الدولة رسمياً أنه « مازندرانى » من أجلاف الشيعة ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية .

— ٧ —

على أن أبرز هذه الدسائس التى حيكت حول جمال الدين ما نقل للسلطان أنه كان يجتمع بالخديوى عباس سراً — وكان الخديوى فى الاستانة — لتأسيس دولة عباسية ، وأن جمال الدين قد مهد للخديوى بضم سورية إلى مصر لأنها مفتاح العراقين واشترط عليه أن لا تكون عاقبته كعاقبة ابى مسلم الخراسانى مع العباسيين .

وقد كان لهذا الخبر الذى يعزوه المؤرخون إلى دسائس أبى الهدى فعل السم فى نفس السلطان ، فانقلب على جمال الدين الذى شعر بالضيق من هذا الجو الموبؤ الذى يعج بالدسائس فاضطر أن يترك استانبول وفى نفسه من الثورة على أوضاعها ما جعل الكلام ينطلق من فمه كالبراكين ، وأوجز كلماته «إن هذا السلطان سل فى رئة الدولة العثمانية . . »

وفى رواية أن دسائس أبى الهدى لم تضطره إلى ترك استانبول بل كان العامل الأكبر ضغط حكومة الأفغان التى طالبت من السلطان تسليم جمال الدين ، ولاسيما بعد مصرع الشاه ناصر الدين بيد الميرزا رضا الكرمانى أحد أتباع الأفغانى .

ومهما كانت الأسباب فالمؤرخون يجعلون أبا الهدى من العوامل التى كانت سببا فى نزوح جمال الدين عن الاستانة ، وبسفره قد انجابت عن أبى الهدى غاشية رانت على قلبه فترة غير قليلة . فتنفس الصعداء .

ولكن لم يكد يتخلص من نفوذ الأفغانى ، حتى ظهر له خصم جديد — خصم له قوته وسطوته ، أريد به عزة باشا العابد — أحد كبار دهاقنة العرب فى عصره ، هذا الرجل الذى تقرب إلى السلطان فجعله قرينه وكاتبه الثانى فى المابين ، وظل خادمه الأمين نحو ثلاث عشرة سنة فضاق به ابو الهدى ، كما ضاق عزة العابد بنفوذ الشيخ ، وأخذ كل واحد يكيد للآخر ، وكان عبدالحميد وهو من الدهاة ، يستغل نفوذ وذكاء الإثنين فى سبيل توطيد سلطانه ، بل كانا فى سيطرتهما ونفوذهما ككفتى ميزان إذا رجح أحدهما خف ثانيهما .

وقد اشتدت وطأة كل منهما على الآخر ، وضاعت بينهما مصالح الدولة والأمة ، وانقسم عامة الناس إلى حزبين ، أحدهما « هدائى » وثانيهما « عزتى » فما يبرم هذا أمراً إلا نقضه ذاك ، ولا يفتح ذاك بابا إلا ويغلقه هذا ، ولما رأى الناس من العابد ثبات قدمه فى مواصلة أبى الهدى جنحوا إليه بآمالهم ولاذوا بركنه عند فزعهم ، وسر بذلك عبد الحميد ، فاتخذ كلا من المتفاضلين

رقيباً على مفاضله ، ورأى سائر أعداء أبي الهدى أن لا يختلفوا فى محاربته ، فاتحدوا ورضوا بعزة العابد زعيما فساروا تحت رايته ، وعملوا برأيه حتى كادوا يغلبون الصيادى ويزيحونه عن طريقهم .[١]

وبالرغم من كل ذلك ظل عبد الحميد يعتمد على أبي الهدى فى الملمات ، وقد اتخذه مستشاره الأمين ، وسلاح أبي الهدى فى مناوأة خصومه قداسة الدين ، وللدين أثره وسحره فى نفوس السلاطين ، وكان الشيخ يزود مولاه كل يوم ، بعجيبة من العجائب فآونة بتبليغه — سلام النبي — وحيناً يقص عليه رؤيا يزعم أنه رآها ويفسرها له على ما يلائم هواه ورضاه ، ثم يدعى لأبيه ولنفسه كرامات لا وجود لها ، وكان عبد الحميد محبا لهذه الأشياء ، ويظن أنها من أقرب الوسائل لاستدامة حكمه .[٢]

— ٨ —

بهذه الوسائل قويت سيطرت أبي الهدى على عبد الحميد ، وتمكنت بينهما الألفة الروحية حتى أن خصوم الصيادى لما صارحوا السلطات بأن هذه البضاعة التى يبيعها له ليست إلا نوعا من الخزعبلات ، قال لهم : عجبت لهؤلاء الخونة يحسدون شيخى وليس فيهم من يليق به أن يكون من خدامه ، يكتب إلىّ الواحد منهم كتابا يطلب فيه بدرة مال أو رتبة لا تكاد تذكر ، وهو مع ذلك يتعسف الحيل ، ولا يهتدى إليها سبيلا .

أما أبو الهدى فإن سألنى ، سألنى عن ثقة وظرف ، ولا يتدنى بقدره إلى طلب ما يكون مشاعا يمكن أن ينازعه فيه غيره ، بل يطلب منى ما يفتخر الشريف بنيله فهو الامير وهم الصعاليك» .

---

(١) المعلوم والمجهول ج ١ ص ٩٣ .
(٢) المصدر السابق .

ويدلنا هذا القول على الثقة الكبرى التى كان يتمتع بها أبو الهدى عند السلطان وقد ظلت الالفة الروحية بينهما بالرغم من كل الدسائس التى حيكت له حتى دسيسة طموح أبى الهدى ليكون خليفة !

فقد جاء فى تاريخ الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن أبا الهدى لم يكن يقنع بما بلغه من مقام سام عند السلطان بل كان يطمع فى الخلافة [1] .

وسواء أصحت الرواية أم لم تصح — وهى شائعة أطلقها المرحوم ولى الدين يكن ليوغر صدر السلطان عليه — أقول سواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم مختلقة فإن من يرجع إلى تاريخ حياة أبى الهدى ويقارن بين نشأته الاولى وبلوغه ما بلغه من المقام الكبير فى الدولة ، وإخضاعه السلطان لوحى سلطانه ، لا يستبعد أن تطمح نفسه إلى الخلافة ، ما دامت الخلافة فى قريش وهو من المنسوبين إلى آل البيت .

* * *

وبعد فقد ظل أبو الهدى ، بالرغم من جميع الدسائس التى حيكت حول اسمه ، من المقربين إلى السلطان ، وظل نفوذه يمتد فى كل بقعة من بقاع الامبراطورية المترامية الاطراف إلى أن وقع الإنقلاب فكان مصيره كمصير عبد الحميد ، ففى اللحظة التى هجم فيها الاتحاديون على السلطان الاحمر فى قصر يلدز ، هجموا على قصر شيخه أبى الهدى وكان فى سريره ، يعانى آلام المرض ، فهلع واضطرب ، وكاد يقضى ، فأشفقوا عليه . وحملوه فى سريره إلى جزيرة الامراء — برانكيبو — فظل فيها عدة أشهر يعانى آلام وعنت الايام ، وما زال فى هم ويأس وكمد ، يشكو غدر الزمن ويستسلم لتصاريف القدر إلى أن تلاشى وقضى نحبه ، فكانت نهايته نهاية لدور مظلم قام فيه الصراع قوياً ، مدة ثلث قرن كامل ، بين سيده السلطان الثانى وأحرار الفكر انتهى بإعلان الدستور وظفر الامة بحريتها السليبة .

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٩١٣.

من شعره الوجدي :

يا غائباً في القلب حاضر لمتى . . وأنت أحب هاجر
أخفيت سِرّك والهـوى في باطني ما زال ظاهر
ارحم عشيرك يا حبيباً حسنُه فـــتن العشـــائر
مالى وطرفُك وهو هذا فاتر وعـــلى قـــادر
فكرى بلطف جميل ذاتك يا رقيـــقَ الخصر حائر
وحياةِ عينك لم أزل طول الدجى بهواك ساهر
أبـكى ودمعى نـاظم دررا ملألأةً ونـاثر
وإذا نظرت فنى جميع البارزات إليـــك ناظـــر
أودعتُ شخصك مهجتى وعليه من روحى ستائر
مذ صرتَ فى قلبى أراك عُددتَ من أهل البصـــائر
قد قرّح الجفنَ البكا رُحماك يا نور النواظر
قاطعتنى وأنا وحقِك غيرَ هجـــرك لا أحاذر
ورميتنى بجفـــاك إن جفاك مثلَ الليل كافر
لاحظ ولوهى أننى ما جال لى بسواك خاطر
معناك قبلة عين روحى فى المحافـــل والمحاضر
أحيَا وصالك مهجتى لكنه زادُ المســافر
وأذابنى هذا البعادُ وعنك قلـــبى غير صـــابر
لك من جميعى نشر وجدٍ بثّ فى طى الضمائر
ارفق بجسم هُدّ لـكن فى خفـــاء هواك عامر
لا عـــاذلا يخشى ولا يسليه آنا قـــول عاذر

بك هــام طورا سره وأولو الهيــام لهم سرائر
يـا عادلا بقــوامِهِ وقُلَيْبهُ قـاس وجائر
هون عليك ففجــر خدك آه تمحــوه الدياجر
هل شمت ضوءا لم يكن لغلاغل الظلمات صــائر
تطوى الدفاتر والمحابر والمشاهــــد والمظاهر
فارحم لترحــم واغتنم اجرى وكن للكسر جابر

ومن قصائده الوجدية أيضا :

من الهــوى آه والصب أوَّاهُ
أفنى الهوى كلى والقلب يرضاهُ
ويلاه من ريم فى القلب مثــواه
لم يشتغل فكرى واللبُ لولاه
يطيب لى معنى يُفيد ذكراه
والعين لم تَبْصر والله الاه
أقام فى سرّى والروح معنـــاه
وثغــره الألمى ياما أحيـــلاه
سبحان من فضلا بالحسن حلاه
كم طرفُه أدمى فؤادَ مُضناه
متى ترى عينى ســـنا محياه
ويشتفى العانى بلثمـه فــاه
كأنه بــدر فى برج مجــلاه

أداب مضناه دلال علياه
كم أوقعت فيه النبال عيناه
يا مَنْ غدت روحى بالوجد ترعاه
ومن أرى قصدى فى الكون رؤياه
لو زار فى ليلٍ بالنوم مولاه
كفاه معناه أحيته لقياه
كم مرة دارت بنا حمّياه
من ثغره كم من كأس شربناه
وسطر أشواقٍ منه قرأناه
وكم تهتّكنا لما رأيناه
وعاذل باغ قد ساء مراه
يلومنا فيه لما عشقناه
قلنا له يا مَنْ طبعاً هجرناه
خلّك من قوم بخلّهم تاهوا
ما لمت لو تَدرى كالقوم حسناه
فحسنه يحيي باللطف موتاه
الله من لطف لا شك سوّاه
آه لمعناه آه لمغناه
آه لجلاه آه لمرآه
هواه أفنانى من الهوى آه

ومن شعره أيضا :

سهرنا على ذكر الأحبة يا هند ... فما انكشف المعنى ولا انجز الوعد
نعدّ نجوم الليل من فرط وجدنا ... ويعبث فينا الليل والوجد والعدّ
ونبكى إذا الحادى حدا بنعوتهم ... فيعجب إذ نبكى ونعجب إذ يحدو
وتأخذنا الأشواق من كل جانب ... فلا طوقنا طوق ولا جُهدنا جهد
عسى نفحات الغيب تمنح باللقا ... ويطوى بساط القرب ما مدّه البعد
احبتنا طـــالت ليالى صدودِكم ... متى بصنيع الوصل يندفع الصدّ
تطوف بنا أرواحنا كل لحظة ... ويشملها من كل أطرافها الوجد
تقلّبكم منا القلوب بسرّها ... ويطبع فيها الصِدق والحب والودّ
إذا سكنت من خافق الوجد طرفةً ... تكاد بشرع الحب تهوى وترتدّ
ولطف معانيكم وساعات قربكم ... وكاسات وصل دون لذتها الشهد
سرائرنا أنتم نظام فنونهـــا ... وفى سرحها الممدوح جوهركم فرد
شكونا فأبكتنا الشكاية فى الهوى ... وغبنا فلا قبل سواكم ولا بعد
وطبنا بكم والكل أنتم ولم يكن ... سواكم له فى السرّ أخد ولا ردّ
متى يسعُف السعُد النؤم بوصلكم ... ويحصل ما نهوى ويستيقظ السعد
وحق الهوى من يوم غابت شخوصكم ... فلا غورنا غور ولا نجدنا نجد
يحنّ لَنا الصخر الأصم ترحماً ... ويلحظنا بالرأفة الحر والبعد
أعيدوا لنا بالله عادات بركم ... ورفقاً بدمع شقّ من سيله الخد
ومنّوا علينا بالوفا بعد هجركم ... فليس لنا والله من دونكم قصد
طوينا بلبّ السر ناراً لأجلكم ... يذوب لها يا قومنا الحجر الصلد

آل المراش

مريانا - فرانسيس - وعبد الله

مذاهب الأدب السائدة فى عصرهم ـ نشأتهم ومراحل
حياتهم ـ صالون مريانا الأدبي ـ تأرجح فرانسيس بين
العلم والأدب ـ أيامه فى باريس ـ اهتمام
عبدالله بالمخطوطات ـ نماذج من أدبهم

المذاهب الأدبية الشائعة فى عصرنا هذا من اتباعية وابتداعية ورمزية وواقعية وتأثرية وتقريرية وتعبيرية وذوقية ونفسانية وإلزامية — إن صح هذا التعبير — أن هذه المذاهب لم تكن معروفة عند أدباء القرن التاسع عشر إلا من كان على صلة بالأدب الأوربى ، حيث كانت الكلاسيكية — المذهب الاتباعى — والرومانسية المذهب الابتداعى — هما المذهبان الشائعان .

وقد كان أدباؤنا وشعراؤنا يعبرون عن أحاسيسهم وشعورهم تعبيراً ضيق الأفق هو أقرب إلى التقليد منه إلى الإبداع .

وبالرغم من هذا الاتجاه فإننا نلمس فيما تركوه من شعر ونثر صورة من صور الحياة ، فى تلك الفترة من الزمن .

* * *

إن الشرق العربى فى شتى أمصاره وأقطاره كان ، كما أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة — فى غيبوبة سادرة . . والذين تخلصوا من هذه الغيبوبة ودخلوا غمار المعرفة قليلون . . فكانوا طلائع النهضة وبشائر البعث . . فكتبوا ونظموا . . وكان نثرهم وشعرهم أمانى وأحلاما وتصاوير باهتة مشوشة ولكنها ذات أثر ملموس فى أعطائنا أصدق صورة عن تلك الخلجات والهمسات .

وحين نؤرخ هذه الفترة من الحياة الأدبية لا بد لنا من الرجوع إلى آثار أدبائها وشعرائها .

وممن كان لهم شأن يذكر ، وتركوا لمحات من المنظوم والمنثور ثلاثة من آل المراش : الإخوان فرنسيس وعبد الله وأختهما مريانا .

وتعتبر الشاعرة مريانا مراش أول أديبة كتبت فى الصحف العربية . . ولأخويها مشاركة فى أدب ذلك العصر . . ولكل واحد نهجه واتجاهه . . وإن كان فرنسيس أكثرهما إنتاجاً واتصالا بحياة الفكر الغربى .

مريانا مراش

١٨٤٨ — ١٩١٩

ونبدا الحديث عن مريانا .. فهى أديبة مرموقة وشاعرة خصية الخيال .. ولدت فى حلب ١٨٤٨ م وهى من بيت عريق عرف باهتمامه بالأدب ، كان أبوها فتح الله مراش رجلا فاضلا عنى بالمطالعة واقتناء الكتب ، جمع مكتبة نفيسة ، وكتب فى موضـــوعات مختلفة لم تطبع . . وكان أخواها عبد الله وفرنسيس من أركان النهضة الأدبية ، كتبا ونظما وإصـدرا عدة كتب ، وقد سارت على غرار أخويها ، درست العربية على أخيها فرنسيس والافرنسية فى مدرسة راهبات ما ريوسف وحذقت الصرف والنحو والعروض على أبيها ، كما درست الموسيقى وكانت من أبرع العازفات ، وما كادت ثقافتها الأدبية تكتمل حتى أخذت تكتب فى الصحف والمجلات ـــ كتبت فى جريدة « لسان الحال » وفى مجلة « الجنان » مقالات تنتقد فيها عادات بنات عصرها ، وتحضهن على التزين بالعلم والتحلى بالأدب .

كما أخذت تنقد التقعر فى أساليب الكتاب وتدعوهم إلى تحسين الإنشاء وتنويع الموضوعات والتفنن بها ، وتدعو بنات جنسها إلى معالجة الكتابة وترغبهن فيها .

وقد سافرت إلى أوربا وأطلعت على أخلاق الأوربيين وعاداتهم عن قرب فاستفادت منهم كثيرا . ثم عادت إلى وطنها تبث بين بنات جنسها روح التمدن الحديث والأخلاق الصحيحة » .

ومذ ظهرت مواهبها وعرفت بميلها للادب وقرضها للشعر أصبح بيتها ندوة يجتمع عندها الأدباء ، يقرأون ويبحثون ويتطارحون الشعر ويستمعون إلى حسن صوتها وينعمون بجمال مغناها .

أى كان بيتها أول « صالون أدبى » فى الشرق العربى بمفهومه الحديث .

وقد نظمت عدة قصائد ومقطوعات فى أغراض شتى وجمعت أشعارها فى ديوان صغير بعنوان « بنت فكر » . . فمن شعرها ترثى صبية توفيت محترقة :

عفافةُ نفس مع بديع محاسن ورِقة اعطاف ، فللـه كم تسبى
فقد جمعت ضدين فى حدّ ذاتها ففى اللحظ إيجاب يشير إلى السلب

وقالت متغزلة فى رجل شغل قلبها :

بذكر المعانى هام قلبى صبابة فيا نورَ عينى هل أكون على القرب
عسى الشمس فى مرآك للعين تنجلى فتنقل للأبصار ما حل بالقلب

ومدحت بعض رجال الدولة العثمانية وبعض القناصل الذين كانوا يترددون على بيتها أو صالونها الأدبى ، وتتجاوز شعر المديح لتشير إلى شعرها العاطفى الذى يصور بعض نزعاتها وأحاسيسها ، فقد كانت جياشة العاطفة ، وكانت ترسم نبضات قلبها بشعر رقيق . فمن شعرها تشطيرها الأبيات المشهورة :

ـــ للعاشقين بأحكام الغرام رضا ـــ تقول :

للعاشقين بأحكام الغرام رضا يُسون صرعى به لم يألفوا المرضا
لا يسمعون لعذل العاذلين لهم فلا تكن يا فتى للجهل معترضا
روحى الفداء لأحبابى وإن نقضوا ذاك الذمامَ وقد ظنوا الهوى عرضا
جاروا وما عدلوا فى الحب إذ تركوا عهدَ الوفى الذى للعهد ما نقُضا
قف واستمع سيرة الصب الذى قتلوا وكان يزعمُ أن الموت قد فرضا
أصابه سهم لحظٍ لم يبال به فمات فى حبهم لم يبلغ الغرضا
رأى فحبّ فرام الوصلَ فامتنعوا فما ابتغى بدلا منهم ولا عِوضا
تقطّع القلب منه بانتظار عسى فرام صبراً فاعيا نيله فقضى

وقد وصف قسطاكى الحمصى الشاعرة وكان من معاصريها ومن رواد صالونها بقوله :

كانت مريانا مراش رقيقة الشمائل ، عذبة المنطق ، طيبة العشرة ، تميل إلى المزاح ، وقد تمكن منها الداء العصبي فى آخر سنى حياتها حتى كانت تتمنى الموت كل ساعة [١] ،

وتشابه حياتها إلى حد ما حياة الآنسة مى التى تمكن الداء العصبي منها أيضاً فى أخريات سنى حياتها فأورثها الضيق والملل والانقباض حتى كانت تفضل الموت على الحياة .

وقد قضت مريانا نحبها فى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ كما قضت مى نحبها فى نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٦ .

فرانسيس مراش

١٨٣٥ — ١٨٧٤

أديب عالم ، وشاعر رومانيتكى ذو نزعات فلسفية ،

درس الطب وتعلق بالأدب فتأرجحت حياته بين الطب والأدب ، وقضى أيام شبابه وكهولته بين حلب وباريس . . فكانت أيام البؤس والشقاء أكثر من سويعات السعادة والهناء . وقد صدمته المصائب منذ نعومة أظفاره ، أصيب وهو فى الرابعة من عمره ؛ بداء الحصبة ، فثقلت وطأتها عليه حتى كادت تودى بحياته ، إلا أنه شفى منها وبقى فى آثارها من جسمه وبصره ما نغص عليه عيشه وأوهن قواه مدى العمر

تعلق بالأدب فقرأ كثيرا . واستهواه الشعر فحاول النظم وهو صغير ، ثم ملك قياده وهو شاب . . ولكن ازدراء الناس للشعر فى زمنه حفزه أن ينصرف عنه إلى العلم وإلى دراسة الطب .

---

(١) أدباء حلب ص ٥٣ .

وقد تتلمذ فى حلب على طبيب انكليزى مدة أربع سنوات مكنته من ممارسة الصناعة ، ولـكنه شعر أنه لم يبلغ منها مرامه ، فدفعته نزعته العلمية أن يسافر إلى باريس لدراسة الطب فى كليتها . . فلم يكد يترك حلب ويركب البحر حتى أخذ يسجل خواطره عن هذه الرحلة .. ولم يكد يصل إلى باريس ويرى معاهدها ومتاحفها وحدائقها ويستمتع بمباهجها حتى بهرته أضواؤها ومظاهر حضارتها فثارت فى نفسه شتى الأحاسيس :

ومن موشح له يصفها بقوله :

انني جئت باريس العـلا　　ورأت عيناى ما قد سمعت
شمت ما لا نظرت عيني ولا　　سمعت أذنى ولا روحى وعت
آهِ ما هـذه المبانى والملا　　هل بروجٌ أم نجوم طَلَعتْ
كل حى أم جماد قد سما　　وبثوب المجد والـكبر كسى
مشهد يسطو على العقل بهـا　　فيه من آى بها الدهر نُسى

* * *

أدر الطرفَ على هذا الأمد　　وتأمل ذى الدرارى الزاهرة
والأنابيبَ التى مثلُ الغدَد　　تَفرِز النور لتغذى الباصرة
وانظر الشهبَ المنيراتِ الجلد　　كيف ترنو بعيون حائرة
غلب الليل هنـا فانهزما　　وتوارى فى عُباب الأطلس
فالسماءالأرض والأرضالسما　　ها هنا فأعجب لذا المنعكس

ونلاحظ أن نزعته العلمية كانت تطغى على سجيته الشعرية حتى فى التشبيه

والأنابيبَ التى مثل الغـدد　　تَفْرِز النورَ لتغذى الباصرة

وشدهته باريس فلم يترك ظاهرة من ظواهرها إلا خصها بالوصف ، فوصف غابة بولونيا ، وساحة الـكونـكورد والـكثير من المظاهر كما سجل الـكثير من انطباعاته الذاتية فى الحفلات الراقصة والسهرات الخاصة فمن شعره فى إحدى الحفلات يقول :

ما القلب إلا شجر وما المنى إلا الورق
ومنيتى مدينةٌ فيها لى السعد برق
اقطِف من لذتها ما عُدّ لى وما اتفق
وفى لظى شبيبتى كل أسى قد احترق
لا أرعوى ولو عوى كل عذول أو نهق !

لقد أعطى لشبابه العنان يغوص فى المباهج واللذاذات ويشرب من كؤوسها حتى الثمالة . وهذه حالة كل شرقى شاب يترك وطنه المثقل بالتقاليد إلى باريس حيث الحياة المنطلقة والمتع الرخيصة ولكن أيام الصفاء عند شاعرنا لم تدم فقد هدّ المرض جسمه ، وأصيب ، بعد دراسته سنتين ، بفقد بصره . فتوقف عن الدرس ، وتوالت عليه المصائب ، وزاد فى مصابه وأحزانه أن بلغه ، وهو فى باريس ، فقد والديه ، فاسودت الدنيا فى وجهه وأضواه اليأس والألم وقد رثاهما بقصيدة تعبر عن لوعته وعظم مصابه ، فمن قوله :

* * *

فأنا أبكيكما يا والدىّ بدموع ما بكاها أحد
أن فى موتكما القاسى لدى مات حقا سندى والعَضدُ

حتى باريس لم تعد فى نظره كما كانت بالأمس حين كان يرتع فى مغانيها ، أنها اليوم كابية مظلمة .

لم أجد والله فى هذى البلاد غيرَ داء لى وللغير دوا
ذقت فيها كل كاسات النكاد وكما غيرى من البِشر ارتوى
يا فؤادى قد جرى فيك الردى فعلى هذا الردى مت أو عِش

وعاد إلى وطنه فلزم بيته . وكان لهذه الأرزاء المتوالية أثرها فى نفسه الحزينة المكتئبة التى غلب عليها التشاؤم .

وكان فى عزلته ، يأنس بأدب أبى العلاء وفلسفة شوپنهور . وقد أملى خواطره نثراً وشعرا فترك أكثر من كتاب واحد فى أغراض مختلفة .

فمن تصانيفه « غابة الحق » و « مشهد الأحوال » وقد سلك فيهما مسالك فلسفية وبث فيهما آراءه بأسلوب جمع بين الواقع والخيال .

* * *

كتب الأول فى باريس ، والثانى فى حلب ، وله ديوان شعر سماه « مرآة الحسناء » ورسائل موجزة فى موضوعات شتى ولكنها لم تطبع ، ووصف رحلته إلى باريس فى كتاب طبع فى بيروت بعنوان « شهادة الطبيعة بوجود الله والشريعة » و « غرائب الصدف » يريد « المصادفات » وترجم رواية عن الإيطالية .

وقد عرف بين مواطنيه بنزعته الحرة وكرهه لكل عتيق ولكل ما يتنافى ونزعة التجدد ، وذهب بعض المفكرين إلى أنه أول من نادى فى الشرق بمذهب داروين .

يقول الأستاذ ابراهيم حداد صاحب مجلة « الدهور » .

« .. هذه حقيقة يجب أن تسجل بفخر لفرانسيس المراش .

وسيكون إسمه فى المستقبل مقرونا بمذهب التطور كاسم الشميّل واسماعيل مظهر وسلامة موسى وغيرهم من الذين ينادون بهذا المذهب[1]

وقد كان ذا نزعة ديمقراطية حرة ، يريد أن لا يقتصر البرلمان على ذوى النفوذ والأغنياء وأصحاب الجاه من الإقطاعيين بل دعا إلى أن يتمثل الشعب بكافة طبقاته فى الندوة النيابية ، ومن كلماته فى هذا الصدد ، ولنلاحظ أن صوته قد ارتفع فى العهد الحميدى — قوله :

لماذا يوجد حق لأصوات الأغنياء فترنّ فى قاعات السياسة ولا يوجد

---

(١) مجلة الحديث السنة ٣ ج ٣ ص ٣١٤ .

الحق لأصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الأكبر والأهم والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات

إنه يريد أن يرتفع صوت الشعب عالياً فى الندوات السياسية ، فأعظم المقومات لصحة السياسة وإقامة الحق عنده هى « مجرى شرائعها متساوية على كل ابنائها بدون أدنى امتياز بين الأشخاص أو تفريق بين الأحوال . فلا يجب الأخذ بيد الكبير ودفع الصغير ، والالتفات إلى الغنى والإعراض عن الفقير ، ولا مؤازرة القوى ومداراة الضعيف ، بل يجب معاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل فى نظام الحق لأن كل فئة من الناس لها منزلة فى طريق السياسة تستدعى النظر إليها ، فكما أن العظماء والأغنياء هم القوة الواصلة ، كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة ، فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير ، ولولا تعب ذوى الفاقة لم تسهل متاجر أرباب الغنى ولم تحرس أموالهم ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة » .

وهو ذو نزعة اشتراكية حرة ، ينصر العامل على أرباب العمل ، أو ، وهذا الأصح ، يريد أن يأخذ العدل مجراه ، وأن تكون الحقوق متساوية كل بقدر جهده من العمل

هذا وبالرغم من ميوله الأدبية فقد كانت النزعة العلمية فى أدبه أغلب فثقافة العقل عنده لا تكون إلا بترويضه على العلوم ، وإلى هذا أشار فى بعض مباحثه . . فمن قوله :

« لا يتم تثقيف العقل إلا بالتروض فى العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية ، على أنه لأمر محقق كون العلم يخلق فى الإنسان قلباً نقياً وروحاً مستقيمة ويجعله ظافراً بكل الصفات الصافية ونافراً عن كل مايشين الجوهر الإنسانى ، ولا يترك له سبيلا إلى التفكير ، بالأمور الدينية والميول المخرقة الأمر الذى منه تشتق كل أفعال الشر . . وعليه تبنى كل دعائم التوحش .

* * *

وكان معاصروه يأخذون عليه اهتمامه بالمعنى أكثر من المبنى .. فأدبه يتميز بوفرة المعنى وضحولة المبنى ، وكان يدخل الكثير من الألفاظ العامية فى قصائده ومقالاته ، وقد ارجع جرجى زيدان هذا الترخص فى بيانه إلى ضيقه بكل قيد — بقيود العادات والألفاظ فقال :

وقد كان يحاول التملص من رق العادات ، كما كان ينزع إلى الأغضاء عن قيود اللغة وإغلال قوانينها وسلاسل قواعدها أيضاً، حتى صار قليل الالتفات إلى تحرير أساليبه وتنقيح عبارته على ما تقتضيه أصول الأنشاء[1]

وإلى هذا أشار قسطاكى الحمصى بقوله :

« إذا نظرت فيما ألفه فى هذه المدة الوجيزة ، أى منذ عودته من باريس إلى وفاته ، وهى مدة لا تتجاوز ست سنوات — أيقنت أن هذا الرجل الكفيف أوتى من حدة الذهن وسرعة الخاطر وغزارة المادة وجودة القريحة والألمعية ، ما كان فيه نسيج وحده، إلا أنه كان قليل التثبت فيما يكتب فبدرت من قلمه أغلاط فى اللغة والألفاظ عامية استدرج إليها

من موشحاته :

لاح بدر الحسن من برج الحمى ... فنضا بالنور سجفَ الغلس
وسقانا إذ رنا مبتسما ... خمرة قد عصرت من نرجس

* * *

قمر ضاء سنا طلعته ... فى دجى الشَّعر فلا غاب القمر
وبدا الورد على وجنته ... فغدا للقلب يحلو والنظر
كتبَ الحسن على غرّته ... لا ينال الوصلَ إلا من صبر
وعلى قلبى هواه رسما ... صورَ الشرق بنار الهجَس

---

(١) مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٨٦ .

وأعاد الطرف يرعى الظلما والدرارى صرن لى كالحرس

* * *

هز من قامته رمحَ الهوى وانتضى من جَفنه سيف القضا
وأتى يسلب روحى والقوى بعد ما قد كان عنى معرضا
ليت يدرى ما بقلبى من جوى علّه يبكى عليه أن قضى
صحت مذ أورث جسمى السقما بالجفا وهو شفاء الأنفس
يا غزال الحى رفقا لى فما تركت عيناك لى من نَفَس

* * *

أيها الغالب بالطرف الكحيل مغرما يرعى الصبَا والوصبا
ته بما شئت فلى صبر جميل إذ أرى الدنيا لمن قد غَلبا
لك ثغر باللمىّ تَشفِى العليل بأبى أفديه ثغراً أشنبا
ورضابٌ ليته يُطفى الظما من فؤاد فيه نار القبس
ودلالٌ بعذابى حكما فأنا اليوم كثيرُ الهوس

* * *

زارنى والليل كالبحر اعتكر وبه الشهب جرت كالسفن
والدرارى قد حكت فيه الدُّرر أو عيون الغيد إذ تغمزنى
وعلى كل الورى ألقى القمر حُزَمَ النور وهم فى الوسن
فلثمت الخدّ منه والفما وهو يَسبينى بلطف الكيس
والدجى مدّ علينا خيما ليت لا تطوى خيام الحِندس

* * *

وانثنى غنى وقد لاح السحر والتهى كل بتوديع الحبيب
والندى كلّل تيجان الزهر وشدا الطير على الغصن الرطيب
وضياء الصبح فى الشرق انتشر وانطوى الديجور فى وادى المغيب
فلكم داق فؤادى ألما حينما ودعت كرها مؤنسى
ولكم أجريت دمعا كالدما من عيون فى الهوى لم تنعس

والموشح طويل إلى أن ينهيه بقوله :

يا أخا الأشواق سُم صبرا على ذلك الوجدِ الذى فيك جرى
واحملِ العُشق ولا تشك البلا فالهوى يجرى على كل الورى
إن كأس الحب يحلو للملا وبه كل فؤاد سَكِرا
بئسَ قلبٌ لم يذق حُبَ الدما فهو أحلى من مذاق الأكؤس
ورعى الله فؤادا خُتما بدم العشق وبالشوق كسى

* * *

وهذا موشح ثان وقد قدم له ببحث عن الحب والعشق نثراً وبما قاله فى العشق :

ومن عادة العشق أن يلطف طباع العاشق ويجعله سميراً ونديماً ولبيباً ويرقى طبيعته ويرقص أفكاره ، ويدعوها إلى رقة الغزل والتشبب بالجمال حتى يعود يمكنه التلاعب بأحوال كل الوجود ، ليصير مصوراً للطبيعة ، إذ يتوهم فيها الصورة المحبوبة لديه ، وشارحاً لكل الحركات والظواهر المحيطة به ، إذ يرى أن لكل منها خدمة فى بيت الحب ، ولعبا فى مشهد الهوى ، على أنه يرى أن الخليقة تتنفس لديه بالحياة ، وتتنفس كربه ، وترعرع مثواه فيناجى الأفلاك ويرسم الرياض ويخاطب الأزهار ويطارح الأطيار ، ويشخص الليل والنهار ومن ذلك ما أقول :

نفض الشرق على وجه المغيب غَبرةَ الديجـــور
وسعى الصبح على العود الرطيب بكؤس النـــور
فأثنى يرقص والأمر عجيب رقصةَ المخمـــور
بقوام خلته قـدَّ الحبيب أسكرته الحـــور

* * *

والنسيم العذب يجرى فى الصباح حامـــل الرند
وعلى الأزهار فوق الدوح ! ! صاح بلبلُ الســـعد
وندى الفجر على النَسرين لاح طالبُ العقـــد
قد حكى درّاً على جيد ريب أو على كافور

* * *

ومهاةٍ أقبلتْ إثر النهار تحت ظل الليل
اقبلتْ بعد عتوّ ونفار تستعيد الميـــل
وهى تدنو بحيـاء وافترار والهـوى كالسيل
زورةً قد أولت الصب الكئيب بهجـة المسرور

* * *

حبُّها القاسى وقلبى ارتبطا برباط العهـــد
إنمـا عِقد اصطبارى انفرطا بالجفا والصـــد
وفؤادى لم يزل مختبطاً فى الجوى والوجد
وأنا بين عذول ورقيب أنجزَ المقـــدور

* * *

سمحت لى كلما مدت يدا صاد قلبى القلب
ذاتُ قد بردا اللين أرتدى ليت ذا للقلب
وأنا عنها ولو ذقت الردى ليس لى من قلب
آهِ كم حار على قلبى السليب جفنها المكسور

* * *

دُمْيَةَ عجباء ما بين الدُمى تَفضح الغيدا
ريمة ترتع فى قلبى فما تعرف البيدا
ذاتُ عِقد يزدهينى كلما يلبَسُ الجيدا
وعيون كيفما دارت يصيب نبلها المحذور

* * *

ومن شعره الفلسفى الحزين ! !

صدقونى كل الأنام سواء من ملوك إلى رعاة البهائم
كل نفس لها سرورٌ وحُزن لا تنى فى ولائم أو مآتم
كم أمير فى دسته بات يشقى باله ، والأسير فى القيد ناعم
أصغر الخلق مثل أكبرها جرمًا لهذا وذا مزايا تلائم
هذه النمل تستطيع الذى تعجز عن فعله الأسود الضياغم
والخلايا للنمل أعجب صنعا من قصور الملوك ذات الدعائم

ومن شعره فى « غاية الحق »

إذا كان وقع السيف ليسَ يَمُضّنى فعندى سواء غمده وغراره
وإذ كان جمر الخطب ليس يصيبنى فلا خوف بى مهما يهب شراره
أيطربنى هذا الزمان وكله عراك على الدنيا يثور غباره

عبد الله مراش

١٨٣٩ — ١٨٩٩

ليس له شهرة أخيه فرانسيس ، ولا شهرة أخته مريانا وإن كان يبزهما فى الترسل . . وقد كان على جانب كبير من الثقافة العامة . . وكان إلى اشتغاله بالتجارة متضلعاً من الأدب . . وكان لأسلوبه الرصين هذه الجزالة التى تفصح عن أدق المعانى بأرق الكلمات . . وقد سافر إلى أوربا واتصل بكثير من المستشرقين . .

وزار مكتبات باريس ولندن ، وعنى بالمخطوطات النادرة عناية فائقة . . ونسخ بعضها . .

وكثيرا ما كان يدبج المقالات الأدبية والعلمية وحتى السياسية دون توقيع .. فينم اسلوبه على شخصيته . . وقد تميز عبد الله بخصلتين كريمتين : بتواضعه الجم وعلمه الغزير . . ولا استرسل فى الحديث عنه فحسبي أن اترك تأريخ حياته لإمام البلغاء فى عصره الشيخ ابراهيم اليازجى ولا يعرف الفضل إلا ذووه — ولشهاة اليازجى فى أدبه قيمتها .

قال يصف بعض ملامحه وسجاياه ومراحل من سيرة حياته .

عبد الله بن فتح الله مراش وشقيق المرحوم فرنسيس المراش الشاعر الكاتب المشهور من أسرة عريقة فى الفضل والوجاهة ، معروفة بالعلم والأدب ولد فى حلب فى ١٤ آيار ١٨٣٩ ونشأ بها وتأدب على والده وغيره فتلقى فى

حداثته مبادىء علوم العربية والخط والحساب ، ثم دخل فى أعمال التجارة فتخرج فى فنونها ، ولما بدت نجابته فيها انتدبته جماعة من جلة تجار حلب لعقد شركة تجارية ينشىء لها محلا فى منشستر من بلاد الانكليز ، فسافر إليها فى سنة ١٨٦١ ولبث بها إلى سنة ١٨٦٩ واشتهر بما كان عليه من الامانة والدراية فكان له مقام محمود بين معامليه .

ثم انتقل سنة ١٨٧٠ إلى باريس فلبث بها إلى سنة ١٨٨٢ ، وبعد ذلك فارقها إلى مرسليا والقى بها عصاه ولم يزل مقيما بها إلى أن توفاه الله فى ١٧ كانون الثانى ١٨٩٩ .

كان عبد الله مراش ، على حظ من الدنيا بلغ به مبلغ الرضا وهو الغنى كله ، فلم يكن بعدذلك يحرص على حشد الدينار ، ولا يعانى الكسب ، ولكنه انصرف إلى المطالعة ، والتوسع فى العلم ، وهو مالم ينقطع عنه قط مع اشتغاله بالتجارة أيضاً . . فأنه كان كثير الاختلاف إلى مكاتب لندن وباريز يتصفح ما فيها من الأسفار قديمها وحديثها ولا سيما الخطية منها ، فأدرك حظاً وافراً من لغة العرب وتواريخهم وآدابهم ونسخ عنها عدة كتب عزيزة ورسائل أخرى كلها من غرر آثار الأقدمين ونوادر تآليفهم — نسخها بخطه مع العناية والتوفيق فى مقابلتها وتصحيحها ، وكان مليح الخط ، نقى الرقعة ، كثير التأنق كأكثر خطاطى حلب .

إلى أن يقول :

وكان رحمه الله من أكابر أهل الإنشاء ، حسن الترسل ، سهل العبارة ، واضح الأسلوب ، بصيرا باختيار الألفاظ والتراكيب ، حسن النقد ، حريصا على البلاغة ووضوح المعانى ، آخذا بالنصيب الأوفر من قوالب فصحاء العرب وألفاظ الخاصة من أهل الأدب ، وكان مع ذلك متقناً اللغة الانكليزية ، والفرنسية ، والطليانية ، يكتب فيهن جميعاً ، وكان له باع طويل فى التاريخ والفلسفة وعلم الاخلاق والاديان والشرائع المختلفة ، مشاركا فى كثير من علوم المعاصرين ، كالطبيعيات والهيئة وسائر الفنون الرياضية ، وكان بصيرا

بالسياسة ، مطلعا على أسرارها ودقائقها ، وله فى كل ذلك مقالات ورسائل شتى ، منها ما نشر فى بعض الجرائد العربية ، فى لندرا وباريز وجرائد ومجلات القطر المصرى .

وأما صفاته الشخصية فقد كان ربعة القوام ، معتدل الجسم ، أبيض اللون ، طلق المحيا ، فصيح اللسان ، مهذب المنطق ، واسع الرواية ، لطيف المحاضرة ، وقد اتيح لنا لقاؤه ، عند مرورنا فى مرسليا فى أواخر سنة ١٨٩٥ وهو فى نحو السابعة والخمسين من عمره ، وقد وخطه الشيب وانضجه السن والتجربة ، فألفينا فيه رجلا جليل القدر ، كامل الصفات ، قد جمع بين رزانة الانكليز ، ورقة الفرنسيس ، واريحية العرب ، وكان على أعظم جانب من الزهد ، وخفض الجناح ، بعيدا عن الزهو والخيلاء ، منزها عن الدعوى والكبر ، حتى أنه مع سعة فضله ورسوخ قدمه فى العلم والإنشاء واجماع المطالعين على استحسان كلامه ، كان يتفادى من ذكر اسمه فى أكثر ما كتبه وما طبع له ، ويشترط ذلك على كل من يروم نشر شىء من آثاره ، وهذا لا جرم من عنوان تمام فضله وتناهيه فى الكمالات الإنسانية .[1]

* * *

نموذج من نثره :

المعلم

إن القدماء والمحدثين من أهل البلاد التى توفر حظها من المبدئية ، كانوا ولا يزالون يقدرون المعلم ، أى المربى أوالمؤدب ، حق قدره . . ويجلونه وينزلونه فوق منزلة الحاكم ، لأن الطبيب إن داوى أسقام البدن وشفاها — وهيهات — فلا يقدر أن يداوى أسقام النفس ويشفيها . . بل هذا من ولاية المعلم ، ولان الحاكم إنما يعاقب الجانى إذا جنى . . ولكن ليس من ولايته أن يجعله عزوفاً عن اقتراف الجرائم . : بل هذا منوط بالعلم

(١) مجلة الضياء ، السنة الثانية .

والحاكم يقيم الحد على الشرير إذا أذنب ، وقد يقصيه أو يعتقله أو يؤدبه ويريح الناس من شره حيناما . . فمثله فى ذلك مثل الجراح الذى يقطع من أعضاء الجسم ما كان مريضا ليسلم سائرها .

إلا أن المعلم يحاول استئصال الشر من جرثومته . . وكثيراً ما ينجح فى ما يحاوله . .

* * *

لاجرم أن ما كان من ولايته أن يتعهد نفس الولد فضلا عن جسمه ، ويهتم بلعبه ودرسه بل فرحه وترحه لجدير بأن يكون عالى المنزلة . ولذا كان اليونان يدعون سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وغيرهم من الفلاسفة معلمين وآباء . . ولابدع لان المعلم فى الحقيقة أب ثان للولد . . وإن شئت دعوته أباه الروحانى كما أن الوالد أبوه الجسمانى . . ولما لم يكن أحد فى الدنيا أولى من الابوين بأن يجلهما الولد ويحترمهما . . وكان المعلم نائباً عنهما فى تربيته إذا غابا ، وشريكا لهما فيها إذا حضرا ، كان بحكم الضروره مستحقاً شيئاً من التبجيل عينه .

وإنما استنابة الأبوان عنهما فى تربية ولدهما لأنه قد يتفق أن لا يكون لهما قبل بها ، أو كفاءة لهما ، إذ حان دورها الثانى ، أو لا يستطيعانها وحدهما لأن اهتمامهما بأمر المعاش وتدبير المنزل أو غير ذلك من الشئون يصدهما عن التفرغ لها . أو أن يكونا قليلى الخبرة بتأديب الأولاد فى هذا الدور . وإن كانا هما من أحسن الناس تأديباً ، لأن فن التربية ، ولا سيما التربية الذهنية فى هذا الدور ، أوسع من أن يحيط بجميع تفاصيله سائر الناس . ولذا مست الحاجة إلى مرب ذى كفاءة وخبرة يتفرغ له . . ودعت الضرورة أيضاً أن يستنيبه الابوان عن أنفسهما فى ذلك ليعينهما ويعين الطبيعة نفسها عليه .

* * *

وفى حديثى عن الادباء من آل مراش لابد من كلمة ، ونحن هنا ، عن شاعر

مصرى حلبي الأصل يمت بصلة القربى إلى هذه العائلة التى عاش الادب فى ظلالها فترة طويلة — عن الاديب الشاعر :

عادل الغضبان

وقد لا يعرف الكثيرون أنه سليل أسرة حلبية ، نزح صغيراً إلى مصر وتلقى علومه فى معهد الآباء اليسوعيين بالقاهرة . واشتغل فترة غير قصيرة فى التدريس ، فدرس العلوم اللسانية والبلاغة والأدب فى المعهد الذى تخرج منه . ثم اشتغل فى الصحافة ، وكان يترجم لكبريات صحف مصر ما تكتبه صحافة الغرب من مقالات وآراء فى السياسة الدولية وبالأخص ماله صلة بالعالم العربى . وهو إنسان عذب الشخصية ، وأديب ناصع الأسلوب ، وشاعر زاخر الإحساس . فما من ظاهرة من ظواهر الحياة وما من مناسبة من مناسبات المجتمع ، أوحدث من أحداث الوطن العربى إلا نظم فيه القصائد والمقطوعات التى تعبر عن خوالج ذاته وما ينبض به قلب مجتمعه ووطنه . . وهو من الأدباء القلائل الذى يتوخى فى نثره وشعره أناقة العبارة وجمال الأسلوب ويحرص دائماً على تصيد المعانى الجديدة وسبكها فى قالب عربى صميم . ويلمس قارؤه فى نثره إشراقة الشعر ، وقد يكون لمصر وجوّها الفكرى أثرها غير المنكور فى تكوين ثقافته الأدبية .

تولى رئاسة تحرير مجلة « الكتاب » فكان لمقالاته الرئيسية فى الأدب طلاوتها وبلاغتها ، كما كان له فى دراسة الشعر المعاصر ونقده آراؤه السديدة . ومجلة « الكتاب » التى احتجبت سدت فراغا كبيراً فى حياتنا الأدبية لفترة من الزمن ، وقد جعل عادل الغضبان منها منبراً عالياً للأدب الرفيع ، فكتب فيها أعلام الأدب فى الشرق والغرب ، وأعطت للنقد — ولنقد الكتب بصورة خاصه — مجاله الواسع فأدت للثقافة العربية — قديمها وحديثها — أعظم خدمة ، ومن المؤسف أن تتوقف هذه المجلة عن الصدور بعد أن

احتجبت « المقتطف » و « الرسالة » و « الثقافة » وتحول نهج « الهلال » إلى غير ما أراده لها مؤسسها جرجى زيدان .

هذا ، ويشرف عادل الغضبان الآن على الإنتاج الفكرى فى دار المعارف — أوسع دور النشر فى العالم العربى — وبالرغم من قيامه بهذه المهمة لا ينقطع عن الكتابة نثراً وشعراً وتأليف الروايات والترجمة عن الافرنسية التى يجيدها إجادة تامة .

فمن مؤلفاته :

أحمس الأول : وهى تمثيلية ، فرعونية ، وطنية .

ليلى العفيفة : قصة الشمم والحب والمروءة فى البادية العربية قبل الإسلام .

الشيخ نجيب الحداد : دراسة ظهرت فى سلسلة نوابغ الفكر العربى .

وترجم عدة قصص عالمية منها : دون كيشوت ، ملكة البحر ، سجين زندا ، الأمير والفقير ، الزنبقة السوداء .

ومازال ، وهو فى فجر كهولته ، جم النشاط ، يعيش فى خضم الحياة الفكرية .

له ديوان شعر كبير لم يطبع . .

فمن شعره الوطنى قصيدة عنوانها :

صوت العرب

كفاك يا غربُ طُغْيانًا وَمَفْسَدةً ... ورَمْيكَ الشَّرْقَ بالوَيْلاتِ وَالحَرَبِ

فِي كلِّ يومٍ تُرِينا الغَدْرَ فِي صُوَرٍ ... جديدةٍ لُوِّنَتْ بالبَغْيِ والشَّغَبِ

هَذِي فلسطينُ ما زالتْ مضرَّجةً ... أرْجاؤها بِدَمٍ فِي اللهِ مَنْسَكِبِ

شرَّدْتَ أبناءها ظلمًا وسُقْتَهُمُ ... إلى الرَّدَى عُصَبًا تُلْقَى على عُصَبِ

فلا الأذانُ ولا النّاقوس يُسْمِعُنا وَحْيِ الهُـدى فِي الإسلام والصُّلُبِ
نَسَجَتْ فيها سُتور الحزْنِ فانسدلتْ على المـآذِنِ والدّارَاتِ والقُبَبِ
جُلْ فِي الخرائبِ تَسْمَعْ فِي حِجَارتِها أنينَ مُحْتَضَرٍ أو نَوْحَ مُنتحِبِ
وأَنْتَ أَنْتَ أَصَمُّ القلبِ تنفرّ مِنْ صوتِ الجِراحِ ولا تُصْغِي إلى رَغَبِ
ولغتَ فِي دَمِها ثمَّ انثَنيْتَ إلى مرّاكش بدمٍ فى فيكَ مُنْسَرِبِ
تَنُوشُها بالنُّيوبِ الزُّرْقِ مُرْهَقَةً وتُنْشِبُ الظُّفْرَ فِي الأعْناقِ واللَّبَبِ
تُولِي وتَعْزِلُ لا مَقْتًا ولا مِقَةً لـكنْ حِفاظاً على الأنفالِ والسَّلَبِ
وتُشْبِـعُ الحَقَّ تمزيقاً وَتَدْفُنـهُ وراءَ مظلمةَ الأجْداثِ والتُّرَبِ
وتبعثُ الفِتْنَةَ الهوجاءَ مضطَرِمًا سعيرُها وتُذَكِّي النّارَ بالحَطَبِ
فليسَ فى بَلَدٍ فِي الشَّرْقِ مُغْتَصِبِ بالمجدِ أو رَاسِفٍ فِي قَيْدِ مُنْتَدَبِ
إلّا وفِي أَيكهِ أوتحتَ سُنْدُسِهِ مَنافِثُ السُّمِّ من حيَّاتِكَ الرُّقُبِ
فاظلِمْ وجُرْ وازْهُ بالسُّلْطانِ معتسفاً وحكِّمْ السيفَ واشرِ البُطْلَ بالذّهَبِ
فعَدْلُ رَبِّكَ آتٍ فِي جحافلِهِ يُديلُ منكَ ويَحْبُو الشرقَ بالغَلَبِ

ومن شعره الوجدى :

تحت الكرمة

يا ليلُ فاستُرْ علينا سرَّ خَلْوَتنا ... واترُكْ نجومَكَ طِيَّ السُّحْبِ تحتجبُ

وغيِّبِ البدرَ إنَّ البدرَ يفضحُنا ... ولا تَدَعْ نَسَماتِ الصبحِ تقتربُ

ما كلَّ يومٍ يُوافيني الحبيبُ ولا ... فِي كلِّ يوم ينالُ الوصْلَ مرتقبُ

أتتْ إلىَّ تُناجينى وقد غفلتْ ... عينُ الرقيبِ فلا عَذْلٌ ولا عَتَبُ

تسيرُ سافرةَ حيناً وتحجبُها ... حيناً عن النَّظَرِ الأوراقُ والقُضُبُ

جاءتْ تُواصِلُنِي فِي كرمةٍ سترَتْ ... غرامَنا وتدلَّى فوقَنا العنبُ

تمرُّ من تحتها الرُّكبانُ مُنْشدةً ... فيقطعُ العَوْدَ من أنفاسِنا الرَّهَبُ

حتى إذا ابتعدتْ عنَّا أواخرُها ... عدْنا ينفِّسُ عنَّا اللهوُ واللَّعِبُ

نطوفُ بالكَرْمِ تحمينا عَرائشُهُ ... ويكتمُ الوَقْعَ من أقدامِنا العُشُبُ

ليلٌ قضيناهُ فِي سحرٍ وفِي سَحَرٍ ... يَرْضَى به الحارسان الطُّهرُ والأدبُ

لم نَصْحُ من غفلةٍ كانت تُحيط بنا ... إلاَّ على غبَراتِ الفجرِ تنسكبُ

يا صُبْحُ فرَّقْتَنا من بعد خَلْوتِنا ... يا ليتَ لم تنقشعْ عن وجهكِ السُّحُبُ

* * *

ووصف البخل وصفاً بارزاً فى قطعة تصويرية تعجز عن إبرازها ريشة أكبر فنان كاريكاتورى قال :

قُتِلَ البخلُ إنَّهُ ظُفْرُ وَحْشٍ ولَظَى مارِجٍ وسُمُّ أراقِمْ
لو تَبَدَّى مجسّما لرأينا صورةً من مَقابحٍ ومَثالِمْ
هيكلٌ من دَمامةٍ ومُحَيًّا من بُثورٍ وأعْيُنٌ من ضَراغِمْ
وذِراعانِ مِثْلُ طُولِ العَوالِى فى أظافِيرَ مِثْلِ حَدِّ الصَّوارِمْ
وفَمٌ شُقَّ واسِعَ الشدقِ دامٍ ولسانٌ مُلَوَّثٌ بالمآثِمْ
وخُطى لا تَرُوحُ إلاَّ لِنُكْرٍ ولَوْ أنَّ الثَّرَى بساطُ جَماجِمْ
هو رأسُ الأذى فلولاهُ ما ثارَ فقيرٌ ولا اسْتُحِلَّتْ مَحارِمْ
إنَّما الجوعُ كافِرٌ فإذا ما طارَ بالرُّشدِ صارَ مِعْوَلَ هادِمْ

نهـــاية مرحلة

وبالأدباء من آل مراش — مريانا وأخويها وفرنسيس وعبدالله — تختتم الفترة الأدبية فى القرن التاسع عشر ، وقد كان أبرز رجالاتها رزق الله حسون ، عبدالرحمن الكواكبي ، جبرائيل دلال، وغيرهم وغيرهم عدا الذين أغفلنا ذكرهم إذ ليس فى تاريخ حياتهم ولا فى أدبهم هذه الظواهر التى تتصل بحياة الفكر أو بالسياسة القومية أو بالنزعات الاجتماعية .

فى الواقع ، أن لأدباء هذه الفترة الكثير من الشعر والنثر ولكنه شعر ركيك — شعر مناسبات تافه . . من مدح إلى غزل إلى ابتهال إلى رثاء . . وهذه ألوان لايخلو منها ، فى تلك الفترة ، قطر من الأقطار العربية .

وفى ظنى من ارخنا لهم ، ونشرنا نماذج من أدبهم يعطى صورة واضحة عن الحياة الأدبية والحياة الفكرية معاً .

على أن تلك الفترة لم تقف عند هؤلاء فقط ، فلم يكد يطوى القرن التاسع عشر ، ويبزغ فجر القرن العشرين حتى يلمع اسم غير واحد من الأدباء والشعراء هم امتداد لمن سبقهم ، فقد كان أدبهم صورة من أدب من تقدمهم ، مع فارق بسيط ، هو تفوقهم فى جزالة الأسلوب ، وإن كان أكثرهم ظل مشدوداً إلى القديم أو — وهذا الأصح — إلى أدب عصر الانحطاط . . إلا من وعى صدره اللغة العربية وأسرارها ، أو اتصلت ثقافته بأدب الغرب وثقافته ، فلمعت فى سماء أدبهم ومضات مشرقة .

فى طليعة هؤلاء بشير الغزى، ميخائيل الصقال ، كامل الغزى ، عبدالمسيح الانطاكى ، قسطاكى الحمصى ، راغب الطباخ ، ابراهيم صالح الكيالى ، بدر الدين النعسانى ، والصحفى شكرى كنيدر ،

* * *

وقد عاش هؤلاء الأدباء على صدى هذه اليقظات العامة التى هزت العالم الإسلامى ، والعالم العربى بصورة خاصة ، فشهدوا ولادة الدستور العثمانى

سنة ١٩٠٨ وبعده ، كما شهدوا اضمحلال الدولة العثمانية ، وانبثاق الوحدة العربية وبوادر النهضة الحديثة ، ولكن هل حركتهم هذه البواعث واليقظات السياسية؟ هل استجابوا لأصداء النهضات الفكرية؟ هل تفاعلوا مع التيارات التحررية ؟

كلا .. فنحن لا نجد ، فى تلك الفترة ، هذا الأديب أو ذاك الشاعر الذى تابع رسالة الكواكبي مثلا ؟ أو ثار على الأوضاع القديمة البالية ؟ أو أخذ يدعو القوم إلى نهج جديد فى حياة العقل وحياة الفكر .

كان أكثرهم مشدودين إلى القديم وإن ظهرت بوادر من انتاجهم الفكرى فى نطاق ضيق، وفى اطار هذا النطاق المحدود نريد أن نلم إلمامة موجزة لتكون جد أوفياء لتاريخ هذه الفترة ، بالإستناد إلى ما دبجتـــه يراعتهم ، وسنحاول ما استطعنا أن نعطى ملامح واضحة من أدبهم على أن يتلو ذلك — كلام عن الأدباء الذين استجابوا للتيارات الأدبية المعاصرة بمفهومها الجديد ، فنلمع إلى أدبهم ، وبذلك نكون قد أرخنا هذه الفترة التى مرت بها حلب منذ بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين .

قاضى القضاة
العلامة بشير الغزى

١٢٧٤ — ١٣٣٩ هـ ، ١٨٥٧ — ١٩٢١م

علم من أعلام اللغة والأدب ، ليست ثقافته الأدبية واللغوية دون ثقافة الشنقيطى ، أو المرصفى وغيرهما من أعلام اللغة الذين استفاضت شهرتهم فى البلاد العربية فى القرن التاسع عشر .

وعن صدرة أسرار العربية فكان حجة يرجع إليه فى علومها . فإذا أخذ فى تفسير آية من آيات الكتاب الحكيم ، أو قصيدة لشاعر جاهلى ، أو غيره من فحول شعراء العربية ، كالمتنبى أو أبى العلاء رأيته بحراً زاخراً فى الشرح والتفسير .

قال أحد خلّص تلاميذه .

« وكثيرا ما كان يقصده الكثيرون من فطاحل العلماء لحل كلمة لغوية أو جملة أو حديث أو شعر عويص ، فيشبعهم ويشفى غليلهم بما لايخطر على قلب أحدهم بعد أن يؤيدها لهم بوقائع تاريخية ، أو شواهد عربية بما يسرهم ويثلج صـــدورهم فيتزودون ويأخذون فى حقائبهم ما شاؤوا وطاب لهم معجبين مقدرين » .

وقد تصدر للتدريس فى أشهر مدارس حلب ، وكان يحضر دروسه كبار المدرسين وأعيان التلامذة البارعين ، وبالإجمال فقد كان الآية الكبرى فى اللغة والمنطق والمعانى ، والحجة الساطعة فى حل مشكلات القرآن واظهار معانيه وأسرار مبانيه بما يطابق العلوم الحديثة والقديمة بأوضح تعبير .

كان ينظم الشعر عند الطلب بداهة وارتجالا بأبدع معنى وأوجز سبك.(١)

وفى مراحل حياته ، منذ طفولته إلى أن وافاه الأجل ، ظواهر لابأس من الإشارة إليها .

ففى المـامة موجزة عن سيرته كتب أخوه الشيخ كامل الغزى صاحب كتاب « نهر الذهب فى تاريخ خلب » الفقرات الآتية :

عرف منذ صغره بالذكاء وسرعة البديهة ، وقد حفظ ألفية ابن مالك وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، فى عشرين يوما ، كما حفظ فى بدأ نشأته جملة وافرة من أشعار العرب ونبذاً كثيرة من مختارات الأدب .

وكان محصوله من العـــلوم : التفسير والحديث وعلمى الفرائض والعروض والمنطق وأدب البحث والمناظرة ومصطلح الحديث ، وهى العلوم التى كانت تدرس فى المدارس الدينية ، وقد ألم إلمـاما واسعاً بالعلوم الحديثة ، فدرس الفلسفة والطبيعيات وعلم الهيئة والفلك .

وبعد أن كملت ثقافته الدينية والأدبية . انصرف انصرافا كليا إلى اللغة

(١) الشيخ خالد عقيل .

وكتب الأدب ، ووصل به تعمقه إلى حفظ أكثر من كتاب واحد . . أى حفظ أكثر النصوص . . فكان يملى من حفظه كتاب « الأغانى » وشرح ديوان الحماسة وامالى القالى ، وكامل المبرد ، ومختارات الشعراء الثلاثة : الطائى والبحترى والمتنبي وشعر أبى العلاء فى سقط الزند واللزوميات .

وكان المعرى من الشعراء المفضلين عنده . . ولفرط حبه له آمن بمذهبه فلم يتزوج ، وكلما عرض عليه أخوه واصدقاؤه فكرة الزواج ، كان ينشد قول المتنبي :

وما الدهر اهل ان يؤمن عنده حياة .. وأن يشتاق فيه إلى النسل

ثم يتبع هذا البيت بأبيات كثيرة فى هذا المعنى من اللزوميات .

* * *

وصفه قسطاكى الحمصى بقوله :

طود حلم ووقار ، وقطب أهل العلم فى هذه الأقطار ، كان متبحرا فى علمى اللغة والأدب ، يحفظ ويروى من نوادرهما ما يورث العجب ، وكان إماماً فى علوم الفقه والحديث ، والمنطق وقال :

كان بيننا وبينه صداقة أكيدة ومعاشرة طويلة العهد وطيدة ، فخبرنا منه فاضلا زهيد العين ، عزوفا عن الدنيا ، حصين الضمير ، غضيض الطرف ، صادق العهد ، مهذب اللسان ، فصيح العبارة بليغها ، رخيم الصوت ، يرتل القرآن ترتيلا ترتفع له حجب الأسماع .[1]

هذا ، وقد ظل حتى الخمسين من عمره مجاورا فى المدرسة الرضائية لا يشغل قلبه شىء إلا طلب العلم والتبحر فى فنونه ، فلما ذاع فضله واشتهر توجهت الأنظار إليه للافادة من فضله وعلمه فانتخب نائبا عن حلب فى مجلس المبعوثين — مجلس النواب — وشغل عدة وظائف فى القضاء المدنى

(١) أدباء حلب ص ٥٠ .

والشرعى، إلى أن عين فى اخريات أيامه قاضى قضاة حلب ، وذلك فى عهد الافرنسيين حين قسّموا سوريا إلى دويلات ، وجعلوا من حلب وضواحيها دولة مستقلة .

وبالرغم من تبحر الأستاذ الغزى فى علوم العربية وأسرارها لم يصنف كتابا فى الأدب أو اللغة يرجع إليه ، لأنه كان يعتقد ، كأكثر علماء عصره ، أن العلم مكنوز فى خزائن الكتب ، وما على العلماء إلا الكشف عن هذه الكنوز بالبحث والدرس والصبر ، فالعلم ، فى رأيه ، إنما هو « فهم ما تركه السابقون » . .

ومع ذلك ، فقد وضع كتابا فى اللغة ضمنه ما فى « مختار الصحاح » من الكلمات اللغوية ، وجعله على أسلوب حكاية سائح يذكر فى حكايته الكلمة ويعطف عليها مرادفها تفسيراً لها . ورسالة فى التجويد ، وتفسير صغير مختصر يمكن طبعه على حاشية المصحف ، وقد نظم الشمسية فى علم المنطق وهى فى مائتى بيت ونيف ، وهى قوية السبك لا يظهر فيها أثر التكليف الذى يظهر عادة فى منظومات المتون العلمية ، ونشر كتاب « أحكام القرآن » للإمام أبى بكر أحمد بن على الرازى المعروف بالجصاص ، وقد طبع فى الاستانة وصحح القسم الكبير منه بنفسه .

وترجم عن التركية قصيدة المرحوم ضيا باشا الفيلسوف التركى الشهير الموسومة ب « ترجيع بند » وقد أجاد فى ترجمتها وابدع حتى جاءت كأنها عربية الأصل ، وقد لاتقل فى سبكها عن ارجوزة ابن دريد وإن جاءت هذه من السهل الممتنع وسماها « حدائق الرند »

وحين ذاعت هذه القصيدة منع تداولها فى عهد السلطان عبد الحميد لأنها تضمنت البيتين الآتيين :

ظلم القوى للضعيف جار فى الأرض والهواء والبحار
كأنه لم يكفنا الأهوال حتى تولى حكمنا الجهال

والقصيدة فى حكم المفقودة ، وقد استطعنا أن نجمع من ذاكرة بعض تلاميذه المقاطع الآتية :

— ١ —

ذا معمل الصُنع العجيب مكتب
تقوشه عن علم غيب تُعرب
وفَلَكٌ طاحونةٌ المصائب
والناس فيها مثل حب ذائبِ
ماتقما أفراخَه كالعفرية (١)
وهو كوكر الطير واهى الأروية (٢)
ومن يحقق يجد الأشياءَ
مناما أو خيالا أو هباء
وكل شىءٍ للتناهى ينقلب
فأنظر فصولَ العام كيف تنقلب
والمرء عن كسب اليقين عازب (٣)
والأعتقاد عن حجاه غائب
ياربّ ، ما هذا العناء واللدد (٤)
وحاجة المرء بكسرةٍ تُسدّ

---

(١) العفرية : العفريت .
(٢) والأروية : الرباط الذى يربط به الشىء .
(٣) العازب : البعيد .
(٤) اللدد : الخصام . الكسرة اللقمة .

لا عاصم من قدر السماء
بل كل شيء هدفٌ القضاء
والأصل أن يظهر مقدور الأزل
والخطء والصواب فى الناس علل
وكل تأثير من الرحمن
لا حُكم للأفلاك والأذهان
سبحانَ من قد حيّر العقولا بصُنعه وأعجز الفحولا

— ٢ —

كم فى السماء من كُرات[1] جلّت
والأرضُ عندها كبعض ذَرة
وكم من الشموس والأقمار
بها وكم من ثابت وجار
وكل شمس معها توابع
وكل تابع له مُتابع
وكل شمس فيضها منتشر
للاحق وسرّ ذا مستتر
بسير كلُها بلا وقوف
فى مركز ومِحور معروف[2]
وألف موجود بكل بُقعة

(١) الكرات : جمع كرة .
(٢) المحور التى تدور عليها الكرة .

وألف عالم بكل قِطعة
وكل موجود لألف مصدر
وكل عالم لألف مظهر
وكل ذرةٍ بفيض خصصّت
وكل جُثةٍ بروح مـيَّزت
لكل أقوام عصور تختلف
كما زمان كل أرض مُختلف
بحر خضم رُبطت سواحلُه
بِحَيْرة فالفكر لا يواصله
سبحَان مَنْ قد حَيَّر العقولا بصُنعه وأعجز الفحولا

— ٣ —

لا تنتهى ذرات هذى الأرض
وليس يمكن انفكاكُ البعض
وجوفها مشتعل بالنار
وقشرها قد شق بالبحار
وحجمها مع قشرها المشقق
كقُبة قد فرشت بالورق
وذلك التمشر بكل آن

يسعى ليعطى الرزق للحيوان
وربما تنفثُ كالثعبان
فزلزلت مع ثورة النيران
وهى كمِصباح بشمع وَقدا
وفى نواحيها النسيم انعقدا
مائدة لسائر العوالم
ليرزقوا منها بوجه دائم
ونقطة منها الجهات تُدرك
والعقل منها لسواها يَسْلُك
فيها لكل كائن حياةُ
وكلهم لهم بها وفاة
قد نامت النفوس باطمئنان
عن نارها فى فُرُش الأمان
سبحانَ من قد حيّر العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

— ٤ —

للضعف صار الظبى لقمة الأسد
والذئب أضحى طُعمَة له النقد[1]
وبالذُباب تغتذى العناكب

(١) النقد : جنس من الغنم .

والصقر أيضاً للحمام خالبُ[١]
كذا العِقاب للبغاث تفترس[٢]
وللضفـــادع الأفاعِي تختلس
وللفـراخ تقنص الغِربان
كما ابن عُرس صيدهُ الفيران
ويهلك العصفورَ ذاكَ الأجدل[٣]
والبَازُ للرُهـــام غدراً يقتل
والأُفْعُوان يأكل القِرِلّى[٤]
وهـو على الأسماك قد تدلّى
ولقمة التمساح أضحى الغائص
كما ثعالة الحجـال قانص[٥]
لدره قـد صُدع المحار[٦]
لصوته قـد حبس الهزار
لطيبه الرّباح سُلّتْ خُصيته[٧]
لجلده السَّمور كانت هلـكته

(١) خالب : خاطف .
(٢) العقاب : مؤنثة وهى من جوارح الطيور والبغاث الضعيف من الطيور .
(٣) الأجدل هو الصقر . والرهام مالا يصيد من الطيور .
(٤) الأفعوان : ذكر الأفاعى ، والقرلى طائر ذو جزم .
(٥) الثعالة : الثعلب . الحجال جمع حجلة وهو طائر معروف .
(٦) المحار : الصدف .
(٧) الرباح حيوان كالقط يخرج منه الزباد والسمور حيوان يؤخذ من جلده الفراء .

ظَلم القوى للضعيف جار
فى الأرض والهواء والبحار
سبحان مَنْ قد حيّر العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

— ٥ —

حار الورى فى ربهم قديمًا
فاعتقدوا الجماد والنجوما
والشمسَ والعِجل واهرمانا[1]
والنور والظُّلمة والنيرانا
وعَبدوا العقولَ والأوثانا
والعِشق والجمالَ والحِسانا
وكم بدتْ من فتنة فى الخلق
لما بدا توحيد ذاتِ الحق
وقيل بالعين وبالغَيرية
وقيـــل بالجمع وبالفرقية
قالوا الصفاتُ عين ذاته أتت
وقيل فى أصل أصولٌ ركّبت
وكل شخص قاده تصوره

(١) أهرمان إله النور عند المجوس ويزدان إله الخير عندهم .

لربه كما اقتضاه عنصره
تخالفَ الأنام فى الأصول
تخالفَ الأشكال والعقول
تخاصموا وفى خصامهم حِكَمْ
وكلهم يقول مسلكى أَمَمْ (١)
وقصدهم من ذلك الشقاق
أن يخلصوا للواحد الخلاق
سبحان من قد حيّر العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

— ٦ —

يفتر ورد والهزار ينتحب
يودى العليلُ والطبيب يكتسب
وجيفةُ الميت الغنى مغتنم
يتتابها العافون أمثال الرخَم (٢)
نام الغريب فى تراب الذُّل
وارتفقَ المُثرى وساد الدَّلّ
وازدهر الشمع بمجلس الطرب

(١) الأمم : المستقيم الواضح من الأمر .
(٢) غنيمة . يتتابها ، أى يأتونها مرة بعد أخرى . العافون : السائلون الرخم : طائر يشبه النسر يقع على الجيف

واحترق الفَراش من ذلك اللهب
كالنرجس الثومُ تبدى والبصل
والطيب قد خصّ بحبس ذى أزل[1]
قد عزّ فى الدنيا الخسيس الجاهل
وعاش فى الذل الحسيب العاقل
ورب ذى جهل لدولة ملك
ورب ذى عقل للقمة هلك
قد قبل الناس اللئيمَ المفسدا
ونابذوا الشهم النصيح المرشدا
كم فاضل لجاهل مسخّر
وكم أديب عنده محقّر
العارفون رزقهم فى هَبَطِ
والظالمون عيشهم فى غبط
سبحان من قد حيّر العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

---

(١) الأزل : الضيق .

— ٧ —

يارب ما بال اللبيب فى الزمن
معذب بعقله وممتحن
يا رب إنك ابتليت العارفا
بقدر ما أوليتَه معارفا
من كل وجه مبصر عناء
وفوق عقله يرى الأشياء
هل يمكن التحقيق والاتقان (١)
العقل بالظن له اتزان
وكيف بالعلم والاستيعاب
لعاجز ناء عن الصواب
كأنه لم تكفنا الأهوال
حتى تولّى حكمنا الجهالُ
ولست أدرى هل نظامُ العالم
تقضى لذى جهل بعزٍّ دائم
ولم يزل من سالف الأزمان
يستعبد الأحمق ذا العرفان
وفى يفاع العزِّ يرقى الجاهل

(١) الايقان : التيقن .

وفى حضيض الذل يُلقى الفاضل
بالحظ قد صار الجهول نائلاً
آمالَه — والشهم أضحى عائلا
سبحان من قد حيَّر العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

— ٨ —

أهبط آدمٌ من العيش الرّغَدْ
وأُبتُلِى الخليل فى ذبح الولد
بكى لفُرقة ابنه يعقوب
ويوسفٌ فى حبه مكروب
وأنّ أيوب وذاق الضررا
وزكريا رأسه قد نشرا
كذاك يحيى رأسه قد قطعا
وكم بمحنةٍ يسوعٌ وقعا
وخضّبت بالدم نعل أحمد
وسنه انفضّت بيوم أُحُد
وشدّ بطنُه الكريمَ بالحجر
من سغب ولذة الدنيا هجر
والصاحبُ الصديق بالسم أُرتحل
واستشهد الفاروق ذو القدر الجلَلَ

وجامع القرآن بالذبح امتُحن
والمرتضى حيدرُ بالسيف طعن
ومات بالزعاف[١] ظلماً الحسن
وقتل الحسين وهو المؤتمن
وهكذا بقدر القُرب إلى
حضرة ذى العرش يشددُ البلا

سبحانَ مَنْ قد حيّر العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

— ٩ —

مَن صيّر الإنسان خلقاً كلاّ[٢]
مَنْ ماز نوعه ففاق الكُلاّ
مَنْ مستفز[٣] النفس والشيطان
مَنْ يدخلُ الغوى فى النيران
مَنْ أوقع الحلاج فى التأله[٤]
مَنْ شرع الحكم لأجل قتله
مَنْ حظّر الشُرب من المدام

---

(١) الزعاف : السم القاتل لوقته .
(٢) كلا : ضعيفاً .
(٣) مستفز : المستخف .
(٤) التأله : دعوى الألوهية .

مَنْ علم الجامىّ صُنع الجام
مَنْ أوقع اليهود فى التكذب
مَنْ خلق المسيح من غير أب
منْ علم ابن ملجمٍ والشمرّا (١)
وجعدةً والنخعىَ الشرّا
مَنْ جذب الطوسىَ للطاغى العمى (٢)
وساق للمتعصم ابن العلقمى (٣)
مَنْ ابتلا العليل بالأدواء
وجعل الشفاء فى الدواء
مَنْ علّم النحلة ترصيف البنا
مَنْ لقن البُلبُل صُنعةَ الغنا
مَنْ أسدل الستر على الأكوان
مَنْ ألهم التحقيق للانسان

سبحان مَنْ قد حير العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

---

(١) ابن ملجم هو قاتل على ابن أبى طالب والشمر قاتل الحسين وجعدة زوجة الحسن بن ع والنخعى شريك الشمر فى قتل الحسين .

(٢) الطوسى هو نصر الدين العالم الحكيم كان رافضياً والطاغى العمى المراد به هولاكو وكان الطوسى معتمداً عند هولاكو .

(٣) المستعصم الخليفة العباسى وابن العلقمى وزيره وكان هو السبب فى اضمحلال الدولة العباسية

— ١٠ —

قد هجر الراحَـة قومٌ للعلا
والبعضُ بالأدبار أضحى مقبلا
وبعضهم قد ذلّ مع كل الغني
والبعض من أجل الغني ذاق العنا
وبعضهم لوارثيه يجمـع
وعُمرُ بعضٍ فى القُني مضيّـع
بعض يحاول الفِلزّ[1] الأنفسا
وبعضهم بالـكيميـاء أفلسا
وبعضهم قاتل من أجل السُّمَع[2]
وبذل النفوس قـوم للطمع
والبعض منقاد لعين من عِشق
وآخر غُلّ بشعر من علق
وبعض قوم هـائم بالرند[3]
وبعضهم مـولّه بالورد
وبالرُّقى بعضهم قـد ارتقى
وبعضُ قـوم للتمائم انتقى
والبعض بالراح خليعٌ سادرُ

---

(١) الفلز المعدن والمراد به الذهب .
(٢) السمع جمع سمعه وهى حسن الذكر .
(٣) الرند : نوع من الزهور الطيبة الرائحة .

وبعضهمُ بما له يقامرُ
فكل حرّ صار عبداً للأمل
وكلهم بباطل قد اشتغل
سبحان مَنْ قد حيّر العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

— ١١ —

يا عجبًا لظالم ختّال
لا يخطر الأنام له ببال
وسارقٍ يأنف إن قيل سرق
وقاتل لا يخْشين مَنْ خلق
وكل مَنْ تسألُه عن حاله
يريك وجه الحق فى أفعاله
يُصلبُ قاطع الطريق فى بلد
وسيداً فى بلدةٍ أخرى يُعدّ
تبرج النساء عيب ظاهرُ
وفيه عند معشر تفاخر
بعض يرى الحرمة وهو يشرب
والبعض يستحلّ ما يقتهب
إن شئت عاشر كاملا مهذباً

معلومة أطـواره مُجرباً
تُبصر بعد البحث عن شئونه
دلائلاً تنبيك عن جنوته
فـكر الفتى يظهر فى الأفعال
وليس يَرضى نسبةَ الضلال
ما لبيان الحق والبُطلان
والعقل والجنون من مِيزان
سبحان مَنْ قد حيّر العقولا بصنعه وأعجـز الفحولا

— ١٢ —

يكوّرُ[١] الليـلَ على النهار
ويولج الظلامَ فى الأســـفار[٢]
يحـوّل الشتـاء للصيف
ويقلبُ الربيـعَ للخريف
محى مميتٌ من تُراب قد برى
آدمَ ثم منه قد أبدى برى[٣]
نار الخليـل ردها أنوارا

(١) التـكوير اللف .
(٢) الاسفار الضوء .
(٣) برى الأولى بمعنى خلق وبرى الثانية التراب .

وصاغ من نور الحكيم نارا
قد زين المعشوق بالبهاء[١]
واوقع العاشقَ بالبلاء
يولِهُ الطامع طول عمره
يُدلّهُ الآمل مدّ دهره
يُخرّبُ مُلكا لحريص جائر
يُشت قوما لحئون داعر[٢]
يَرُبُّ جسما فى النعيم دهرا[٣]
ثم تغوله المنون قهرا[٤]
يُودع صدر المرء أنواع الحكم
ثم يرده ترابًا فى الرّجم[٥]
مَنْ يعترف بالعجز فهو العالم
مَنْ يعتبر بالدهر فهو الحازم
فى مُلكه يفعل ما يريد
إن شاء يبدى أو يشأ يعيد
سبحان مَنْ قد حيّر العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

---

(١) البهاء هو الحسن .
(٢) يشت : يفرق والداعر الشرير .
(٣) يرب : يربي .
(٤) تغوله المنون : يهلكه الموت .
(٥) الرجم هو القبر .

مؤرخو حلب

ظهر فى هذه الفترة التى تأرجحت بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ثلاثة أرخوا لحلب على النهج القديم ، وهم الشيخ كامل الغزى وميخائيل الصقال ، والشيخ راغب الطباخ : ويكاد يكون نهجهم واحدا ، فقد اعتمدوا على من سبقهم ممن تصدى لتاريخ حلب فنقلوا النصوص كما جاءت . . منهم من غربلهـــا وعلق عليها ومنهم من نشرها على علاتها . . وفيما يلى ألماع إلى حياتهم الأدبية :

كامل الغزى

١٨٥٢ — ١٩٣٣

شقيق الشيخ بشير الغزى وأستاذه . . شاعر أديب ، باحث ، مؤرخ ، تروقك منه طبيعته السمحة التى لا تستعصى على طبيعة الزمن وتطوراته . . نشر الكثير من المقالات اللغوية والتحقيقات الأدبية فى مجلة المجمع العلمى العربى ، كما نشر بعض المخطوطات . . وهو فى ثقافته الأدبية وثقافته اللغوية من طراز الأستاذ المغربى ، يغوص على القديم فيستخرج من نصوصه اللآلىء لينشرها على طلاب المعرفة .

أرخ لحلب بكتابه « نهر الذهب فى تاريخ حلب » فعرض إلى فتوحها وآثارها وخططها وأعمالها وتراجم أعيانها وحوادثها . . وهو فى أربعـــة مجلدات طبع منه ثلاثة والرابع لم يطبع . . وقد التفت إلى تاريخ الأحداث التفاته إلى تاريخ السير . .

وقد يغربل بعض الحوادث فلا يثبتها كما جاءت فى كتب من تقدمه من المؤرخين بل يعلق عليها بما توحيه ثقافته وتحقيقاته . ومع تصديه للتأريخ فتغلب عليه ، نزعة الأدب أكثر من نزعة التاريخ .

وصفه معاصره قسطاكى الحمصى بقوله :

أحد معاصرينا الألباء وأصحابنا الشعراء .. وهو فرد من الأفراد الجامعين بين الأدب والظرف ، وبين خفة الروح وعذوبة المنطق واللطف ، بصير بمذاهب الكلام ، حلو المعاشرة ، ظريف المحاضرة ، ذكى المشاعر ، سريع الخاطر ، يميل إلى المزاح ، جوابه على رأس لسانه ، ونظمه على رأس القلم ببيانه [١]

من كتبه عدا تاريخه « الروضة الغناء فى حقوق النساء » ، و « جلاء الظلمة فى حقوق أهل الذمة ، وعرب عن التركية كتاب أتحاف الأخلاف فى أحكام الأوقاف ، وله ديوان شعر كبير لم يطبع .

ومن شعره قصيدة أو أرجوزة فى مائة وعشرين بيتاً نظمها وهو فى الثامنة والستين من عمره ، بعد أن مدّ الله عليه بولده الوحيد « فيصل » ، وهى نصائح أب يودع الحياة إلى ابن فى فجر الحياة . وقد ضمنها الكثير من الآداب الإسلامية وآداب عصره وتقاليده .

قال بعد التحمدة :

ابنى أنت وديعـــة الله الذى ... هو بالودائع خير من يتكفل
أبصرت نجمك فى الديار وأننى ... لأخال شمسى عن قريب تأفل
فإلى الإله وكلت أمرك أنه ... نعم الوكيل لنا ونعم الموئل
أولاك مولاك السعادة والرضا ... وحباك ســـعياً بالنجاح يكلل
ووقاك من غدر الزمان ومكره ... وعليك فيما ترتجى يتفضـــل

* * *

ابنى ثق بالله واعـــلم أنه ... هو وحده ماشاء فينـا يفعل
الجأ إلى ظل الديانة واطرح ... ما قال فيهـا ملحـد ومضلـل
امسك عن الأبحاث فى قـدر وفى ... ما قال فيـــه مجبر ومعطل

* * *

وقد جاءت القصيدة مع شرحها فى ١٩٠ صفحة ، لأنه كان يقف عندكل

(١) أدباء حلب ص ١١٥

مقطع من مقاطع القصيدة فيشرح ما أراد أن يزود ابنه من النصائح الغالية والآداب الإسلامية وقد سمى رسالته هذه « القول الصريح فى الأدب الصحيح » فصب جماع خبرته فى الحياة وفيض ثقافته الأدبية والدينية ، فإذا وقف عند بيت :

امسك عن الأبحاث فى قدر وفى ما قال فيه مجبر ومعطـــل

رأيناه يشرح عقيدة القدر شرحاً وافياً ، فيقول تحت عنوان « ترك البحث بالقدر » :

جميع الفرق الباحثات فى القدر يطلق عليها كلمة « القدرية » فهى كلمة مشتركة بين أربع طوائف . . اثنتان منها غلاة هالكون إحداهما الطائفة التى نفت القدرة والإرادة عنه تعالى ، وجعلت أفعال العباد كلها حركات النفس والروح . وثانيهما الطائفة الجبرية التى برأت العبد من المؤاخذة فى المعاصى لأنه مجبور عليها ، وأنه سبحانه واجب عليه أن لا يؤاخذ عليها ، وأن مؤاخذته عليها تعد منه ظلماً وخرقا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، أما الطائفتان الأخريتان فهما من الطوائف الناجية أحدهما الطائفة الأشعرية المنسوبة إلى ابن الحسن الأشعرى المعتدل فى عقيدته بين الجبرية وبين القدرية ، أى الذين ينسبون القدرة للعبد على خلق أفعال نفسه حيث قال أن الخير والشر مقدوران للعبد غير أن للعبد كسباً أى جزءاً اختيارياً يجعل له مندوحة عن اقتحام الشر ، ويحدو به إلى اختيار الخير ، وهذه العقيدة هى التى عليها أهل السنة والجماعة .

وثانيهما أى الطائفة الثانية الناجية هى الطائفة السلفية القائله بأن الخير والشر جميعها مقدوران من الله تعالى ، كما أرشدهم إليه صاحب الرسالة «صلعم» وأن الخلق خلقه تعالى والأمر أمره له أن يثيب العاصى ، ويعاقب الطائع ، وبالعكس لا يجب عليه أحد الأمرين ولا يعد ذلك منه ظلماً ولا رعونة لأنه هو الموجد للاثنين والبارىء والمصور للطائع والعاصى يحق له أن يتصرف فيما خلق وبرأ وصور كيف شاء وأراد كما يحق للمالك أن يتصرف فى ملكه ، كما يشاء ويريد .

هذه هى طريقة السلف الصالح واعتقادهم فى القضاء والقدر ، لايزيدون على ذلك ولا ينقصون ، غير مكترثين بتطبيق اعتقادهم هذا على علم الميزان ، ولا ناظرين إلى التعارض والتناقض الذى لا يؤدى إليهما أبحاث أهل هذا الفن .

* * *

ثم يلتفت إلى ولده فيخاطبه :

فمرّن نفسك يابنى على الرضا بهذا الاعتقاد ، وأنقشه فى لوح مخيلتك وثبته فى سجل حافظتك ، حتى يصبح إلفاً وعادة وطبعاً ، واحذر كل الحذر أن يكون اعتقادك هذا ناسخاً ، أو معارضاً اعتقادك الآخر وهو ارتباط الأسباب بالمسببات ، وأن القدرة الألهية جعلت لكل شئ سبباً ، لا تجعل اعتقادك أن الخير والشر مقدوران معارضا لأعمالك وداعياً لإهمالك السعى ، والاهتمام بشئونك ومقاصدك بل اجتهد أن تطبق أعمالك على الظاهر المحسوس ، وهو أن المقاصد التى هى جلب النفع ودفع الضر لا تحصل غالباً إلا بالسعى والعمل ، ولا عبرة لنفع يحصل وضرر يندفع بلا سعى وبلا عمل ، فأن هذا من باب المصادفة والاتفاق . .

وبعد أن شرح موضوع القضاء والقدر شرحاً وافياً ، عاد ينصح ابنه بعدم الاستسلام إلى التواكل فيقول :

اترك البحث بالقدر ؛ كما تركه السلف الصالح ، فأننا لم يبلغنا عن أحد من الخلفاء الراشدين والصحابة المكرمين الذين ثلوا العروش وأذلوا الجبابرة وقهروا القياصرة والأكاسرة ، أنهم بحثوا فى مسائل القضاء والقدر ، بل أخذوها على محك قضايا علم الميزان الذى لم يكن معروفاً فى أيام سيادتهم ، بل الذى قرأناه فى بعض أخبار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه دخل على جماعة من الصحابة ، فسمعهم يتحدثون بشىء عن القضاء فزجرهم وأمر بجلد بعضهم.

وقال :

البحث فى القدر هو الذى فتح على المسلمين أبواب الزندقه والإلحاد

قديماً وحديثاً ، وكان من أعظم أسباب ماحدث فى العالم الإسلامى من الفتور والجمود وخمود نار الهمم .

وقال :

إن تطبيق الأعمال على الاعتقاد بالجبر قد أوقع بالمسلمين ضرراً عظيما لأنه اضطر السواد الأعظم منهم إلى الاستسلام والتوانى وترك العمل والقناعة باليسير وارسخ فى غرائزهم عقيدة التواكل المغلوط الفاسد فأخذوا إلى الهدوء والسكون وفترت هممهم وبردت عزائمهم فوقعوا فى أمراض الضعف والمسكنة حتى أصبحوا لقمة سائغة للأمم الأجنبية التى نفضت عنها غبار الأوهام ولم تعر البحث فى القضاء والقدر التفاتاً بل نبذته وراء ظهورها ورأت أن المقاصد لا تنسنى إلا بالعمل والسعى فقامت تجد وتجتهد وراء الرقى والتفوق على الأمم الشرقية حتى بلغت الغاية القصوى فى العلوم والصنائع والفنون وقبضت بيديها الحديديتين على أعناق المسلمين — وغيرهم من أمم الشرق التى بقيت مطروحة فى زوايا الخمول مكتوفة الأيدى عن السعى والعمل مقيدة بسلاسل اعتقادها المغلوط فى القضاء والقدر . . »

وهكذا ، فما من مقطع من مقاطع هذه الأرجوزة الكبرى إلا ذيله بهذه الاستطرادات حتى جاءت الرسالة بمجموعة واسعة من الآراء والاتجاهات التى تفصح عن ثقافته وأدبه ورأيه فى شتى ظواهر الحياة وتلمع أيضاً إلى نزعة التجدد عنده وهزئه بروح الجمود التى كانت طابع عصره وطابع زملائه من العلماء المتزمنين المحافظين .

والرسالة مخطوطة ، وهى فى حوزة تلميذه الخاص الأستاذ الشيخ يونس رشدى أمين دار الكتب الوطنية بحلب .

ميخائيل الصقال

شاعر وأديب ومؤرخ :

تصدى لتأريخ حلب فكتب مجلدين : أحدهما « طرائف النديم فى تاريخ حلب القديم » والثانى « لطائف الحديث فى تاريخ حلب الحديث » ولم نطلع على هذين المجلدين لأنهما غير مطبوعين ، ونحن نعتقد أن المؤلف لم يخرج على نهج زميله الغزى والطباخ إلا إذا كانت ثقافته الأجنبية قد مكنته من الإطلاع على ما كتب مؤرخو الغرب فعمد إلى الإفادة من نهجهم والمقارنة بين ما كتبوه وما كتبه مؤرخو العرب فى الحوادث التى تصدى لتأريخها ، وما نظن . . لأن مفهوم التاريخ عند هذه الزمرة من الأدباء كان نقل ما خطه الأولون كآيات منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا خلفها . .

وقد كتب الصقال القصة ومارس الصحافة :

فحين سافر إلى مصر سنة ١٨٩٧ أصدر مجلة « الأجيال المصورة » ويعتبرها مؤرخو الصحافة أنها أول مجلة مصورة ظهرت فى العربية .

ولم تعش طويلا فأوقف صدورها وعاد إلى حلب .

وفى حلب نشر رواية « لطائف السحر فى سكان الزهرة والقمر » نحا فيها ، كما يقول قسطاكى الحمصى ، منحى الروايات التخيلية ، وضمنها الكثير من الفوائد والعادات الوطنية . .

كما نظم قصيدة طويلة فى نيف وخمسمائة بيت سماها « العبر » وصف فيها بعض النكبات التاريخية والخطوب الشهيرة .

إن ميخائيل الصقال ، بالرغم من ثقافته الغربية ، لم يستطع أن يحرر نفسه من قوقعة أدب عصر الإنحطاط . فكان كأكثر زملائه من المولعين بالمحسنات اللفظية وبالنكات والألغاز .

فمن قوله فى غانية أشعلت لعبة فى يدها كعنقود من نور جعلت تديرها .

وخود مذ بدت تسعى أرتنى غصين البان يشرق منه نور
فقلت لها ألست الشمس قالت ألم ترها على كفى تدور

فالجناس والتورية والمحسنات البديعية كانت كل شيء عنده وعند أقرانه من الشعراء . .

راغب الطباخ

من علماء الدين ، ليست له مشاركة فى الشئون الأدبية من شعر ونثر ، فقد وقف حياته كلها ، على دروسه الدينية فى المدرسة الخسروية وعلى نقل وجمع كل ما كتب عن حلب فى بطون الكتب ، المطبوع منها والمخطوط ، فتكوّن لديه مجموعة طيبة من المصادر جمعها فى كتاب سماه « إعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء » وهو فى سبعة مجلدات ، وقد وضح نهجه بقوله :

« . . وقلما يقع نظرى على ترجمة لحلبي فى كتاب من الكتب التى أطلعت عليها إلا ونظمتها فى عقد هذا التاريخ ، وألزمت نفسى أن لا أذكر إلا من كانت ولادته فى الشهباء أو كان ممن توفى فيها ، وجعلت أعيان كل قرن على حدة مبتدئاً من القرن الثالث إلى هذا العصر مرتباً لهم على مقتضى سنى وفاتهم لتكون ترجمة المعاصر مقرونة مع معاصره تقريباً وسلسلة حوادثهم متصلة غير منفصلة أو قريبة الارتباط ببعضها . من ملك حلب ومن تولاها من الفتح الإسلامى سنة ١٦هـ إلى ١٣٢٥هـ وأخبار ملوكها وأمرائها والحوادث التى حصلت فى زمنهم إلى تراجم لأعيان الشهباء ما بين وزير خطير وأمير كبير ومحدث وفقيه وشريف ووجيه وخطيب وطبيب وشاعر وأديب وتاجر وزعيم وغيرهم من ذوى المزايا وأرباب المناقب [1] » .

وقيمة هذا الكتاب ، أن مؤلفه فى جمعه الحوادث المتناثرة عن حلب فى بطون التاريخ ، قد سهل ، إلى حد كبير ، مهمة الباحثين الذين يودون تأريخ فترة من فترات التاريخ الحلبى .

(١) أعلام النبلاء جـ ١ ص ٦٠٤

أى أنه وضع المادة الخام لمن يريد البناء . . وهى مواد مبعثرة دون تنسيق منهجى ودون هذا التحقيق التى تقتضيه مهمة المؤرخ ، وحتى دون أن يكتب رأيه فى الأحداث التى دونها ، ولا فى التناقض الواقع بين شتى الروايات .

ومع ذلك فيعتبر كتابه من أوفى المراجع لحوادث حلب عبر القرون .

عبد المسيح الأنطاكى

١٨٧٤ - ١٩٢٣

صحفى ، شاعر :

اتخذ الصحافة طريقة للافصاح عن مواهبه فلم يؤد رسالتها ، كما تقتضيه رسالة الصحافة ، بل جعلها وسيلة للارتزاق ، أو الاستجداء ، وكان الشعر وسيلته كما كان يفعله الشعراء المداحون فى العصور القديمة .

يونانى الأصل ، سكن أجداده أنطاكية ، وانتقلت عائلتهم إلى حلب سنة ١١٦٣ هـ فولدفيها صاحب الترجمة ، ساح فى بلاد العرب عدة سياحات فمدح أمراءها وفى طليعتهم الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت ، والشيخ خزعل سلطان المحمرة وقـــد جعل من مجلته « العمران » ديواناً لمدح هذين الأميرين وبالأخص أمير المحمرة الذى أغدق عليه بدرات الذهب بغير حساب ، فجعله ممدوحه المفضل .

وفى نشأة هذا الرجل ظاهرة تلمع إلى عقلية القوم فى تلك الفترة دوّنها بقلمه قال :

نشأت فى حلب الشهباء فى وسط كله تعصب وجهل ، ومن حسن حظى أن بيتنا فى حلب كان فى شارع أكثر أهـله عرب مسـلمون يدعى « قسطل المشط » .

فكنت أجد من حسن معاملة العرب المسلمين لأهلى ورعايتهم لجوارنا غير ما كنت أسمع من النفرة منهم من عشرائى المسيحيين فشببت وأنا على

غير رأيهم فى هذه الأمة الكريمة ، ثم عند ما اتسعت مداركى وصرت أعرف وأعتقد أن هؤلاء المسلمين العرب الذين يجاورونا ونجاورهم هم شركاؤنا فى الوطن ومشتركون معنا فى منافعه ومضاره ، وفوق هذا بيننا وبينهم صلة قربى بلحم ودم لأن المسلمين عندما دخلوا سورية كان أهلها مسيحيين ويهوداً ومجوساً فأسلم منهم من أسلم ، وبقى على دينه من بقى ، وربما انقسمت العائلة الواحدة إلى مسلمين وغير مسلمين ، وهكذا أصبحت متعصباً للعرب أعد نفسى واحداً منهم ، يسرنى ما يسرهم ، ويسيئنى ما يسيئهم ، وبصفتى واحداً منهم بات همى أن أعتنى بمصلحتهم ، وتوفقت إلى أصدقاء منهم أهل علم وسياسة متعصبين للعرب ، يرمون إلى استعادة مجدهم فتربيت على أيديهم وعلى رأسهم أستاذى المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى الشهير .

ولخدمة العرب أنشأت مجلتى « الشذور » فى حلب سنة ١٨٩٧ — ١٨٩٨ فحاربتنى الحكومة ، فهجرت وطنى وأتيت إلى مصر ، وأنشأت جريدتى « الشهباء » ثم حولتها إلى اسم « العمران » وتبعنى إلى دار هجرتى أستاذى الفيلسوف الكواكبى سنة ١٨٩٩ فلذت به ، وقضيت فى صحبته كل المدة التى أقامها فى مصر إلى أن استأثرت رحمة الله تعالى بنفسه الطاهرة فى سنة ١٩٠٣ فأخذت على عاتقى الضعيف استئناف الجهاد فى سبيل العرب الذى كان يجاهده وأنا فى خدمته [١]

ونتساءل هل استجاب الأنطاكى لصيحات الكواكبى ؟ .

هل سار على نهجه ؟

قد لا نجد فى تاريخ حياته هذا الاتجاه النضالى الحر . . ولكن هذا لم يمنعه ، وقد تتلمذ على الكواكبى ، أن يعيش حياته فى كره للأتراك ؛ وفى حب للعرب ، يمدح أمراء العرب ويغامر فى ابتياع الأسلحة لهم ويتحسس بالأحاسيس العربية .

---

(١) القصيدة العلوية ص ٣٧ .

وحين عاد من الهند إلى بغداد . واتصل برجالات العراق اتهمه الوالى ناظم باشا ببث الروح العربية . فما كان منه إلا أن أمره بالرحيل . . فسافر إلى الحجرة وطوف فى جزيرة العرب يتصل بملوكها وأمرائها ويتعرف إلى خصائص الجزيرة وسجاياها . وقد أكسبته هذه الرحلة الكثير من المعلومات عن العرب فكان أشبه بالشعراء القدامى الذين عاشوا فى ظل الخلفاء ، ورأى فى الأمير خزعل هذه الصورة العربية التى تتمثل فى صور الخلفاء المسلمين فربط حياته بحياته وقصر أكثر شعره على نشر محامده وفضائله .

ولئن قيل أن الباعث على المدح كان المال ، وكانت الهبات والعطايا ، قلنا إن هذا الأسلوب القديم قد جعل من عبد المسيح الأنطاكى شاعراً يبز «جرير» فى وضع أكبر قصيدة تصف خصائص الإسلام ، فقد وضع ملحمة شعرية فى ستة آلاف بيت سماها « القصيدة العلوية المباركة » تناولت تاريخ الإمام على وما جرى له مع الخلفاء الراشدين وهى أولى القصائد التى ظهرت فى الشعر العربى فكانت نسيجاً وحده ، لأنى ما عرفت قصيدة عربية مثلها ، تناولت تاريخاً أو قصة فجاءت عليها من أولها إلى آخرها بقافية واحدة ووزن واحد . كما أنها أطول قصيدة فى لغة العرب على الاطلاق .

وقد قسمتها — يقول الأنطاكى — إلى فصول جعلت لكل فصل عنواناً يعين المطالع على إدراك مراميها واستقراء معانيها ، وهى تنقسم إلى قسمين أولها تاريخ أمير المؤمنين منذ ولادته إلى أن امتدت إليه يد الشقى ابن ملجم والثانى خاص بمناقب وفضائل وحكم أمير المؤمنين . واتباعاً لأهل الغرب دعوتها « ملحمة » وهى أقرب الأسماء إليها وذيلت القصيدة المباركة بحواش كانت تاريخاً صميما لصدر الإسلام[1]

---

(١) القصيدة العلوية ص ٦

وللانطاكى غير هذه الملحمة التى بلغ عدد أبياتها « ٥٥٩٥ » بيتاً وجاءت مع شروحها ومتونها التى تناولت تاريخ حقبة من صدر الإسلام فى ستمائة صفحة — أقول إن للانطاكى غير هذه الملحمة كتاب «نيل الأمانى فى الدستور العثمانى » و « النهضة الشرقية » وهو كتاب لم يكمل .

وشعره . . وشعر الملحمة وإن لم يبلغ مبلغ الشعر الجيد إلا أنه ينم عن قريحة وقادة ، ولا سيما وقد كان الشعر فى زمنه لايزال وثيق الصلة بشعر عصر الانحطاط .

ومن شعره هذه المقاطع يصف العرب فى الملحمة :

سر فى الأعارب وانزل فى مغانيها   وأشهر مكارم باديها وقاريها
وصف فأن مجال الوصف ذو سعة   خلالها الزهر مع سامى مباديها

وبعد أن يصف جولته فى بلاد العرب من الشام إلى العراق إلى اليمن إلى تونس إلى الجزائر ومراكش . ومالقيه من إكرام وحسن وفادة يقول :

وأمة خير ماتسمى به عرب   إن رام تمجيدها يوم مسميها
وأنفس حرة مااستعبدت وأبت   أن تستذل لغير الله باريها
وهمة تطلب العليا وتطلبها   ما الدهر يقعدها عنها ويثنيها
وعيشة قد توختها اشتراكية   أجلى مظاهر أهليها تآخيها

إلى أن يقول :

والعرب من قدم أسمى الورى حسباً   إذا رجعنا إلى تاريخ ماضيها
ويعرب الجد من علياه قد بدأت   تنمو ومازال رب العرش مغنيها
وفى الجزيرة قد كانت منازلها الـ   كبرى وطاب لها قاسى تثويها
مهامه أمحلت محلا وماخصبت   إلا بمن قد أفاضوا فى مواميها
ما أنبتت شجراً ما أثمرت ثمراً   لكن عقولا تناهت فى تساميها
هى الجزيرة لا أرض تحاكيها   إن كان مجد الأراضى فى أهاليها

وبعد أن يصف الكثير من خصائص العرب وشمائلهم يقول » :

أما شمائلها الغرا التى بلغت ... بها الفخار فليس العد — يحصيها
فمن مكارم أخلاق إلى كرم ... إلى نفوس تناهت فى تعاليها
إن عاهدت حفظت رغم الزمان عهود ... الأصدقاء وبالأرواح تفديها
وضيفها لم يهب غدر الزمان به ... حتى ولو كان من أعدى أعاديها
سادت وصالت وأبقت من مفاخرها ... أوابدا ليس كر الدهر ماحيها

إلى أن يقول :

يثور ثائرها أن نال واحدها ... سوء وكان الذى يؤذيه يؤذيها
فأن يصح « وانصيراه » رأى اسدا ... سلت لقهر أعاديه مواضيها
تضامن بين أفراد القبيلة لا ... يبقى على الضيم فردا من مواليها
ومنذ نشأتها امتازت معيشتها ... عن البرية وحشيها وحضريها
بالاشتراكية الكبرى فلا رتب ... تنسى ذوى الجاه منها عن أدانيها
وإن أحكامها شورى يصيح لها ... شيوخها إذ تنادى مستشاريها
شورى إليها انتهت من جاهليتها ... تالله قد تخذتها عن قريشيها
والله أنزل فى القرآن آيتها الغرا ... لتودع عنها مستبديها

قسطاكى الحمصى

١٨٥٨ — ١٩٤١

من الأدباء الذين اهتموا بالدراسات الأدبية ، وبشوارد اللغة كل الاهتمام ، فكتب النثر ونظم الشعر ، وكان له مقام مرموق بين أدباء عصره « قسطاكى الحمصى » .

أديب قضى شطراً من حياته فى الأسفار بين سورية ومصر واستانبول وباريس .

وكان يحذق اللغة الافرنسية حذقه للعربية إلى معرفته اللغة الايطالية معرفة تامة . . .

انتخبه المجمع العلمى العربى عضواً عاملا فكتب فى مجلة المجمع الكثير من المباحث والفصول فى الأدب واللغة .

وقد عاش حياته كلها فى جهاد ونضال — جهاد العالم الحريص على قديم اللغة وثمين تراثها ، ونضال الباحث فى سبيل تطورها ومجاراتها حياة العصر بشتى نوازعه وأغراضه .

وقد كان عربى القلب ، غربى التفكير .

ينظم الشعر فى كل مناسبة ، وكان الشعر وسيلته للافصاح عن هجساته السياسة . ونزعاته الاجتماعية والكثير من أغراض الحياة الطارئة .

وهو صحيح الأسلوب فى نثره وشعره . . ونلمس فى منظوماته قوة السبك أكثر من روح الشاعرية .

ترجم الكثير من الشعر الأفرنسى إلى الشعر العربى .

ودخل مع الأب انستاس الكرملى فى مجادلات لغوية عنيفة . . فغلب وغُلب وكان كل واحد يتمسك برأيه . .

وكان من أصفياء ابراهيم اليازجى . . وكان بينهما رسائل فى الإخوانيات ، وكان اليازجى يقر بفضله وينشر مقالاته وشعره فى مجلة «الضياء»

من كتبه :

« منهل الوراد فى علم الانتقاد » وهو فى ثلاثة أجزاء .

و « أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر »

و « مختارات من شعره »

ورسالة تعقب فيها أخطاء الأب الكرملى .

ومجموعة رسائله ومقالاته ومحاضراته فى موضوعات تتصل بالأدب

واللغة والتاريخ ، ولم تطبع هذه المجموعة ، وهى تؤلف سفراً ضخماً ، وهى فى حوزة ابنته الآنسة ليندا ، ولعلها تطبع هذه الرسائل تخليداً لذكرى أبيها .

وكتابه « منهل الوارد فى علم الانتقاد » يبحث ، كما يدل عليه عنوانه ، فى النقد الأدبى وقواعده ، وقد صدر هذا الكتاب فى مصر سنة ١٩٠٧ ، فكان لصدوره أثر مستحسن فى الأوساط الأدبية ، لأنه أول كتاب فى موضوعه ظهر فى الآداب العربية وقد ذكره جرجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية على أنه من كتب المعاصرين الجديرة بالذكر والتنويه »[١]

وأول ما يبدو لمطالع هذا الكتاب، ماعاناه المؤلف من المشقة فى وضعه لفقدان مؤلف عربى كامل فى هذا الموضوع ، فلقد قضى ستة عشر عاما ، وهو يتتبع سير النقد ، مكباً على مطالعة ماكتبه الافرنسيون ، ومقلباً القديم والحديث من كتب العرب ، لعله يظفر بشىء مترجم عن اليونان فلم يظفر بالضالة المنشودة [٢] كذلك يبدو من مطالعة هذا الكتاب ، سعة علم المؤلف بالآداب العربية وكثرة ما اطلع عليه من آثار كتابها وشعرائها ، وما درسه من آثار النقاد الافرنسيين . مثل سانت بوف ورينان وتين وأميل فاكه وجول لومتر وأدولف بريسون وغيرهم من كبار النقاد الأفرنسيين [٣].

والحمصى مدين فى كتابه هذا ، لثقافته الافرنسية ، لأن القواعد التى وضعها مستقاة مما كتبه النقاد الافرنسيون .

وقد افتتح كتابه بفصل عن النقد عند العرب فيه ، استطاع فيه بفضل سعة اطلاعه على الآداب العربية أن يصل إلى النتيجة الواقعية ، وهى أن النقد لم يكن من العلوم المعروفة عند العرب، مع أن الانتقاد من الغرائز التى عرفوا بها ولكنهم لم يحددوا له رسماً . ولا عرفوا له إسماً يدل على استعمالهم هذه اللفظة بمعناها

---

(١) تاريخ أداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢١٨ .
(٢) منهل الوراد ج ١ ص ٣ .
(٣) منهل الوراد ج ١ ص ٥ .

المفهوم اليوم ، بيد أن ذلك لم يمنعهم من محاولة الاشتغال بهذا الفن ، إلا أنه لم يكن عندهم علماً مقيداً بقواعد وشروط ، وإن ما كتبه ابن قتيبة فى أدب الكاتب والخوارزمى فى مفاتيح العلوم ، والآمدى فى الموازنة ، والقاضى أبوالحسن على بن عبدالعزيز فى الوساطة وابن الأثير فى المثل السائر ، ومن تبعهم من الكتاب، لايخرج عن كونه محاولات أولية فى النقد الأدبى بمعناه المعروف اليوم ، لأنهم كانوا فى الأغلب يحسبون أن غاية النقد ، تحصيل سرقة للشاعر ، فيجهدون انفسهم ليظفروا ، ببيت أوبشطر فيه المعنى المنقود مع أن التشابه قد يكون توارد الخاطر .

ثم عقد المؤلف فصولا فى تاريخ النقد عند سائر الأمم ، وفى القرون الوسطى والقرون الحديثة ، وانتهى إلى تعيين قواعد النقد الأدبى فتكلم عن أهمية الزمان والمكان فى إنتاج الأديب ، وتحديد العلاقة بين الأثر المنقود والتاريخ الذى صدرفيه ، والبيئة التى نشأ فيها الأديب ، وكيف أنه لاتتيسر معرفة العلاقة بين الكاتب وإنشائه ، إلا بالوقوف على أسباب المؤثرات التى دعته إلى الكتابة . وما كان عليه من فرح أو حزن ، وفقر أو غنى ، وصحة أوضعف ، وما طبع عليه من الأخلاق والعادات ، وقد عقد فصولا فى موازنة الموضوعات الأدبية ، فدرس فيها بعض الآثار الأدبية على ضوء القواعد التى وصفها فاستغرقت شطراً من الجزء الأول ، وقسما كبيراً من الجزء الثانى وقد اكمل فى الجزء الثالث ، ما فاته فى الجزئين المتقدمين فبحث فى تعريف الأدب عند العرب ، وفن الرويات ومادتها ، والنقد الأدبى والتأليف والتجديد والإحساس والشعور والذوق الأدبى [1]

ونستطيع أن نعتبر قسطاكى الحمصى فى طليعة من جارى التيارات الأدبية فى سيرها الجديد بعد ركودها المديد .

وحين توفى رثاه شاعر القطرين خليل مطران بقصيدة طويلة جاء فيها :

---

(١) أسعد الكورانى . ذكرى الحمصى . مجلة الكاتبة ص ١٠ .

حلب أنجبتك وهى فخور بفتاهـــا الشهير فى الآفاق
رزئتك الفصحى على الرغم منهـــا فهى فى وحشـة وفى إطراق
أيها الجهبـــذ الذى لم يفته ما بهـا من جلائل ودقاق
أيها الناقـــد الشفيق ولـكن ما به فى الصواب من إشفاق
أيهـا الثائر الذى لا يبـاهى لفظه بالجـلاء والإشراق
وتجول الأفكار فيه فما تخطىء معـــنى من المعـانى الرقاق
أيهـا الشاعر المقل ولو أكـ شر لم يأت تالياً فى السباق

إبراهيم صالح الـكيالى

شاعر ملء بردتيه الشعر ، ما من مناسبة إلا نظمها شعرا ، وهو طويل النفس ، توزع شعره بين الإخوانيات والخمريات والسياسة .

لم يكن من الساسة . . ولـكن كان ذا هوى سياسى ، وكان من المؤمنين بالسيادة العثمانية . ويرى فى تصدع هذه السيادة مدعاة لسيطرة الأجانب على البلاد العربية .

فلما ثار الملك حسين على الترك ، ودعا إلى الوحدة العربية أو استقلال بلاد العرب اعتبر هذه الثورة دسيسة بريطانية ، فثار على الحسين وهجاه بقصائد مقذعة ، فكان فى اتجاهه هذا عثمانى الهوى ، وظل فى سياسته هذه حتى آخر لحظة من لحظات حياته . .

وهو سريع البديهة بنظم الشعر ، سليط اللسان فى الهجاء ، إذا هجا أقذع ، وإذا وصف أبدع ، وله خمريات تدنيه من أبى نواس .

وديوانه الذى لم يطبع سجل حافل بالأحداث التى مرت فى تلك الفترة .

هذا ، وبالرغم من سرعة بديهته ، ورقة ألفاظه ، ظل شعره مشدوداً إلى الشعراء الذين استبدت بهم المحسنات البديعية من جناس وتورية ، وكتابة واستعارات . فمن شعره متغزلا :

لقد بز ثوب الصبر منى إذا عزى ... مليح يهز التيه قامته هزا
بديع جمال لو تبدى لمشرك ... بآية حسن منه ما عبد العزى

ومنها:

لقد دق منه الخصر عن درك ناظرى ... لعمرى حتى رحت أحسبه لغزا
إذا ما نضا يوماً سيوف لحاظه ... فيا ويح أكباد بأسيافها تغزا
يصد فيغرينى به رمز لحظه ... فها أنا ذا أقضى ولا أفهم الرمزا
وكانت قناتى لا تليق لغامز ... فقد صرت من ألحاظه أعشق الغمزا

وقال مخمساً لامية المعرى:

بغير مقام الفضل لست أفاضل ... وعن غير أبكار العلى لا أناضل
أقول وقول الحق ما أنا قائل ... « إلا فى سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف وأقدام وحزم ونائل »

ومنها »

وقد زادنى زهداً بعيشى فاجر ... يطاول أرباب العلى وهو قاصر
أقول وقولى فى البرية سائر ... « إذا وصف الطائى بالبخل مادر
وعيرّ قسا بالفهاهة باقل »

ومنها:

ودامت على الأديار للدهر شيمة ... ولم تبد للأقبال يا سعد شيمة
ولم تسم يوماً للمعارف قيمة ... « فيا موت زر إن الحياة ذميمة
ويانفس جدّى إن دهرك هازل »

ومنها:

كأن ذكاء الأفق ادعى سطوعها ... لنحسى فلا يرجى لعنيى طلوعها
كأن نجوم الليل معىٍ ضليعها ... « كأن الثريا والصباح يروعها
أخو سقطة أو ظالع متحامل »

* * *

وأختتم الحديث عن هذه الفترة — نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين — بالكلام عن أديب وصحفى عاشا تلك الفترة فكانا أقرب إلى الحياة المتطورة منها إلى الحياة القديمة التى ورثت رواسب العصر الماضى :

أحدهما : بدر الدين النعسانى . والثانى : شكرى كنيدر .

* * *

بدر الدين النعســـانى

أديب زاخر المعرفة ، وناقد متمكن من أسرار اللغة العربية والغوص على دقائقها ، عاش شطراً من حياته فى مصر وتونس . فدرس فى الأزهر ، وتتلمذ على الشيخ محمد عبده . وحرر فى جريدة المؤيد ، وكان زملاؤه محمد كرد على وأحمد حافظ عوض ، وعبد القادر المغربى ومحمد مسعود .

وكانت مقالاته فى النقد الاجتماعى تقوم على تطهير المجتمع من الأدران والأوشاب ، كما كان صاحب رسالة فى تنقية جوهر الدين من ضلالات الحشويين

وقد تولى وهو فى مصر ، بين ســـنة ٩٠٥ و ٩٠٩ ، تصحيح عشرات الرسائل والكتب الأدبيـة والدينية ، وتهافت الناشرون عليه يعتمدونه فى تصحيح الكتب والمخطوطات التى اعتزموا نشرها وطبعها ، فمكنته هذه المهمة أن يقرأ الكثير من كتبنا القديمة وأن يعيد قراءتها أكثر من مرة حتى أصبح إلى ثقافته الأدبيـة ، من المبرزين فى فهم النصوص وشرحها شرحاً وافيا [١] .

وتولى ، خلال الحرب العالمية ، بالاشتراك مع كرد على وشكيب أرسلان

---

(١) من الكتب والمخطوطات التى نشرها وصححها وشرح غريبها ديوان زهير ، وشرح المفصل للزمخشرى وذيله وشرح المعلقات العشر والحيوان للجاحظ والبيان للتنوخى . الخ .. الخ

والمغربى — تولى تحرير جريدة « الشرق » التى أصدرها السفاح أحمد جمال باشا فى دمشق ، ثم انتدب من قبل السفاح أيضاً لتحرير جريدة « الحجاز » التى أصدرها فى المدينة المنورة لتبرير سياسة تركيا ضد الملك حسين ، وكانت افتتاحيات الجريدة ، تجريح سياسة الملك حسين بعد ثورته الكبرى على الترك .

وبدر الدين النعسانى ، كأبراهيم صالح الكيالى « عثمانى الهوى » .

وكان يرى فى ثورة الحسين مؤامرة انكليزية للقضاء على سلطان الخلافة والسيطرة على البلاد العربية ، ومن قصيدة له فى مدح جمال باشا قوله :

لئن أكثر المداح فيك القصائدا فما بلغوا فى الألف من ذاك واحدا

ومنها :

رمى الله منك الانكليز بصارم صقيل يقد الهنداونى غامدا
عتوا وأبوا إلا لقاءك فى الوغى أراهم بما راموه منك حصائدا
أقاموا على شط القنال معاقلا ستبقى لهم يوم اللقاء مصايدا
قطعت إليهم بالجيوش مفاوزا بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا
لقد عز جيش كنت فيه رئيسه وعزت جموع كنت فيهن رائدا
فلم أر مثل اليوم أرفع همـــة وأعظم أثاراً وأكثر حاشدا
وأطهر أخلاقا وأصفى سريرة وأنجب مولوداً وأكرم والدا
وقفت على عليائك فيض يراعتى ونفسى وفكرى والقوافى الشواردا

وبعد الحرب العالمية الأولى عاد إلى حلب ، وانصرف إلى التدريس ، وتدبيج مقالات فى النقد الاجتماعى والسياسة المحلية بتوقيع « أبى فراس » .

وهو كاتب صحفى مشرق الأسلوب ، يتخذ النقد والتجريح وسيلة للإصلاح .

وقد ترك هذه الدنيا دون أن يترك أثراً ، فلم يؤلف ، وظلت مقالاته مبعثرة فى الصحف ، وكان أثره فى تلاميذه أقوى من التأليف .

وتلامذته من الشباب المرموقين بينهم الصحفى والمحامى والشاعر

والطبيب وكلهم أخذو عنه وأفادوا من أدبه وأصبحوا من الكتاب الذين استقام أسلوبهم فى طليعتهم أسعد الكورانى . وسامى الدهان وحسين الشعبانى صاحب جريدة « الحوادث » وأحمد قنبر صاحب جريدة « النذير » وغيرهم وغيرهم كثيرون .

وقدر المجمع العلمى العربى فضله وأدبه فانتخبه عضواً عاملا .

وله شعر قليل ولكنه رصين ، قوى السبك

فمن شعره قصيدة نظمها سنة ١٩٢٧ فى أمير الشعراء أحمد شوقى ، وذلك حين احتفت الأقطار العربية بتكريمه ، وهذه بعض مقاطع تلك القصيدة الكبرى .

بنى مصر فديتكم بنفسى ... وذلك كل ما تحوى اليدان
غبرت بأرضكم زمناً طويلا ... قليل البث ، موفور الأمانى
أروح وأغتدى طلق المحيا ... كأنى من زمانى فى أمان
وفوق مهادكم نشزت عظامى ... وتحت سمائكم طالت بنانى
ومنكم كل ما أوعى فؤادى ... وعنكم كل ما احصى لسانى

ومنها

زعيمكم [1] له الأرواح ملك ... وشاعركم له ملك المعانى
أتاه عصيها يسعى إليه ... ذلول الرأس ، منقاد العنان
تخير خيرها شرقاً وقدراً ... وأودعها ثمينات المبانى
رأيت بعينه البوسفور حقاً ... بما يحويه من آى حسان
ومذ أبصرته بعيون نفسى ... إذ البوسفور كان كما أرانى
فما أبصرت وصافاً كشوقى ... ولا بصرت بذلك مقلتان
إذا وصف الجنان نعمت فيها ... وضقت من الشقاء بما تعانى
فما المرآة أصدق منه نعتاً ... ولا أقوى على حفظ الكيان

(١) يريد سعد زغلول .

تريك ظواهرا ويريك عينا بواطن ليس تدرك بالعيان
فأن باهت به مصر سواها فقد باهت به لغة القران
وان طعنوا عليه فغير بدع فقد طعنوا على السبع المثانى
وتلك طبيعة الإنسان قدما طعون باللسان وبالسنان

وكان رحمه الله ، فى طليعة الطاعنين باللسان وبالقلم والقلم أحدّ طعنا من السنان !

شكرى كنيدر

أما شكرى كنيدر ، فقد امتهن الصحافة منذ نشأته الأولى ، وظل طوال حياته ، وفياً لرسالتها ، فحين أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ استجاب للنزعات الحرة وأصدر جريدة « التقدم » التى ظلت تصدر قرابة أربعين سنة من سنة ٩٠٩ إلى أن توقفت سنة ٩٤٧ .

وعاش مختلف الأدوار يكتب افتتاحية جريدته دون انقطاع ، من العهد الفيصلى ، إلى عهد الافرنسيين ، إلى عهد السيادة ، فكان فى كل هذه العهود الصحفى الأمين لرسالة الصحافة وإن تباينت وجهات نظره مع اتجاهات الشعب فى الكثير من القضايا الوطنية .

وكان أميل إلى النقد منه إلى المحاباة ، ونقده لاذع مر ، وأسلوبه واقعى لا تنميق فيه ، لم يجنح قط إلى الخيال فى معالجة مشاكل المجتمع بل كان يستمد مادته من خضم المشاكل التى تواجهها الأمة .

ومع أنه عرف ، خلال الانتداب الإفرنسى ، بمشايعته للافرنسيين إلا أن هذا لم يمنعه أن ينقد تصرفاتهم وتخبطهم فى تفهم نفسية الشعب ، مع الإفصاح عن إرادة الأمة بأسلوب هادىء متزن ، لا جلجلة فيه ولا تهويل .

وكل صحفى يتخذ المعارضة والنقد سبيله يواجه المتاعب والأهوال ،

فقد لقى شكرى كنيدر ، فى حياته الصحفية الكثير من المتاعب والأهوال ، ولا سيما فى العهد العثمانى ، فصمد لها دون أن يتراجع أو أن يثنيه عن خطته أى ارهاب أو وعيد .

لم يؤلف وان جمع من مقالاته الافتتاحية ثمانى مجلدات لم تطبع ، وهى تتناول الأحداث السياسية والاجتماعية وسير الرجال ، ولو طبعت ، لكانت من المراجع الهامة فى سياسة الوطن السورى واتجاهاته الاجتماعية خلال هذه الفترات ، لأنها سجل يومى لمختلف التيارات والاتجاهات التى مرت بها حلب خلال نصف قرن . .

وجمع فى مجلدين ، لم يطبعا بعد ، مجموعة من امتع المباحث التاريخية التى ترجمها عن الافرنسية عدا الروايات التى دبجتها يراعته والتى نقلها عن أكابر كتاب القصة الإفرنسيين .

وهذان المجلدان ، إلى المجلدات الثمانى الآنفة الذكر ، تعطينا صورة صادقة عن أدب هذا الصحفى الذى لم يقف حيث وقف غيره مشدودا إلى أدباء القرن التاسع عشر بل كان فى طليعة السائرين فى ركاب الصحفيين الذين جاروا الزمن وكانوا من قادة الصحافة فى مستهل القرن العشرين . .

والحديث عن شكرى كنيدر ، شيخ الصحافة الحلبية ، يجرنا إلى الحديث عن تاريخ الصحافة فى حلب .

وهذه إلمامة لابد منها ، لأنها فى اعتقادى تتمة للاتجاهات الفكرية التى عاشتها حلب خلال هذه الفترات التى سلطنا الأضواء عليها لتكون أمام القارىء العربى واضحة كل الوضوح .

تاريخ الصحافة الحلبية

يرجع تاريخ الصحافة فى مدينة حلب إلى منتصف القرن الثامن عشر . . ففى سنة ١٨٦٧ أصدرت الحكومة ، جريدة رسمية باسم « غدير الفرات » عاشت قرابة عامين ثم حذفت كلمة « الغدير » وصدرت باسم « الفرات » تيمناً بفيض النهر الكبير الذى ظل الحلبيون يرقبون ماءه العذب بشوق ولهف سنوات وسنوات إلى أن تحققت هذه الأمنية الحلوة فى العهد الوطنى — عهد السيادة والاستقلال .

وقد أسس جريدة الفرات ، المؤرخ التركى الشهير أحمد جودت باشا عندما كان والياً على حلب ، وكان إلى قيامه بأعباء الولاية يحرر المقالات الرئيسية بقلمه الفياض فيعرض إلى سياسة الدولة واتجاهاتها فى الإصلاح .. ثم ناط أمر تحريرها بمكتوبى الولاية وكان من الكتاب المعروفين . . وقد صدرت الجريدة فى أول عهدها باللغة التركية والعربية وظلت تصدر بهاتين اللغتين حتى آخر يوم من أيام صدورها . .

وتعاقب على رئاسة تحريرها غير واحد من الأعلام كان فى طليعتهم عبد الرحمن الكواكبى ، الشيخ كامل الغزى ، الشيخ محمد الحنيفى ، واتسع نطاق مباحثها فى الفترة التى أعقبت اعلان الدستور .

وظلت تصدر إلى ١٩١١ . وبهذا تكون « جريدة » الفرات قد عاشت قرابة الخمسين سنة . .

وتكون حلب قد جارت كبريات مدن الشرق بإصدار الصحف منذ منتصف القرن الثامن عشر .

والذين عرضوا إلى تاريخ الصحافة وتاريخ الطباعة . والظاهرتان متلازمتان — يذكرون أن « أول مطبعة ظهرت فى الشرق كانت المطبعة التى أسسها أثناسيوس الرابع بطريرك الروم الانطاكى الحلبى فى مستهل القرن الثامن عشر . وقد حفرت حروفها بأيدى الحلبيين ، وسبكت فى مدينتهم

نفسها . والذى قام بسبك الحروف عبد الله الزاخر صاحب التآلف العديدة ومؤسس مطبعة الشوير اللبنانية[1].

* * *

ومن الفائدة أن نذكر ، ما دمنا نتحدث عن الطباعة ، أن الدولة العثمانية حين حاولت تأسيس المطابع فى القرن السابع عشر ، أفتى العلماء آنئذ أن المطبعة رجس من عمل الشيطان ، فلم يجرأ أحد على جلب المطابع من أوروبا ، وظلت الفكرة سائدة مدة طويلة إلى أن استطاع محمد افندى الجلبى ، سفير الباب العالى ، فى فرنسا أن يقنع الصدر الأعظم بضرورة تأسيس المطابع فيها كأداة من أدوات الفكر فى الممالك العثمانية وأقنع الصدر الأعظم السلطان أحمد الثالث بفكرة سفيره فى باريس ، وبعد أن اختمرت الفكرة فى ذهن السلطان ورئيس وزارته ، وكان يطلق عليه لقب الصدر الأعظم آنئذ ، استكتب السلطان شيخ الإسلام ومعاونيه ، « فتوى » تؤكد أن المطبعة فضل من الله .

وهنا صدر الفرمان العالى موقعا عليه بالخط الشريف ، وذلك سنة ١٧١٢ مرخصاً لسعيد افندى ، ابن السفير محمد افندى الجلبى ، بطبع جميع أنواع الكتب — عدا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام .

وسعيد أفندى هذا الذى استغل مركز أبيه فعمل على تزويد الشرق بالمطابع ، قد ارتقى فيما بعد إلى منصب الصدر الأعظم ، فكان له شأن عظيم فى سياسة الدولة ، وكان حريصاً أن يشيع الثقافة فى جميع الممالك العثمانية ،

---

(١) كان البطريرك اثناسيوس الرابع الدباس قام برحلة سنة ١٦٩٨ إلى بلاد الفلاخ واتصل بأميرها يوحنا قسطنطين برنكوفان ، وسأله ان يسعى بطبع الكتب الطقسية باليونانية والعربية ، ففى الأمير رغبته ، وعين له كاهنا كرجياً يدعى اتيموس ليحفر له حروفا عربية ففعل . وطبع فى بخارست كتاب « اللتيورجيات الثلاث » باليونانية والعربية سنة ١٧٠١ ثم كتاب « القنداق » وعندما رجع إلى حلب وزعهما مجانا على كهنة الروم الأرثوذكس ، ثم شاء أن يطبع غيرهما من الكتب الدينية ، فتم له ذلك فى حلب ، وفى ترجمة عبد الله الزاخر التى كتبها البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ قوله « وقد اصطنع عبد الله الزاخر مطبعة فى حلب بمساعدة أخيه ، وعملا أباتها وأمهاتها وأحرفها فى جميع آلاتها وطبعا بهاجلة كتب .

ولم يجد أداة حية لتحقيق فكرته أوسع من المطبعة ، واستجابت حلب لهذه الفكرة أو لهذه الرغبة التى بذر بذورها حلبيون ، فكانت الشهباء من أسبق الممالك العثمانية فى تأسيس المطابع ونشر الكتب وإن كانت الطباعة فيها اليوم تأتى فى الدرجة الخامسة أو السادسة بالنسبة لمطابع مصر وإن أقدم البعض على تأسيس دور حديثة للطباعة تجارى التطور الطباعى فى الشرق .

ونعود إلى موضوعنا فنقول أن جريدة « الفرات » كانت ثمرة من هذه الثمرات التى مهدت للطباعة أن تؤسس فى بعض الممالك العثمانية .

ولم تكن « الفرات » هى الجريدة الوحيدة التى صدرت فى تلك الفترة ، بل صدرت أكثر من جريدة ونشرة ، فانتقلت الصحافة من نطاقها الرسمى إلى النطاق الحر ، أصدر هاشم العطار سنة ١٨٧٧ جريدة « الشهباء » بالاشتراك مع عبد الرحمن الكواكبى ، وكانت صدى المنازعات الحرة ، وكان من محرريها ميخائيل الصقال . فلم يكد يصدر عددها الثانى ، وفيه مافيه من الغمزات واللمزات حتى أصدر الوالى كامل باشا أمره بأغلاقها ، ولكن هذا لم يثن الكواكبى عن عزمه فأصدر جريدة ثانية باسم « الاعتدال » طلبوا إليه أن يسلك طريق الاعتدال فى نهجه الصحفى ولكن أنّى لهذا الثورى الحر الذى نصب نفسه لمقارعة الطغيان أن يكون معتدلا ، فلم يكد يسمح له بإصدار « الاعتدال » حتى أخذ يسلك نفس النهج الذى سلكه فى جريدة « الشهباء » .

وهنا رأت الحكومة أن لا مناص من أقفالها فأقفلتها نهائياً بعد أن عطلتها ثلاث مرات .

وظلت حلب فترة طويلة بدون صحافة حرة إلى أن أعان الدستور وأبيحت حرية القول بمقدار ، فصدرت عدة جرائد تعبر عن النزعات الحبيسة . صدرت «الحوادث الداخلية» لنجيب كنيدر، وحلب «الشهباء»

لنافع طلس ، وصدى الشهباء ، لحكمت ناظم وكامل الغزى ، « التقدم » لشكرى كنيدر ، و « الخطيب » لعبدالقادر جنباز و « الشعب » لليون حمصى وعدة جرائد لم تكد تصدر ويرتفع صوتها حتى تخفت كجريدة « الكشكول » و « لسان الأهالى » و « تنوير الأفكار » و « المسرح » و « الصدق » و « العفريت » وغيرها من تلك المهازل التى كانت صدى لدعم أشخاص كانوا يتخذونها وسيلة للسيطرة وبسط النفوذ . .

وبالإجمال كانت أكثر تلك الصحف كالفقاقيع لم تكد تظهر حتى تناثرت واستحالت هباء تذرُوها الرياح . عاش بعضها شهوراً وبعضها أسابيع وأكثرها أياماً وساعات .

ولم تبق من جميع هذه الصحف سوى « التقدم » لأن صاحبها صحفى وكاتب ، اتخذ الصحافة هوايته المفضلة فى الحياة ووسيلة لدعم فكرة ، فكتب لجريدته البقاء ، ولم تتوقف إلا خلال الحرب الأولى . .

* * *

وخلال تلك الحرب ظلت حلب بدون جرائد ، ثم نقل الأستاذ طه المدور صاحب جريدته «الرأى العام» من بيروت إلى حلب على أثر انتشار المجاعة فى لبنان ، وكانت الجريدة لسان حال السفاح جمال باشا .

* * *

وما كاد الحلفاء يدخلون سورية فى عام ٩١٨ ، وتؤسس الحكومة العربية حتى توقفت « الرأى العام » وصدرت عدة جرائد عربية الروح والاتجاه كان أقواها وأكثرها ذيوعا وانتشاراً جريدة « العرب » لسامى السراج و «الراية» لمنيب الناطور و«المصباح» لعبدالودود الكيالى ، كما صدرت « حقوق البشر » لعبد الحميد الجابرى و « الوطن » لشاكر نعمت الشعبانى و « الصاعقة » لشفيق طوبجى و « النهضة » لصبحى البصمجى » و « البريد السورى » لفاضل أسود ، واستأنفت « التقدم » صدورها .

وبدخول الافرنسيين سورية وتقلص حكم فيصل توقفت « العرب » و « الراية » و « المصباح » لأنها كانت تدعو إلى حركة عربية تحريرية وتقاوم الانتداب الافرنسي بشدة وظلت بقية الجرائد فى سيرها متمشية مع سياسة الانتداب التى فتحت المجال لغير واحد لإصدار الصحف لتكون إلبا على الأمة فصدرت « الأمة » لبطرس معوض و « الترقى السورى » لبها الكاتب و « الوقت » لطاهر سماقية و « الآمال » لصديق صندوق ، وافسح المجال لغير واحد من الأتراك اللاجئين الذين طردهم مصطفى كمال أن يصدروا فى حلب جرائد تركية فصدرت « شفق » لشفيق زكريا و « دوغرويول » أى الطريق المستقيم لجلال قدرى وبعض جرائد أرمنية « أريوللك » وغيرها وغيرها .

وهكذا فقد خفت الصوت الوطنى إلى أن صدرت جريدة « سورية الشمالية » لانطوان شعراوى ، وهو كاتب أديب ، مرح الروح ، جرىء ، جعل من جريدته منبراً للصيحات الوطنية ولنقد تصرفات الموظفين فلقى من سلطات الانتداب الكثير من العنت .

كما صدرت الميثاق لأمين ميسر وشرف الدين الفاروقى و « الاتحاد » لمحمود وهبي و « الجهاد » لمحمد فهمى الحفار ، و « الأهالى » لشاكر نعمت الشعبانى وكانت هذه الجرائد مختلفة الميول وهى إلى سياسة الاعتدال أقرب منها إلى العنف فى معالجة القضايا العامة ، وكانت تتحاشى التعرض لسياسة الانتداب ، وكان بعضها إلبا على رجالات «الكتلة الوطنية» الذين يقارعون الانتداب .

ثم تعاقب صدور الصحف ولا سيما سنة ١٩٣٦ ، خلال عقد المعاهدة الافرنسية السورية ، فصدرت « الشباب » لمحمد طلس و « النذير » لأحمد قنبر « والحوادث » لحسين الشعبانى و « الاصلاح » لحسن عبد العال ، وهى جرائد سياسية بعضها ذات لون حزبى وبعضها مستقل ، وكانت « الشباب » و « النذير » تعبران تعبيراً صادقا عن آراء رجال الكتلة الوطنية ، كما صدرت

اللواء — أسبوعية — لإدوار نون — ويريد باللواء لواء الإسكندرون الذى اغتصبه الأتراك ، و«التربية» لعبدالسلام الكاملى «وبرق الشمال» لنقولا جانجى وكانت تصدر أيام الانتداب بالإفرنسية و « الوطن » لعبد الرحمن أبو قوس و « الميزان » لعدنان محى الدين ، وما تزال هذه الجرائد تصدر إلى يومنا هذا عدا جريده « اللواء » التى توقفت عن الصدور .

هذا ، وقد عرفت حلب عدة مجلات أدبية منذ الحرب العالمية الأولى إلى يومنا هذا ، منها « الشعـــلة » لفتح الله قسطون و « الحديث » لسامى الكيالى و « الاعتصام » لعون الله الإخلاصى ، و « الشهباء » لأغناطيوس سعد وهما مجلتان دينيتان أحدا هما إسلامية والثانية مسيحية و « الجامعة الإسلامية » لعلى الكحال و « الضاد » لعبد الله يوركى الحلاق و « السنابل » لفيكتور كالوس.

وقد قامت هـذه المجلات الفكرية بنصيبها من إشاعة الثقافة العامة ومجاراة التيارات الحديثة .

* * *

هذا إلماع سريع عن الصحف التى صدرت فى حلب منذ القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا .

وبذلك تكون حلب قد عرفت ألوانا مختلفة من الجرائد بلغات أربع : العربية ، التركية ، الأرمنية ، الإفرنسية ، ولا نريد من هذه اللمحة أن نشير إلى إتجاهات هذه الصحف ونزعاتها ، فهذا ما يخرج عن نطاق موضوعنا الذى قصرناه على السرد التاريخى ، ولا سيما وللصحافة ، الأدبية منها بصورة خاصة ، دورها غير المنكور فى حركة الأدب .

* * *

بين فترتين

صراع بين القديم والجديد ـ الاستجابة
لتيارات الأدب الحديث ـ مفهوم
الأدب ـ أدباء معاصرون

— ١ —

ننتقل الآن إلى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ كانت فترة تطلع وتوثب وانطلاق .

جيل جديد ، نشأ على أصداء الحرية وحلم الوحدة العربية .

الصحافة الحرة ترسل صيحاتها عن البعث القومى المنتظر — بعث العرب بعد رقادهم الطويل .

صراع بين الروح العربية المنطلقة ، المتفتحة . . وبين قوى الاستعمار التى تحمل فى أطوائها الحديد والنار .

كان كل شىء فى فورة وجيشان .

وكان لابد للأدب إزاء هـــذه الانطلاقات من أن يعبر عن مكنونات النفوس .

يرسم هذه الأصداء التى تنطلق من الأعماق — الأصداء التى ترددها الأفواه والحناجر فى سبيل الحرية والسيادة .

نعم ، كان لابد للأدب وهو المصوّر لخلجات الحياة ، من أن يرسم بعض هذه الخلجات .

وككل فترة انتقال يجب أن يعقبها صراع بين المتمسكين بالقديم والمستجيبين للجديد .. وإن تختلف منازع أدباء هـذه الفترة عن أدب من تقدمهم — أدب المديح والهجاء والغزل والرثاء .

وقد عرف الأدب العربى ، فى العقد الثانى من القرن العشرين ، هـذا الصراع العنيف الذى بدأته مصر فكان ثمة فئة تتمسك بالأدب القديم وفئة ترى أن لكل عصر لونه الأدبى الجديد . . أى لابد من الخروج على الأساليب القديمة وإبداع أساليب جديدة تعبر عما تحسه وتشعر به أصدق تعبير .

وكان أهون ما يطلبه دعاة الجديد أن لا يشغل الأدباء أنفسهم بالمحسنات اللفظية ، ولا بتنميق العبارات ، ولا بالتورية والجناس والسجع مادة أدب عصر الانحطاط .

وقد رأينا هذا الصراع يشتد بين أعلام الأدب القدماء والمحدثين ، بين الرافعى وطه حسين . . ثم بين الأديب الفلسطينى خليل السكاكينى وبين الأمير شكيب أرسلان .

كان جميعهم ، إلى خلافهم فى المنهج ، يتشددون فى الحرص على سلامة اللغة ، وإن زعم الرافعى مثلا أن المذهب الجديد فى الأدب ليس فى حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف فى اللغة والأدب العربى ، وقوة فى اللغة والأدب الأجنبى . . وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد ، إنما هم — يقول الرافعى — قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم ، وأخذوا بنصيب موفور من لغة الإفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم فى هذه اللغات والآداب وضعفهم فى اللغة العربية وآدابها ، مصدر تورطهم فى فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد ، وإنكارهم للمذهب القديم ، ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ، ولوناً من ألوان الغرور بأنفسهم أيضاً .

ويرد الدكتور طه حسين على الأستاذ الرافعى بقوله :

إنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار الجديد ، فبعض أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم فى اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها . . فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ ، كما يستطيعون أن يفهموا فولتير . . وإذن ، فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفاً ، وليس اعتذاراً لأنفسهم ، وليس تعصباً للآداب الأجنبية التى تفوقوا فيها .

فالأدب الجديد ليس قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب .

وإنما هو قائم على شىء آخر غير هذا كله — قائم على الفهم قبل كل شىء ،

قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون مالا يحسه أنصار المذهب القديم ، ويشعرون أنهم يحيون ، فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس ، يعيشون مع الجيل الذى هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية[1] .

ولا يرضى هذا الكلام الأستاذ الرافعى فيصر على اتهام زعماء التجديد بالجهل ويطلب إليهم أن يتعلموا الأدب العربى من جديد ؛ وأن يسلكوا فيه سبيل القدماء .

وليس هذا فقط بل حذرهم أن يدخلوا فى اللغة والأدب ماليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لأن اللغة موروثة ، وهى ملك للملايين من الأعمار ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب أن نتقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئا من عند أنفسنا :

ويرد عليه الدكتور طه مرة ثانية بقوله :

إننا نخالف الأستاذ كل المخالفة فى هذا الرأى ، ونسمح لأنفسنا بأن نرى رأيه عقماً ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا فى هذه اللغة التى نتكلمها ، ونتخذها أساساً للفهم والأفهام ، حظاً يجعلها ملكا لنا ، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها ، كلما دعت إلى ذلك الحاجة ، أو قضت ضرورة الفهم والأفهام ، أو كلما دعا إليه الظرف الفنى ، لا يقيدنا فى ذلك إلا قواعد اللغة العامة التى تفسد اللغة إذا تجاوزناها فليس يمنعك أو يمنعنى أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً ، أو ندخل فيها أسلوباً جديداً ، مادام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا أصلا من أصول اللغة ، أو يخرجا بها عن طريقها المألوفة . ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها يضيفون إليها ويدخلون فيها ، لما نمت اللغة ، ولما شاعت ، ولما استطاعت أن تفى بحاجات أهلها ، التى تتجدد وتتنوع بتجدد الأزمنة ؛ وتبدل الظروف[2] .

(١) حديث الأربعاء ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٣١ .

وكانت بداية هذه المعركة أن الاستاذ الرافعى نشر فى جريدة «السياسة» رسالة بعنوان « أسلوب فى العتب » نحا فيها منحى أدباء العصر الخامس والسادس الهجرى . . فلم يرق للدكتور طه هذا الأسلوب العقيم ، وكان من أثر هذه المناقشات الحادة أن حددت وجهات نظر كل فريق ، فكان أدباء متمسكون بالقديم على علاّته ، وأدباء مجددون يستجيبون لتيارات العصر ويجعلون اللغة أداة طيعة للتعبير عن نزعاته واتجاهاته .

* * *

وكان ممن دخل غمار هذه المعركة الأديب الفلسطينى خليل السكاكينى بمقال بعث به إلى جريدة « السياسة » تناول فيه الأساليب القديمة والأساليب الحديثة ، أى تناول الأطناب الذى يخضع كثير من الكتاب لحكمه ، بما يحشرونه فى كتاباتهم من المترادفات ، وقال بوجوب تطور اللغة العربية باعتبارها كائنا حيا يخضع لنواميس التطور .

فلم يكد ينشر مقاله الذى غمز به أسلوب الأمير شكيب أرسلان حتى انبرى الأمير يرد بمقالات طويلة دافع بها عن أسلوبه الذى اعتبره صورة حية من الأساليب العربية الفصحى ، وقد عد الأطناب والمترادفات التى تأتى فى مواضعها مما يزيد الكلام روعة وجمالا .

واستشهد على صحة مذهبه بآيات القرآن الكريم وبأقوال أئمة البلاغة وأساطين البيان والأدب فى العصور الاسلامية الأولى ، ومما قاله الأمير أرسلان .

« إنه لا يعرف فى الأدب قديما ولا حديثا ، ولا يود أن يعرف غير أن هناك لغة فصحى لا يقف أمامها شىء — لغة حية قادرة أن تخضع لناموسها كل تعبير أو كل رأى حديث » .

وكان لرأى الأمير شكيب دلالته العميقة فى التوفيق بين المذهبين ، لأنه لم يتنكر لفكرة تطور اللغة ، كما تنكر لها الأستاذ الرافعى . .

وظلت نيران الخصومة محتدمة الأوار مـــدّة طويلة بين القدماء والمحدثين وبين الأدباء والشيوخ ، أفاد منها الأدب العربي فوائد جمة ، أقلها تطور الأسلوب الأدبي واستيعابه لأدق الفكرات . وقد فتح باب الاشتقاق والتعريب على مصراعيه حتى أصبحت اللغة العربية ، كما قلت ، أداة طيعة للتعبير عن الكثير من شتى نزعات العصر واتجاهاته ، وعربت الكثير من الاصطلاحات العلمية ، مما لم تعرفه العربية من قبل .

وكان للأدباء المجددين أثرهم فى تطور الفكر العربى ، وفى دفع العربية نحو غمار جديد ، وفى نقل التراث الحضارى بشتى ألوانه إلى ساحة اللغة العربية بأسلوب صحيح ونهج قويم .

* * *

وحين هدأت ثورة الجدال بين الأدباء المتمسكين بالقديم على علاته ، وبالذين ساروا بالحياة فى طريقها المعبد كانت موجة التجديد قد غزت العقول والأفهام . . .

وكان القدماء قد تلقوها على أنها موجة طاغية تمس عقول النشء وتقذف بهم إلى جحيم الألحاد — وكانت كلمة التجديد وما تزال ترافق عندهم كلمة الألحاد — بينا تلقاها الشباب الذين أخذوا بحظهم من الثقافة — تلقوا موجة التجديد على أنها النهج الصحيح لتنقية العقول والأفهام من الرواسب والخرافات .

وكان لتلك الخصومات العنيفة صداها فى نفوس المعنيين بشئون الفكر فى شتى الأقطار العربية . . . ومنها حلب ، عاصمة الأدب فى عهـــد سيف الدولة . .

ونقلت مجلة « الحديث » صدى هذه النزعات بأمانة وصدق ، فكان لهذه الاتجاهات أثرها فى عقول الشباب وعقول الأدباء والشعراء بصورة خاصة .

وسنحاول أن نلم إلمامة سريعة بالأدباء الحلبيين . الذين تأثروا باتجاهات

الأدب الجديد والذين ما زالوا يكتبون وينظمون ويؤلفون .. كل واحد في النهج الذي ارتسمه لنفسه .. ومنهم تتألف نهضة الأدب المعاصر في حلب .

وسنرى أنهم أصدق في التعبير عن خلجات نفوسهم ، وعن طبيعة زمنهم ، وعن همسات وطنهم ، ومشاكل مجتمعهم ممن تقدمهم من أدباء القرن التاسع عشر .. ومرد ذلك أن مفهوم الأدب قد وضح لهم أكثر مما كان واضحاً في ذلك العهد المنصرم . وكانت أغراضه لم تعد المديح والهجاء ، والتشبيب والغزل والرثاء كما أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة ، وكان الرأي سائداً إذ ذاك أن من لم يحسن قرض الشعر ولو ملحوناً لا يمكن أن يعد أديباً بالمعنى الصحيح . ومع ذلك فقد كشف لنا أدباء ذلك العصر ، على قلتهم وإقلالهم ، عن نواح كثيرة ، ونزعات عدة تتعلق بالحياة والاجتماع في الشهباء . وبالأفكار والمشاعر المتسلطة على سكانها ، فمنهم من أبان عن الروح الدينيه المتغلغلة في نفوس الشعب . ومنهم من كشف عن الحقد الكامن ضد عسف الولاة والحكام ورجال الدين ، ومنهم من أظهر القلق الذي كان يساور الطبقة الفنية الشحيحة ، المحافظة تجاه خروج بعض أفرادها على التقاليد ، وثورتهم على النظام والعادات ، ومنهم من أرانا بعض المحاولات لقطع الصلة بين القديم والجديد ، ومنهم من نادى بتحرير المرأة أو دعا إلى طرح التعصب وبذر بذور الشقاق ، ولكن كل هذه المحاولات كانت تجرى في محيط خاص ، ولها صبغة محلية بحتة ، وهي محصورة ضمن نطاق ضيق من التجربة [1] .

وكما كان وضع الأدب هكذا في حلب ، كان كذلك في بقيه الأقطار العربية فما كاد القرن العشرون يطل حتى كانت النهضة الأدبية قد استقامت وسارت في طريقها ، ووقف الأدباء على آداب الفرنج ، فولد ذلك فيهم

---

(١) يوسف شلحت ، مجلة الكلمة ، العدد الخاص عن الحمصي ص ١٢٠ .

الميل إلى الأساليب الدقيقة ، المتينة ، السهلة ، والكتابة فى الأغراض العامة ، ومساواة اللفظ فى السجع والأطناب [٢] .

— ٢ —

من أدباء حلب المعاصرين الذين سايروا التيارات الجديدة ، وكان أدبهم صدى هذا الواقع الذى تعيش الأمة فى خضمه وكتبوا تجارب ذاتهم وتجارب مجتمعهم الدكتور على الناصر ، عمر أبو ريشه ، خليل الهنداوى ، سليمان العيسى ، شارل الخورى ، شكيب الجابرى ، سامى الدهان ، أسعد طلس ، عمر أبو قوس ، قدرى القلعجى ، عبد الرحمن أبو قوس ، وغيرهم وغيرهم ، وقد توزع إنتاجهم الفكرى ، فمنهم من قرض الشعر ، ومن كتب القصة . ومن عالج الرواية ، ومن التفت إلى الدراسات الأدبية وبحوث التاريخ وشئون اللغة.

وسنلمع إلى شعر الشعراء ، وأدب الكتاب ، وبعضهم فى بداية الطريق يؤلف وينتج . . منهم من نشر إنتاجه ومنهم من لم ينشر شيئاً من أدبه ، وجميعهم يؤلفون نهضة حلب الأدبية المعاصرة . .

وابدأ كلامى بالحديث عن الشعراء . . ثم عن الذين عالجوا القصة ، فالذين اجتذبتهم الدراسات الفكرية ، فالذين اجتذبتهم الجامعات إلى رحابها ولهم مشاركة فى الأدب والشعر وفى غمار حياة السياسة والفكر .

وبذلك نكون أعطينا صورة صادقة عن الحياة الأدبية خلال هذه الفترة التى مرت من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى يومنا هذا .

— ٣ —

فنحن حين نقلب ديوان شاعر من شعرائنا المعاصرين ونقف وقفات طويلة أو قصيرة عند شعرهم ، أريد الموضوعات التى يطرقونها ، لانجد تلك

---

(٢) أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربى ص ٤٢١ .

القصائد التى نجدها عند الشعراء القدامى من مدح إلى فخر إلى نسيب إلى هجاء بل نجد مقطوعات من الشعر ذات ألوان جديدة هى صدى إحساس ذاتى . وكأنما الشعراء المعاصرون قد هجروا ، أوهجر أكثرهم ، ذلك النهج ، وأخذوا يبحثون عن ذاتهم ، ، يصورون عواطفهم ، يعيشون مع الطبيعة بشتى ظواهرها الباسمة وألوانها المتجهمة ، وقد يتفلسفون ، ولا يمنعهم هذا أن يعرضوا إلى مشاكل مجتمعهم ومشاكل وطنهم . . وإذا هم يعيشون واقعهم الذى يغاير كل المغايرة واقع من سبقهم من الشعراء .

من هؤلاء الشعراء

الطبيب على الناصر

وهو شاعر له عالمه الخاص — الطبيعة والكتاب والمرأة — من هذه الينابيع الثلاثة الثرة ، ومن ذاته ، يستمد مادة شعره . .

وهو صادق الوصف فى تصوير حالاته ، لا يعرف الكذب ولا اللعب بالألفاظ . .

وفى شعره دائما هذه الألوان المتباينة من نفسه المتشائمة تارة ، والمبتهجة تارة أخرى .

قد يكتب أنانيته الشرهة فى الحب كما فعل فى قصيدة « الإحتراص » دون أن يجد فى ذلك أية غضاضة ، لأنه مؤمن بشىء أسمه « الواقعية فى الأدب » ، وإن شذ فى ذلك عن رسالة الأدب بمدلولها العميق التى تميل فى هذه الحالات إلى الرمز . ولكن نزعته البودليرية — وهو من أتباع بودلير — هى التى قادته إلى هذا الطريق وهذا الذى دفع العقاد أن يطلق عليه لقب بودلير الشعر العربى » .

أصدر عدة دواوين كلها تتحدث عن ذاته وميوله ، وعن هواجسه وآرائه فى الكون والحياة ، وفى الطبيعة والبشر . .

وشعره ذو نغم خاص يمثل لونا من وحدته الصارخة ، ومن شذوذه أحياناً — وهو شذوذ الشعراء الذين يعيشون مع شياطينهم فى عالم مملوء بالرؤى والأسرار — كما يمثل نفحات من إيمانه بالمثل العليا .

يكتب النثر كما يكتب الشعر ، وقد لا تجد فى نثره ولا فى شعره إشراقة الأسلوب ولكن تلمس حرارة الشعر ، ووهج العاطفة ، ودفق الإحساس .

وربما كان فى طليعة الشعراء المحدثين الذين ثاروا على الوزن والقافية ودعوا إلى تحرير النظم من هذه القيـــود ، وإلى إرسال الكلام إرسالا لا يتوخون فيه إلا أن يكون منبعثا عن الشعور ، ذا وقع فى الأذن ، وذا جرس على الأسماع .

وبالرغم من اتجاهه هذا لم يستطع أن يحرر نفسه من قيود الوزن ، ومن عبودية القافية فى الكثير من قصائده .

وصفه أمين الريحانى حين أصدر ديوان « الظمأ » عام ١٩٣١ بقوله :

« إن أفق شعره ليحيط بنزعات متعددة ، متباينة ، وبأساليب هى عنفوان الفتوة ، متنوعة البذور ، منها زاهر ، ومنها ما يزال فى البراعم والأكمام ، وله نهمات فظيعة ، ونفحات شذاها من البنفسج والياسمين ، ومن العجيب أن الذئب والغزال يرعيان قلبه ، ولا يتعدى الواحد غابه وحماه » .

ومن دواوينه المطبوعة : « قصة قلب » ، « الظمأ » ، «السريال» بالاشتراك مع أورخان ميسر ، قصة « البلدة المسحورة » .

وله ديوا بعنوان « الأغوار » قيد الطبع .

وأصدر أخيراً رسالة بعنوان « دنّ الدموع » ، صور فيها الهجسات الإنسانية التى يحسها المفكرون فى مصطرع الأهواء . . أى صور هذا الصراع بين المادية والمثالية ، بين موقدى الحرب وأنصار السلام فجعل من الإنسان هذا الشيطان المارد الذى لا يعرف فى سبيل أمجاده الكاذبة سوى إثارة الأحقاد وحلق الضغائن ، والركض وراء المطامع وزجّ البشرية فى اتون النار . . .

. . .

وبالرغم من روح التشاؤم التى تسود عناصر هذه الرسالة التى جعل منها ملحمة من ملاحم الأدب الرمزى — ولا يصدق عليها هذا الوصف — فأن نزعة الخير تطغى فى النهاية ، على روح الشر . . وهذا ما يهدف إليه الشعراء الذين يعيشون فى أبراجهم العاجية تتأكلهم الوحدة المضنية التى تلهمهم مختلف الهواجس والصور .

وعلى الناصر من صميم هذه الزمرة .

عمر أبو ريشة

شاعر الشباب ، وشاعر الحب والجمال ، عرف بوقدة الحس ودفق العاطفة وجموح الخيال ووفرة التلاوين .

نظم الشعر فى سن مبكرة ، وقد شب وسورية فى نضال دام مع الإفرنسيين . والشرق فى ثورة لاهبة ضد المستعمرين ، فكان لذلك أثره فى نفسه ، واتجه شعره إلى تصوير كفاح الأمة العربية ، وكفاح الشعب السورى بصورة خاصة ، وكان له فى كل مناسبة قصيدة كبرى .

لم يكن شعره القومى هو الذى ميزه على شعراء الشباب بل هذه الجدة فى تصوير خلجات النفس ، ونبضات القلب ، فهو مصور بارع ، يضفى على الفكرة ثوبا جميلا من ألفاظ مختارة ذات أضواء وتلاوين . ويعتبره خليل الهنداوى سيد الصورة الشعرية ، ذات الأستار الاستعراضية المتداخلة بعضها فى بعض ، وهى صورة غنية بالظلال ، زاخرة بالألوان[1] .

كما يأخذ عليه البعض ضعف لغته ، وحاجتها إلى المتانة والصقل ، ويقولون : « إن له لغة خاصة به ما يفتأ يكررها فى كل قصيدة ، وهو يصب ألفاظه فى قوالب لفظية تغلب على شعره وتطبعه بطابع خاص ، وان رفعها الخيال إلى سماء عالية ، إلا أنها تحتاج إلى متانة وصقل[2] .

---

(١) مجلة الرسالة اللبنانية العدد ٤ السنة ٣٢ .

(٢) كتاب الأدب لنعيم الحمصى وصبرى الأشتر ص ١٤٤ .

وبالرغم من ذلك ، فقصائده مفعمة بدقة الحس ، وقوة الخيال ، وروعة الفن، فقد أوتى صاحبها من قوة الخيال وبراعة التصوير ما جعله يبدل المرئيات، ويقلبها إلى صور رمزية يفوح منها شذى الحب والحنين .

فكأنما الطبيعة عنده مسرح صور متحركة أو رمز سحرى لرؤى أحلامه المعذبة .

فهو لا يرى فى الأشياء إلا نفسه ، ولا يجد فى حياة الأكوان إلا ما يجده فى نفسه من الفرح والحزن ، والرغبة والأمل والقلق والشك واليأس [1]

وقد برع فى شعره الغزلى حتى كاد يبز صنوه عمر ابن أبى ربيعة ، وربما فاقه فى تعابيره عن الشهوة الحسية الصارخة ، ولديه من هذا الشعر محصول كبير لم ينشر ، وهو يؤلف ثروة فى الأدب المعاصر ، وقد يحول مركزه الدبلوماسى ، وتقدمه فى السن دون نشر مقطوعاته الحسية التى تصور الكثير من حالات وجده ومجونه .

إنه يقص صبواته قصاً حياً .. فمن التجارب الشعرية التى يمكن أن نسميها بالقصصية من باب التجاوز قصيدة « مصباح وسرير » فهو يقص حكاية حبيبة هجرته طويلا ، وفى عودته ، وجدها فى داره ، نائمة على سريره ، فبهت لهذا المشهد الغريب ، وقارىء هذه القصة ينتقل إلى جو الشاعر ويعيش معه ، ويتأثر بانفعاله وإشراقه ، ولو لم يتفق معه فى مجونه ، ولكنه لا يستطيع إلا أن يمجد فيها الفن . ويعفو عن مغامراته ويبتسم ابتسامة الفن للهفاته العارمة [2]

سعيت لحجرتى قلقا ... وجنح الليل معتكر
وأوهامى مخبلة ... أحركها فتستعر
وأحلامى أشاهدها ... على قدمى تحتضر
فلا حبى له أثر ... ولا هند لها أثر

---

(١) الدكتور جميل صليبا ، مجلة المجمع العلمى العربى المجلد ٢٣ ج ٢ ص ٢٨٨ .
(٢) الشعر المعاصر للسحرتى ص ٣٤ .

إذا ذكرت تطاير من جهنم مقلتى شرر
وخلت بردتى أفعى على جنبيّ تنحدر

* * *

بلغت الباب والضوء الـ ضعيف بثقبه يبدو
وما أطبقته حتى اقشعر الشعر والجلد
رأيت وليس بى سكر ولا فى مقلتى سهد
رأيت على سريرى قد غفت هند .. أجل هند
فذلك قدّها العارى وذلك شعرها الجعد
أعادت ؟ بعد ما فصمت عرانا ومحى الودّ

* * *

وقفت وخافقى يشتد بين جوانحى وثبا
وهند لم تزل تغفو وتنهب صبوتى نهبا
أما نفضت يديها من غرامى وانثنت غضبى
ألم تعطف على غيرى ألم تخلص له الحبا ؟
علام أتت .. أتحسب أن سيمحو قربها الذنبا

* * *

رجفت ومقلتى جمدت على فياضة الأنس
وبى منها ذهول قد طغى من هوله هجسى
فثارت بى عواطف بل عواصف حبى المنسى
فسرت .. للذة اللقيا وللتقبيل واللمس
ولما لا مست كفى الـ سرير ضحكت من نفسى
وسالت دمعة أودع ت فيها منتهى حسى

* * *

وله مقاطع لم تنشر كما قلت ، وهى أكثر واقعية من هذه المقطوعة ، فى وصف مجونه وشهواته الحسية ، وربما كان فى طليعة الشعراء الإبداعيين ، الذين تناولوا اللذات الجنسية فى شعرهم ، وقد فتح الباب للكثيرين من شعراء الشباب لينهجوا نهجه كان فى طليعتهم نزار القبانى الذى فاقه فى الوصف وغيره وغيره من الشباب الذين كانوا يتحرجون من كتابة هذه التجارب الحسية .

* * *

من دواوينه المنشورة « مسرحية ذى قار » و « مسرحية الطوفان » و « شعر » وقد ضم ديوانه هذا الكثير من قصائده القومية وقصائده الوجدية

وله مسرحية « محكمة الشعراء » وقد صور فيها هواجس الشعراء المعاصرين وما تفيض به قلوبهم ونفوسهم من لمحات ونزوات ، ومسرحية « سميراميس » وقد تجلت فى فصولها قوة الشاعر وعمق تخيله ، ورهافة حسه ، وقدرته على عرض أساطير الماضى بصوره الحية وأسراره الغامضة .

والمسرحيتان لم تنشرا بعد ، وقد نشر بعض فصولهما فى مجلة « الحديث » ومن تصاميمه نظم « ملاحم البطولة فى التاريخ الإسلامى » وهى فى اثنى عشر ألف بيت . . نظم بعض فصولها ثم توقف .

وله شعر كثير عن دنيا الواقعة والحياة . . . وهو يستوعب أكثر من ديوان واحد ولاسيما الشعر الذى يصور واقع الأمة العربية فى كفاحها الدامى ضد المستعمرين .

* * *

خليل الهنداوى

أديب مشرق الأسلوب ، واسع الثقافة ، مكنته مهنة تدريس الأدب العربى فى المدارس الثانوية خلال ربع قرن كامل أن يحيط إحاطة شاملة بالأدب العربى القديم ، وأن يعيش حياته فى أجواء الأدب الحديث ، وأن يكون على اتصال وثيق بالحياة الأدبية العالمية . وأن يكتب ويترجم — كتب المقالة الأدبية ، ونظم الشعر ، ووضع المسرحية القصيرة ، وألف كتباً مدرسية وغير مدرسية فى الأدب . فكان فى جميع محاولاته من الأدباء المرموقين.

من كتبه المدرسية المتداولة :

نصوص مدروسة فى الأدب العربى .

أما الكتب التى ألفها وترجمها فهى :

صفحة من حياة باريس — حياة فرانزليست — سارق النار — مجموعة مسرحيات قصيرة — هاروت وماروت — إرم ذات العماد — قصة خيالية — نيتشة : حياته وفلسفته — شوبان : حياته وفنه .

ولديه كتب لم تنشر أبرزها : تطور النقد فى الأدب الفرنسى .

تمثيليات ومقالات شتى نشرت فى كبريات المجلات العربية ، ديوان شعر

وما يزال الأستاذ الهنداوى فى طليعة أدباء حلب الذين يجارون تيارات الأدب الحديث فى شتى قضاياه ومراحله .

* * *

أورخان ميسر

كاتب أديب يحذو حذو سلامه موسى فى أكثر ما يكتبه ، وتبدو على مقالاته دائماً نزعة التحليل النفسى ، وثقافته السيكولوجية بارزة فى أدبه .

وهو واسع الاطلاع على الأدب الغربى ، وعلى مذاهبه الجديدة ، نشر ، بالاشتراك مع الدكتور على الناصر ، ديوان شعر بعنوان « سريال » ضمنه مقطوعات له وللدكتور الناصر من الشعر السريالى .

وقد كتب مقدمة الديوان بأسلوب علمى تحليلى شرح فيه هذا المذهب الجديد شرحاً وافياً .

ويراد بالسريالية Surrealism — ماوراء الواقعية — تصوير ما يرسمه العقل الباطن ، باصطلاحاته الخاصة من صور يمثل بها واقعه الفردى ممزوجاً بحنين الأجيال التى تحيا فيه .

وقد أعطانا نماذج من شعره السريالى كقوله من قطعة يقول فيها :

تمثلت فى رؤاى
نجمة كلها عين
تشع ألوانا كاللحن
برقعها الشفاف.. رداؤها الفضفاض
تلامس أطرافهما نثار الغيوم

• • •

والفضاء فى صمته القدسى
نشوان
إلا من ومضات لاهثة
تنطلق بين الفينة والأخرى
من نيازك تمر فى حلمه

• • •

تمثال رائع

يحمـــل رأساً كلهـــا عـــين
دخان . بريق يعمى البصر .. ضوضاء
ســـديم يسبح فى صمـــت

* * *

وربما كانت هذه أوضح بكثير من بقية مقطوعات الديوان . . ومع ذلك فهى رموز غامضة ، وكلمات مبهمة ترمز فى ذهنه إلى حوادث وحالات فى حنيات عقله الباطن .

والذى أعتقده أن الأدب العربى لن يهضم هذا اللون من الأدب الذى يقوم على تعابير مفككة يراد أن يؤلف منها قطعة أدبية تعبر عن حالات من الشعور الغامض .

ومقطوعات على الناصر أشد غرابة وأكثر غموضاً ، وربما عجز الشاعر نفسه عن تفسير مغزاها المغلق .

وها كم قطعتين من سرياليات على الناصر

— ١ —

فراش
وسادة
رأس لا يستريح
عين حولاء

— ٠ —

جفن مثقل
رؤية مشوشة
سعادة
الضباب
إله باسم

وإذا صح مايقال من أن أكثر ما يأتينا من الغرب يحور تحويراً فاسداً فإن الشعر السريالى الذى أعطونا نماذج عنه — هو من هذا القبيل .

ولو انصرف أورخان ميسر إلى معالجة القضايا السيكولوجية — وله فى ميادينها باع طويل — لأفاد العقل العربى أكثر من هذه المحاولات العقيمة !

* * *

شارل الخورى

شاعر غنائى ، تأثر بشعراء فرنسا الرومانطيين ، وترجم بعض قصائد سوللى برودوم ، وقد يكون أبعد شعرائنا عن جو المناسبات إلا ما له علاقة بالأخوانيات . .

كتب عن حسه وذاته .. عن الخمر والزهر ، عن الناى والعود ، عن دنيا المباهج واللذاذات . . عن الخدود والقدود . . وعن الليالى الراقصة وجوها الصاخب .

يمتاز برقة العاطفة ودقة التحليل النفسى ، وبساطة التعبير ، وهذه الخصائص هى التى أهلته لأن يكون شاعرا غنائيا ذا طابع خاص .

فالغنائية Lyrisme هى أظهر مميزاته ..

قال عنه أبو ريشة : « شعره رقيق لا أستطيع أن أجاريه فيه» .

* * *

واجه الحياة بثغر باسم وعبّ من رحيقها حتى الثمالة ..

ثم صدمته فانقلب تفاؤله تشاؤما وابتساماته دموعا منهمرة ، وقد صور بعض هواجسه الحزينة ، بشعر تغمره ظلال سوداء .

انتشر شعره فى الصحف والمجلات ، وهو الآن فى سبيل جمع ما تفرق من شعره فى ديوان .

من مقطوعاته الغنائية :

فتنت بكِ
فتون الربيع بسحر الجنـــان
وهمت بك
هيام الطروب بعـــذب الأغانى

***

أصـــلى لك
صـــلاه شقى أضـــاع رجـــاه
وأرنو لك
بعيـــنى تـــقى رنا لســـماه

***

تمرين بى
مرور الجمـــال بمعنى الخيـــال
فلا تحسبى
حســـاب الغوانى بنات الدلال
واخلى لهنـــا

يشعشـــع فى بســـمة لا تزول
فـكل المنى
لذاذات حب مـــداها يطول

**

رسمت على
صحائف حبي ظـــلال الخـــلود
فطيرى إلى
هزار يحلـــق فوق الوجـــود

.

وأصعى إلى
قصيـــد يتمتمه فى هـــواك
ويشدو الملا
أغاريد شـــعر تحي بهـــاك

مصطفى بدوى

من شعراء الطليعة ، عاش حياته فى الحرمان فثـار على المترفين وعلى الـكثير من الأوضاع الاجتماعية التى تجعل للثراء مقامه المرموق فى الحياة .

امتهن التعليم فـكان لسان المعلمين فى التعبير عن شعورهم الوطنى فى هذا الصراع الذى يثور بين العالم العربى وقوى الاستعمار ، وقد جنح أخيراً إلى « اليسارية » فأصبح مع زمرة أنصار السلام يكافح ويناضل بقوة واندفاع .

من شعره القومى الذى يترع بالروح الإنسانيـــة قصيدة بعنوان « حصاد الجلاء »

ياصباحا أترع الدنيـــا جمـــالا
وانفعالا
خالداً يسبـــح فى عطر الحيـــاة
قـــد صنعناه بالآف الضحايـــا
من قلوب ثائرة
ودماء طاهرة
وحطمنا ذلك النـــير الثقيـــلا
ذلك النير الذى أرهقنا دهراً طويلا
يابلادى قد فرشناك دماء ونضالا
وغرسنا فى ثراك الحب معطارا نديا
فزهت أرضك أشبالا ومجداً أبدياً
وهوى الظلم على نعليك ممسوخ المحيا
وتعالى صوتك الداوى قويـا
فى رحاب الكون مرهوباً ينادى
مُطرد الغاصب من أرضى مصفوع الأباء

* * *

ياصباحاً زانه هذا الشباب الزاخر
شامخاً كالطود خفاقَ البنـــود
صامداً مثل جدار من حديد
حاملا فى كفه فجر الخـــلود

* * *

هاهو الجيش وهذا الشعب غذاه
بسيل من دمائه

قـــد تآخوا فى نضال واحد ...
دائب للأبد ساحق للمعتد

***

يابلادى
لن يمر الغاصب المجنون بالأرض سليما
أبداً لن يمرا
سـوف يلقى فيـك يا أرضى قـبرا
وسنبنى فوق أشـــلاء المغـــير
عالم الحب النضير
ونغنى لحننا الصاعد ! عاشت أرضنا
أبد الدهر لنـا
وجناها ملـكنا
وسنبنى عالم المستقبل
عالم الحب الشهى المنهل
ونغنى للسلام العذب ألحان الوفاء
وليمت عهـــد المآسى والشقاء
ولتحطم آلة الحرب ونصليها وقودا
ولتكن «ذراتها» فى متحف الأجيال للنصر شهودا

* * *

وقد أصدر البدوى ديوان شعر بعنوان « أوراق مهملة » ضم قصائد ومقطوعات شتى فى أغراض الحياة . . منها ما هو وجدى . . ومنهـا ماهو قومى إنسانى .

وشعره القومى جمرات من كبد محروقة تنفث اللهب ضد قوى البغى والشر

كما أن شعره الوجدى يمثل عاطفة ملتهبة تتعشق الجمال — جمال الزهرة وجمال النغم .

ويمثل ألواناً من حبه وشوقه فيصف الكأس والنهر والشفاه الدافئة .

لم يزل دفء الشفاه اللعس يسرى فى دمى
وحفيف القبلات الهوج لم يعـــد فمى
وعبير الناهـــد الريان يذكى نهمى
أنا فى دنيـا هـــواها غائب عن عالمى
وفـؤادى دائم التحنان للثـغر الظمى

وهو فى مقطوعاته التى يصف فيها الأمل الغابر والليل الغاصب والهزار السجين — شاعر رومانطى . . وهو صادق الإحساس فى وصفه وتصاويره وتلاوينه فقد سكب على « أوراقه المهملة » أطياف حبه والتماعات سرابه — رسم كل ذلك بريشة حمراء من قلب مضنى عذبه الحب والشقاء .

عبد الرحمن أبو قوس

أديب ، صحفى ، شاعر :

طغت نزعته الصحفية على أدبه وشعره .. وكثيراً ما تطغى شاعريته على أسلوبه الصحفى .

ولو انصرف بكليته إلى الأدب لكان له شأن وأى شأن بين أدباء الشباب ذو نزعة تحررية .. وشعره يجمع بين البوهمية والصوفية معاً

كتب القصة .. ونظم الشعر .. ووضع المسرحية

وهو واسع الأفق فى معالجة مشاكل المجتمع

من دواوينه « ثورة العبيد » ، « باقة »

ومن مسرحياته « لايس » و « طلسم الحياة » و « باخوس » وله أوبريت بعنوان « موكب الفكر » .

ودراسة بعنوان « الرائد الأدبى » عدا كتب رحلاته إلى يوغوسلافيا وألمانيا وهنغاريا ورومانيا .. وآخر كتبه « كنت فى الصين » سجل فيه ظواهر ذلك العالم الغريب الذى تكتنفه الأسرار .. فرصف الصين فى شتى تقاليدها — وصف معابدها وزخارفها ، فنونها وطبيعتها ، بيوتها وقصورها — ماضيها وحاضرها .. ولم يهمل الحديث عن فجر نهضتها ، عن تطورها وثورتها ، عن نضالها وكفاحها ضد المستعمرين الذين ظلوا آماداً طويلة يستعمرونها ويستغلون خيراتها .

وفى كتب الرحلة . . وفى كل ماتخطه يراعته لا يتخلى عن الجو الأدبى والجو الشاعرى معاً .

سليمان العيسى

شاعر ثائر الإحساس ، جياش العاطفة ، جعل من شعره أداة لرسم صور البعث العربى ، وصيحة فى وجه المستعمرين ، وإثارة لقوى الشباب تكون كتلة متراصة لمكافحة الطغيان .

انا فى أعماق قومى صرخـــة تتشظى لا قصـــيد يقرأ
حسب لحن ينتهى فى وترى أنه فى صـــدر غيرى يبدأ

« يتتبع خطى عمر أبى ريشة — فى مسرح معين — ويبدو أنه نذر شعره للنضال الوطنى فى أى مظهر ، وفى أى مكان ، ولا أعلم شاعراً تستجيب له عاطفته بحرارة ودفء وثورة كهذا الشاعر ، وإذا صحت عبارة الفيلسوف الكندى لأبى تمام « أن عقله يأكل من جسده ، كما يأكل السيف من غمده » فإنها لتصح حتى فى هذا الشاعر الفتى الذى « تأكل عاطفته من روحه كما يأكل السيف من غمده » .

ولعل قارئه الذى يحس ، للوهلة الأولى ، أنه شاعر يلون شعره بدم قلبه لا يأخذ عليه تآلف صوره ، وتهافت بعضها على بعض ، لأن المجال الذى اختاره لنفسه ضيق محدود فى نوع واحد ، وإن من تمام المعجزة أن يعطيك الشاعر معجزته فى المجال المحدود ، وإن كانت نفسه تحيا فى اللاحدود »[1]

وتكاد تكون دواوينه كلها سجلا صادقا لثورة الأحرار فى كل بقعة من بقاع العرب من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، فما من حادث قومى إلا وله فيه شعر رائع ينبض من دم القلب ، وتكاد كل كلمة بل كل حرف يتجسد شرراً متطايراً من عينه . أنه يريد دنيا العرب أن تصبح ثورة على الغاصبين لتقوم الوحدة العربية الكبرى .

إنه يذكر فلسطين ، ويذكر مصر والعراق واليمن والحجاز ونجد والمغرب العربى وكل بقعة من بقاع العرب .

فمن قصيدة له يصف ثورة الجزائر التى يراها وقود الفجر العربى الجديد يقول :

لم أزرها هذه الأرض التى تسقى الصباحا
بدمى . . لم أنض كى يولد تاريخى السلاحا
لم أكن خلف الصخور السمر صدراً ، وجراحا
تغسل الترب الذى دنس والبغى الوقاحا
لم أزرها . . هذه الأرض التى مدت جناحا
للأعالى ، ورمت فى الدم للموت جناحا
جرحنا ذاك الذى ينزف ناراً وكفاحا
واحداً . . لم ينقسم إلا ميادين وساحا

---

(١) مجلة الرسالة ببيروت السنة ٣ العدد ٤ ص ٣٧ .

والقصيدة طويلة يختمها بالمقاطع الآتية :-

لم يعـــد فى وطنى ، فى ساحة الفتح « عبيد »
كل صخر خلفه ، لو زحزح الصخر ، شهيد
جاد بالروح اتقاء الذل ، أو همّ يجود
وثبة تومىء للأجيـال . . أنّـا سنعود
شعلا تهدى ، ونبلا جهلت فيـــه الحدود
فى ذرى « الاطلس » فجر راح ينشق جديد
ألف « سفاح » على خفقة البكر يبيـد

* * *

لكأنى أشهد الساعة خودا عربيـــة
تتخطى الصخر ، لا يرهبهـا ومض المنية
تركت فى الدار ، للثورة ، نعشين هدية
ومضت تنـــذر للأحرار للنصر ، البقية
ورأته . . فى الذرى السمراء جرحا وشظية
حلمهـا ، فارسهـا المغوار ، فى الساح رمية
أقسمت ، لا تتخطى دمه إلا ضحيـــة

* * *

أيمـــد الغاصب السفاح فى أرضى ظلالا
وانفجـار النور فى كل مـكان يتوالى
الشموس السود ولى عهـــدها الدامى وزالا
قصة الدنيـا . . لقد أوجزها الثأر نضالا
وشعوبا تنشد الحق رصاصا ، لا مقالا
قصة الدنيـا . . براكين ، ولن تهدا اشتعالا

وعلى الأرض خطى وحش على أعزل صالا

* * *

أيها العبء الذى يجثو على صدر بلادى
أيها المستعمر الماضى . . إلى غير معاد
عبثا تشحذ أظفارك حمرا للحصاد
عبثا تكسب هذى الأرض أثواب الحداد
موجة البعث تنضت . . إنها فى كل وادى —
تتحداك . . جهادا ذاب من نار جهاد
أيها المستمر الماضى . . إلى غير معاد

وسليمان العيسى إلى نزعته القومية اشتراكى المذهب ، وكثيرا ما صرخ فى وجه الأغنياء المترفين الذين لا يحسون بأحاسيس مواطنيهم صرخات مدوية .

فمن قصيدة « الفيلسوف المجهول » يصف حياة المفلوكين بقوله :

مزمارك الشادى على عمقه أعمق منه بؤسنا الكافر
دعنى من الشمس ولألائها وما يضم الفلك الدائر
الشمس لا تعرف أكواخنا ولا سبانا الألق الباهر
وليس ! خلف الطين فى بيتنا إلا الحصير الخلق الدائر
ودوحك الأخضر . لا مورف للجائع الضاوى ولا ساحر
ليت صغارى فى العراء اكتسوا ما يكتسيه الغصن الناضر

* * *

هدى يدى انظر أتلقى سوى حطام جلد يابس فى يدى
سل تربة الحقل ألم أسقها وأروها من جسدى المجهد
وكم تمزقت لهاثا على قبضة محراثى بلا منجد
ما انفتحت عينى على بهجة منذ اجتلى هذا الثرى مولدى
كهفى على ظلمته مطبق والأمس فيه ميت كالغد
من لون الأعمار مذ أنشئت وخصنى بالكالح الأسود ؟

صدرت له الدواوين الآتية « شاعر فى النظارة ، أعاصير فى السلاسل ، مع الفجر ، ملحمة شعرية عن أبى ذر الغفارى ، رمال عطشى . . »

وكلها تصف نضال الشعب العربى وكفاحه الدامى فى سبيل حريته وفى سبيل إنسانيته .

ثمة شعراء هجست نفوسهم بالشعر ، فكتبوا تأملاتهم الذاتية ، وتجارب حياتهم ومشاكل مجتمعهم لم نعرض إلى شعرهم لأن ليس لهم دواوين نرجع إليها . . وقد نزعت نفوس بعضهم إلى التصوف كما نرى فى شعر محمد شعبان فى قصيدته « سبحة المريد » وهى نفحة صوفية بمعانيها العميقة واصطلاحاتها الدقيقة ، تعيد علينا بدائع السهروردى والحلاج وتسمو بالقارىء إلى جو « العشق الالهى » وألحان الإذكار

والقصيدة طويلة — يختمها بقوله :

ما معرج الإشراق فى إمداد قطب أو ولى
لكن بترفيع الشعور للوجود الأزلى
فأطلق الحس إذن من قمقم الجسم البلى
وروض النفس على استكناه ما فى المجهل
وانظر إلى الكون بعين الروح لا بالمقل
واعشق أخى الحق بوجد وهيام يغتلى
وانس الزمان والمكان والـ « أنا » فى المثل
واشطح على جنح التعالى لا تسل واتكل
ففيك حدس يخرق الغيب وسور الأجل
وفيك نور الله فى تكيّف تنزلى
ووحدة القوة فى تجوهر مستكمل
اذكره وسبّح وتقدس واضرع وابتهل

وقل تباركت هدى . الحق بى والحق لى
والهوّ لى وموئلى

ومنهم عمر بهاء الأميرى ، وله رباعيات فى التصوف والأخلاقيات والمجون ، وعمر أبو قوس الذى تناول شعره بعض ظواهر الحياة والمجتمع ، صدر له ديوان بعنوان «حروف من نار» جمع فيه قصائد مختلفة الموضوعات ، تجلت فى بعضها كما يقول شفيق جبرى ، روح شعرية مصقولة مثل القصيدة التى قيلت فى رثاء الملك فيصل الأول ، وتجلت فى بعضها الآخر روح قومية متسقة مثل القصيدة التى جاءت فيها هذه الأبيات :

وما العيد إلا وحـــدة عربية ترف بهـــا أعلامها وبنودها
فطالعها صـــنعاء والبحر دونها وطوروس من أقصى الشمال حدودها
وجيش كموج البحر يزخر هائجاً تضيق به مصر العلى وصـــعيدها
تضمد جرحاه أوانس يعرب وتنجـــده يوم اللقـاء أسودها

وعبد الله يوركى حلاق الذى توزع شعره بين المدح والرثاء وكؤوس الحب ورنات الوتر . . وعلى الزيبق صاحب قصيدة «سامبا» الذى وصف قدسية الحب وعذوبة الحرمان بشعر رومانتيكى رقيق . . فمن شعره قوله :

هنا نحن . . فى ضفة المنحدر على ضـلع أغنية من قمر
نبرعم فى السفح أحلامنـا وأنغامنا . . وهوانا الأغر
لنا النهر نغمره بالخرير لنـا المرج نمرعـه بالثمر
ونمرح أجنحـــة من صباح ونمرح أجنحـة من سمر
ويرشف منا خيـال الصبا وزهو الهـدى . . وحنان الوتر
ونحن من الصحو فوق العيون وفوق القـلوب ربيع نضر
حملنـا على محجرينا الضيـاء وفى راحتينـا نعيم البشر
وسرنا نفجر فى كل درب . . . حنينا . . وأمنيـــة . . وسحر

وغيره وغيره من الشعراء المغمورين ، وأكثرهم براعم ندية فى أول تفتحهم للحياة . .

وقد نعرض إلى شعرهم فى مناسبات أخرى .

* * *

وننتقل الآن إلى عالم القصة ، وقد حاولها أكثر من أديب واحد . . فى طليعتهم الدكتور شكيب الجابرى الذى كتب القصة الطويلة . ومظفر سلطان الذى كتب الأقصوصة ، وكل واحد منهما قد برع فى فنه .

ولشكيب الجابرى ثلاث روايات . . وهى « نهم » و « قدر يلهو » و « قوس قزح » .

ونقرأ فى رواياته صفحات من يوميات تلميذ عاش فى خضم المحيط الأوربى ، ففتن بالكثير من مظاهر حياته ، وجمال طبيعته ، وصخب بوهميته ، ولكنه ظل محاطاً بمناعته ، فلم ينس قط خصائص شرقيته وأصالة عروبته .

وفى روايته « قدر يلهو » و « قوس قزح » وموضوعهما متشابه — « عالج الصراع بين الشرق والغرب فى ضمير رجل واحد . . غير أن الذى يرويه فى الأولى هو البطل وفى الثانية البطلة . . إنها قصة امرأة أجنبية توقظ شعور البطولة ، فى روح رجل شرقى »[1]

أما مظفر سلطان . . فينحو فى أقاصيصه نحواً آخر . . إنه مصور بارع للكثير من النماذج البشرية التى تطفو على وجه المجتمع ، وهو دقيق الملاحظة فى وصفه وعرض شخوصه .

وأسلوبه قوى متين ، غاية فى الدقة والإشراق . . ألا إن عيبه الوحيد أنه يحمّل أقاصيصه الكثيرة من الوصف المتعاظل الذى يبعد القراء أحياناً عن مجرى القصة التى يحملها الكثير من الملتويات ، فنزعته الأدبية كثيراً ماتطغى على نزعته القصصية .

---

(١) سهيل إدريس ، مجلة الآداب ، السنة ٣ ج ٨ ص ٣ .

ولمظفر سلطان كتاب قيم عن « العماد الأصفهانى » وهو أطروحته التى قدمها إلى جامعة القاهرة لنيل شهادة الماجستير وقد نالها بتفوق .

وهناك غير واحد من الشباب يعالجون كتابة الأقصوصة ، ويحاولون كتابة القصة والرواية وهم فى بداية الطريق .

وتدل بواكير إنتاجهم ، وأذكر منهم فاضل السباعى وجورج طرابيشى ، أن لهم مستقبلا حسناً فى معالجة هـذا الفن . وهم يحتذون تيمور فى نهجه القصصى .

* * *

والتيارات الأدبية بشتى نوازعها ، تأخذ طريقها إلى أدباء الطليعة ، فتجذبهم إلى رحابها . . كل واحد حسب ميوله .

منهم من نظم الشعر . ومنهم من كتب القصة . ومنهم من عنى بكتابة المقال أو رجع إلى تراثنا القديم يستجلى غوامضه وينفض عنه الغبار المتراكم كما فعل سامى الدهان .. فقد نشر بمعونة المعهد الإفرنسى بدمشق ديوان الحمدانى . وزبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، وطبقات الحنابلة ، كما نشر ديوان الوأواء الدمشقى بأشراف المجمع العلمى العربى ، ويعهد إليه نشر طائفة من دواوين الشعر ، ولاسيما الشعراء الذين كانت لهم صلة بسيف الدولة وعصره الذهبى ، والدكتور الدهان أديب متدفق الحيوية ، يتابع التيارات الأدبية المعاصرة باهتمام ، ولديه مجموعة من المخطوطات العربية قيد النشر .

وما نقوله عن الدهان ، نقوله عن الدكتور أسعد طلس ، فقد نشر طائفة من المخطوطات منها كتاب « المصائد والمطارد » لكشاجم ، وديوان ابن أبى حصينة وشرحه للمعرى فى مجلدين ، والأوائل للسيوطى ، والكشاف عن ذخائر مخطوطات الأوقاف العراقية ، وذخائر المخطوطات فى إيران ، وثمار المقاصد لابن عبدالهادى والتذييل عليه . وهو معنى بالدراسات الأدبية

صدر له كتاب مدرسي عن المعلقات العشر . . وكتب تاريخ الأمة العربية برسالات تنشر تباعا في بيروت بواسطة إحدى دور النشر

ومن الأدباء الحلبيين الذين اجتذبتهم مباحث التاريخ الأستاذ قدري القلعجي فهو إلى عمله الصحفي ، كتب عدة رسائل عن أبطال الحرية — عن النبي الكريم محمد ، وأبي ذر الغفاري ، ومدحت باشا ، وجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول وغندي . وصلاح الدين الأيوبي ، وصن يات صن ، وروبسبير وكروموبل وغيرهم من الأبطال ، وقد هدف إلى رسم أبرز الصفات عن مناضلين كافحوا في سبيل حرية الفرد وحرية الجماعات .

ومن أدباء الطليعة الذين تتوافر فيهم كل خصائص الأديب الدكتور صالح الأشتر ، شغل بشعر البحتري وحياته وعصره فكتب أوفى تحقيق عنه ، وقد نالت رسالته هذه التي قدمها إلى جامعة السربون إعجاب أساتذته المستشرقين فمنحوه دكتوراه الدولة في الأدب . وهو يعمل على نشر ديوان البحتري نشراً علمياً بعد أن رجع إلى الكثير من الدواوين المخطوطة والمطبوعة وأكثرها مملوءة بالأغلاط .. وقد سبق أن حقق مع ليفي بروفنسال المستشرق الكبير الذي يعنى بالأندلسيات كتاب « إعتاب الكتاب » لابن الأبار .

والدكتور الاشتر شاعر مقل . ولشعره طابع الرمزية .

من شعره قصيدة عنوانها « غروب » يصف فيها حالة من حالات النفس وهي في صراع عنيف من الأهواء ! فقد أدرك وهو في جحيم هذا الصراع أنه يناضل في باطل فأغمض جفنيه واستسلم لغروب شمسه . وقد بدت ، كما يقول ؛ مقاتله لعذاله :

لملمت شمسي أذيال الغروب
وتمطى الليل مسود الخطوب
يرسل الأنة في طيّ الغيوب

* * *

وانتظرنا هدأة الفجر الطروب
ودنان الخمـــر تطفو بالذنوب
ياعذولى أدن من كوبك كوبى
ودع اللـــوم ولا تثر عيوبى
ضعضعتنى لسعة الأفعى اللعوب
ياعذولى لاتلمنى كنت أعمى

* * *

ياعذولى ها أنا ألقيت رمحى
لم أعد أكتم صرخاتى ونوحى
لفّنى اليوم بظل منك سمح
واغتنم لى ساعة فى ظل دوح
نتساقى بين ريحـــان وروح
فعسى النسيان يغرينى بصفحى
وعسى الليـــل يوافينى بصبحى
فأذيب الهم فى أعماق جرحى
يا عذولى لاتلمنى كنت أعمى

وشقيقه عبدالكريم الأشتر يغمس قلمه بدم قلبه حين يكتب ، فهو فى طليعة أدباء الشباب الذين آمنوا برسالة الأدب ، ولأسلوبه هذه القوة التى تفصح عن أدق مكنونات النفوس الثائرة ، وقد عمل فى الصحافة إلى اشتغاله بالتعليم ، فكانت مقالاته صيحات ثائرة ضد هذه الأكاذيب التى يعيش المجتمع على ضلالاتها . .

فمن رسالة له إلى ابنته الصغيرة يصف مراحل حياته ، والأيام السود التى تمر بالشباب الذين يشقون طريقهم وسط خضم المتاعب والأهوال . وهى تصور نزعة من نزعات أدب الشباب الطامح الذى ينظر نظرة جديدة إلى حياة غير مشوبة بالكذب والرياء :

من رسالته إلى ابنته :

يا ابنتى الصغيرة

اسمعى بقية القصة ... ثم شق أبوك طريقه إلى شهادة الدراسة المتوسطة ، وخرج إلى الحياة .. وكان صغيراً فتقدم إلى مديرية المعارف وخضع لهذه التدابير السخيفة الخائفة التى يخضع لها من يرضى أن يبيع نفسه لوزارة المعارف فى بلادنا ، فأجرى عملية تكبير سنه حتى عين فى قرية من قرى حلب ، معلماً لأولادها .

لن أخجل ، يا ابنتى ، سأحدثك مطولا عن أبيك الصغير وهو يقابل الحياة فى القرية وحيداً — وليس معه الصبر — حتى إذا أخفاه الليل فى كوخه البعيد عن جدران القرية ، أخفى وجهه بين وسادته وفراشه وبكى ...

نعم يا ابنتى ، لقد عرف أبوك الدمع صغيراً ، عرف الدمع بألوانه الكثيرة ، فى سن لا يعرف فيها الصغار غير البسمات المتفتحة كالزنبق ... وكان أبوك يا ابنتى يهيء نفسه لاجتياز فحص شهادة الدراسة الثانوية ، ولقد نالها ثم التحق بالجامعة وغدا من بعد أستاذاً ، وأغلب الظن أنك لن تدركيه على غير هذه الحال ، فهو يشعر أنه — على منبره المنوّر — فوق هذه الحياة التى يحياها الناس ..

وهكذا يا ابنتى شق أبوك الطريق ، ولكن التجربة الكبرى حين بدأ يعى ذاته ، ويعى مجتمعه ، ويعرف فوق ما يعرف البهائم ..

لله يا ابنتى ، ما أقسى الحياة فى بلادنا على من يرتفع شيئاً فوق سوية البهيمة حينذاك يشعر هذا الفرد ، ويبدأ يعانى من نفسه ومن مجتمعه ما يعانى حتى

يكون لنفسه (جواً) ينغمس فيه ، وتنام عينه عن القذى ، وتعوج مثله وتسير الحياة على قدم واحدة وعكاز .

كان أبوك يا ابنتى يعتقد أن للحياة نهجاً تسير عليه ، وأن الكبار كبار حقاً ، وأن الصغار صغار بإرادة الله ، وكان يطمئن لهذا اطمئناناً ، ويعيش عليه رضى الفكر . ثم اكتشف أبوك يا ابنتى أن الحياة — عندنا على الأقل — تسير لا كما يشتهى لها ربها ، بل كما تشتهى لها هذه الفئة المتسلطة على أرضنا وسمائنا وجوناوبشرنا ، واكتشف أن للحياة أكثر من إله واحد ، يبيع الناس ويشتريهم ويخفضهم ويرفعهم ويعطيهم ويمنعهم بإذن من نفسه ، ولقد كان اكتشافا قاسياً يا ابنتى . فعسير على الإنسان أن يخرج من الوحدانية إلى الوثنية . . وعسير عليه أن يؤمن أن هؤلاء الذين يراهم يأكلون ويشربون كما يأكل الناس ويشربون ، هم من طبقة مقدسة غير الطينة التى كون منها ، وأن الروح السخى الدافق الذى يجرى فيهم ، غير الروح البخيل الكدر الذى يجرى فيه ؛ وأن الإله الذى ظنه يعيش فى السماء ، إنما يعيش على الأرض ، بين سمعه وبصره . . فبكى أبوك ، يا ابنتى ومزق نفسه واستل منها إيمانها الأول الجميل وآمن بما يؤمن الناس .

ثم عاد ابوك إلى الحياة يا ابنتى . وقد ظن أنه غدا رجلا .. وأن المحنة لن تطحنه مرة أخرى .. ولكنها خطوة أو أقل من خطوة ، وفاجأه اكتشاف جديد ..

لقد رأى رجالا ضخاما يا ابنتى ، ضخاما كالنخل السامق ، عراضا كأبواب القصور ، امتلأت رؤوسهم ووجوههم (كأولاد الأكابر) .. ورأى على رؤسهم عمائم بيضاء ملتهبة ، ورأى لحاهم المسرحة الذكية النظيفة ، فهزه الإيمان ، وأقبل عليهم يعطيهم من نفسه وقلبه وروحه ويطلب الهدى بهم والجنة على آثارهم . وكانت أصابعهم يا ابنتى ، تختفى فى أكمام الجبة العريضة ، فتناولها أبوك وقبلها ، وغص بإيمانه الحلو النظيف . . وامتلأت عيناه بمواكب زاخرة من الصدق والحق والإيثار . . .

م يا ابنتى

يا ابنتى الصغيرة ، ا كتشف أبوك الصغير ، أن العمامة ليست — دائما لسان الطهارة ، بل هى ستارة الإيمان الذى دونه الكفر . والرأفة التى تفضلها القسوة ، والعلم الذى يعلو عليه الجهل . .

كانوا دجالين يا ابنتى ، تمتد ألسنتهم و تعقد أيديهم ، و تضخم عمائمهم، حتى تملأ الأحضان قلوبهم فارغة إلا من حب الحياة وشهوة العيش الشره إلى الطيبات الطيبات . .

أراهم يا ابنتى فى حياتهم الخاصة لا يقصرون عن فاحشة ، يأكلون أموال الناس ، تصورى يا ابنتى الصغيرة من عالمك الجميل الساحر رجلا يأكل آخر حقه ؛ آه يا ابنتى الصغيرة . . رأى أبوك الصغير ذلك ، ورآهم يغترفون أعراض الناس بالمكيال . . ورآهم يملئون أفواههم بالفحم من الدعاء ، والرقيق من النداء ، ثم — إذا انقلبوا — لم يتركوا بذاءة ولم يعفوا عن كبيرة . . . سمع شتائمهم يا ابنتى ، هؤلاء الكبار آه يا ابنتى التى تعيش فى جنة الطفولة ، سمعهم يسبونه كما يفعل أولاد الشارع ، بل كما يعف عن ذلك أولاد الشارع . ورآهم يفخرون بماضيهم القذر المملوء بالمخزيات ، بل رآهم يفعلون ذلك أمام أولادهم وبناتهم . . آه يا ابنتى ، ياذات العينين الصغيرتين ، هل تصدقين ذلك .

* * *

وصبرى الأشتر ، من الأدباء الذين تولوا تدريس الأدب فى مدارس سورية الثانوية . وثقافته الأدبية فنية . وهو معنى بوضع كتاب عن مناهج الأدب فى سورية لنيل شهادة الماجستير من هذا المعهد . وكتب الكثير من الصور الأدبية المنتزعة من صميم بيئته . وهى وصف دقيق لهذه النماذج البشرية التى تطفو على وجه المجتمع .

* * *

هذا ، وبين زمرة الأدباء أديب شغلته شئون اللغة عن كل شىء فصرف

شطراً من حياته فى كتابة كتاب عن فعل « ليس » ، وهو يعيد طبعه الآن وقد تبلغ صفحاته كما نقل إلىّ الخمسمائة صفحة .

وقد يبدو هذا غريبا فى عصر الذرة ، ولكن حب اللغة وعشقها قد يستبد ببعض العقول فتقذف بها إلى تلك الأجواء التى شغلت علماء الكوفة والبصرة ومن جاء بعدهم آمادا طويلة فجاء خير الدين الأسدى يجتر تلك المجادلات العميقة من جديد فى فترة يعمل أمراء البيان وأساطين الكتاب وجهابذة اللغة الذين تضمهم المجامع العلمية على تبسيط علم النحو لا تعقيده .

ولله فى خلقه شئون ..

وللأستاذ الأسدى قصائد فى التصوف ، وهى من الشعر المنثور المثقل بالكلمات العويصة غير المأنوسة جمعها فى كتاب بعنوان « أغانى القبة » ..

وإليكم قطعة من أدبه الصوفى وهذا آخر ما خطته يراعته من هذا اللون .. قال تحت عنوان :

طبق الحلو

طَبقُ الحلو ، مَمّ الحلو[1] لَذّ الحلو : طَبقُ الحلو على عرش مائدتى استوى .
ياللطرب ! طبقُ الحلو ، أَنَس الحلو ، دَلَع الحلو : طبقُ الحلو دندنْ وقال :

رحيقُ الشجر ، رُضابُ الثمر ، رَوْحُ الزهرَ ، طَعمُ القمر . يا بُبُّو :[2] نَحْ نَحْ[3] ، يا سلام !

أنا شمسٌ توردَّت[4] ، ثم شمسٌ تكوثرت[5] ، ونسمت على الشمسين هبّة

---

(١) الطعام .
(٢) الطفل بلغة الأطفال .
(٣) الحلوى « «
(٤) تحولت إلى ورد ومن مربى الورد كان طعام المائدة .
(٥) اشتقاق من الكوثر ولو لم يسمع .

التحاب ، فأضرمت القلبين ، وتعانقت الذرات

حضن الفلك : فلك الطبق الكوكبين السابحين الدائرين ، ثم ادّغم هذا بذا بقدرة الله العجب : بارى اللهب .

وأطرق حكيم الطبق هنيهة ، كأنما كان يتنسّم الوحى : حكمة الوحى ، ثم مضى يدندن بهدوء :

طهّر بنار الحب أثير الروح ، ثم اهجم انت بك بينك وبينك على حظير السر الرهيب .

جادالوجود عليك بك ، الفلك لك ، والملك لك ؛ فارفه وطرب ، ياودود ! اعلُ صهوة الأرض — ووشاح الجلال على منكبيك — واستعرض مواكب الأنوار والظلال

كل مظاهر الكون فى غرفة الوجود جسد المشاهد لجسدالله البض الدافىء العالم الحنون

انت هودج الحياة ، انت خيمة السر ، أنت مهمة الحيره ، انت انت البيو الكبير أنت أوقيانوس العلم ، أنت طود اليقين ، أنت لغز الخلود ، أنت أنت البيو العظيم أنت صومعة البهاء ، أنت كاس الحق ، أنت آنية الله ، أنت أنت البيو الجليل .

هذه العوالم المنظومة برهيب القدرة ، المنضودة بسنى الحكمة ، المطلولة بندى الرحمة كلها لك ، يا جميل !

اللهم ! غرقت العيون فى لجج العيون : متع العيون ، قبل العيون : عيون الحبور ، عيون الجلال ؛ فنحن فى سكرة ولهى من واردات حانة ربوبيتك أوبى أوبى [1] ، ذرات الوجود واسكبى فى مقصف روحى غماغم مقصف الوجود .

---

(١) رددى التسبيح .

نعم نعم — ياللطرب — طبق الحلو : مم الحلو ، لذ الحلو ، أنس الحلو ، دلع الحلو بيد الرضى مسح الدموع ، ثم مضى : تعال نسكت خاشعين .

وقد ترجم الأسدى قصيدة « عروج أبى العلاء » للشاعر الأرمنى إسحاقيان — ترجم له معانيها أديب أرمنى فصاغها بالعربية . ويضع الآن كتاباً عن « حلب » وجوادّها وحاراتها وأسواقها يتناول الظواهر اللغوية فى مسمياتها .

فاللغة واللغة وحدها هى التى تشغل تفكيره .

إن النهضة الأدبية المعاصرة فى حلب ، تساير نهضة الأدب العربى فى كافة أقطاره . . وحين نحاول أن نقارن بين لون الأدب فى القرن التاسع عشر ، ولونه فى منتصف القرن العشرين ، نرى أماداً طويلة تفصل بين الأدبين .

فقد سرت روح التطور فى أدب المعاصرين ، فكان أدبهم مرآة ذاتهم ومجتمعهم .. أى لم يعد أدبهم مدحاً وهجاء .. ولا فخراً ونسباً .. ولم يعد أدبهم هذا الأدب الذى يعيش فى الأقطمة والقيود .. بل تحرر من عبودية اللفظ وعبودية التزمت والفكر الضيق ، فانطلق يعبر عن خلجات نفسه . . وعن صور مجتمعه .. وعما يواجه وطنه من مشاكل ، وما تحسه الأمة العربية من أحاسيس فى التحرر من كل ما يعوق سيرها وتطورها .

وقد يكون هذا مفهوم الأدب فى يومنا هذا .. وهذا ما يثير أدباء الأقطار العربية ! ! شامها وعراقها ومصرها ونجـــدها وحجازها ومغربها العربى .

* * *

ويبقى التعبير .. ولكل أديب .. ولكل شاعر طاقته .. وطريقته ونهجه وأسلوبه .

وقد أعطينا بعض ملامح عن أدباء حلب — أدباء الأمس وأدباء اليوم .. فإن كانت غير واضحة كل الوضوح ، فهى بمضمونها صادقة كل الصدق .

وأظننى قد أوضحت معالم الطريق لمن يريد دراسة هذه الفترة الطويلة من بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين ، وللباحث المستزيد الذى يريد البحر دون السواقى أن يرجع إلى ماتركه الأدباء والشعراء من كتب ودواوين فقد يكون فيها شفاء الغلة لمن لم يكتف بهذه اللمحات .

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الحركة الأدبية فى حلب : ١

بداية يقظة ـ فجر الدراسات الحديثة ـ اهتمام معهد الدراسات بكل ما يتعلق بالكيان العربي ـ لمحة من تاريخ حلب القديم ـ موقعها الجغرافى ـ بعض خصائصها ـ زراعتها ـ صناعتها ـ أثرياتها ـ حلب الجديدة ـ مؤرخو حلب ـ تاريخها الأدبي ـ طابع الأدب فى عصر الانحطاط ـ سمات الأدب الجديد ـ أدبنا المعاصر ورواده الأوائل .

رزق الله حسون : ٢٣

الشرق العربي فى القرن التاسع عشر ـ مهمة الأدباء المفكرين فى يقظته ـ أدباء ثائرون ـ رزق الله حسون ـ مراحل حياته ـ نزعاته ـ سفره إلى باريس ولندن ـ من القاهرة إلى الآستانة ـ اشتغاله فى الصحافة ـ اتهامه فى أمانته ـ سجنه ـ فراره من السجن وسفره إلى روسيا ـ ترجماته عن الأدب الروسى ـ عودته إلى لندن ـ اهتمامه بالمخطوطات العربية ـ نقل قصص من التوراة شعراً ـ نماذج من شعره المترجم .

جبرائيل الدلال : ٥٤

نشأته ـ سفره إلى الآستانة ـ أيامه فى باريس ـ رحلته إلى الأندلس ـ اشتغاله بالصحافة فى مراكش ـ اتصاله بخير الدين باشا وزير باى تونس ـ لمحة عن صفات الوزير ـ سفر الدلال إلى فينا ـ عودته إلى وطنه ـ نزعاته التجديدية التى أودت به إلى السجن ـ موته ـ قصيدة « العرش والهيكل » .

عبد الرحمن الكواكبي : ٨٧

فكرة الالتزام فى الأدب ـ غفوة الشرق واثر المفكرين فى يقظته ـ الصراع بين دعاة الحرية وحماة العبودية ـ نشأة الكواكبي ـ خصائصه ونزعاته ـ ثقافته ـ الوظائف التى شغلها ـ عمله فى الصحافة ـ مقارعته الاستبداد ـ سجنه ـ فراره إلى مصر ـ دعوته إلى تحرير العرب ـ كتبه ـ نهايته .

الموضوع	الصفحة
أبو الهدى الصيادى :	١١٣
نشأته الأولى ـ شعر وتصوف وسياسة ـ من قرية خان شيخون إلى استانبول عاصمة الخلافة ـ تمائم ورؤى ـ المرأة طريق المجد ـ دسائس ووشايات ـ بينه وبين جمال الدين الأفغاني ـ بينه وبين عزة العابد ـ إيمان عبد الحميد بسلطانه الروحى ـ نهايته ـ من شعره الصوفى .	
آل المراش :	١٣٥
مذاهب الأدب السائدة فى عصرهم ـ نشأتهم ومراحل حياتهم ـ صالون مريانا الأدبي ـ تأرجح فرانسيس بين العلم والأدب ـ أيامه فى باريس ـ اهتمام عبد الله بالمخطوطات ـ نماذج من أدبهم	
عادل الغضبان (انظر الكلام عنه فى الفصل المعقود عن آل المراش)	١٥٤
نهاية مرحلة :	١٥٩
بشير الغزى	١٦٢
كامل الغزى	١٨٢
ميخائيل الصقال	١٨٧
راغب الطباخ	١٨٨
عبد المسيح الأنطاكى	١٨٩
قسطاكى الحمصى	١٩٣
إبراهيم صالح الكيالى	١٩٧
بدر الدين النعسانى	١٩٩
شكرى كنيدر	٢٠٢
الصحافة الحلبية	٢٠٣
بين قوتين :	٢١١
الصراع بين القديم والجديد ـ الاستجابة لتيارات الأدب الحديث ـ مفهوم الأدب ـ أدباء معاصرون .	
على الناصر	٢٢٠

الموضوع	الصفحة
عمر أبو ريشة	٢٢٢
خليل الهنداوى	٢٢٦
أورخان ميسر	٢٢٧
شارل الخورى	٢٢٩
مصطفى بدوى	٢٣١

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة